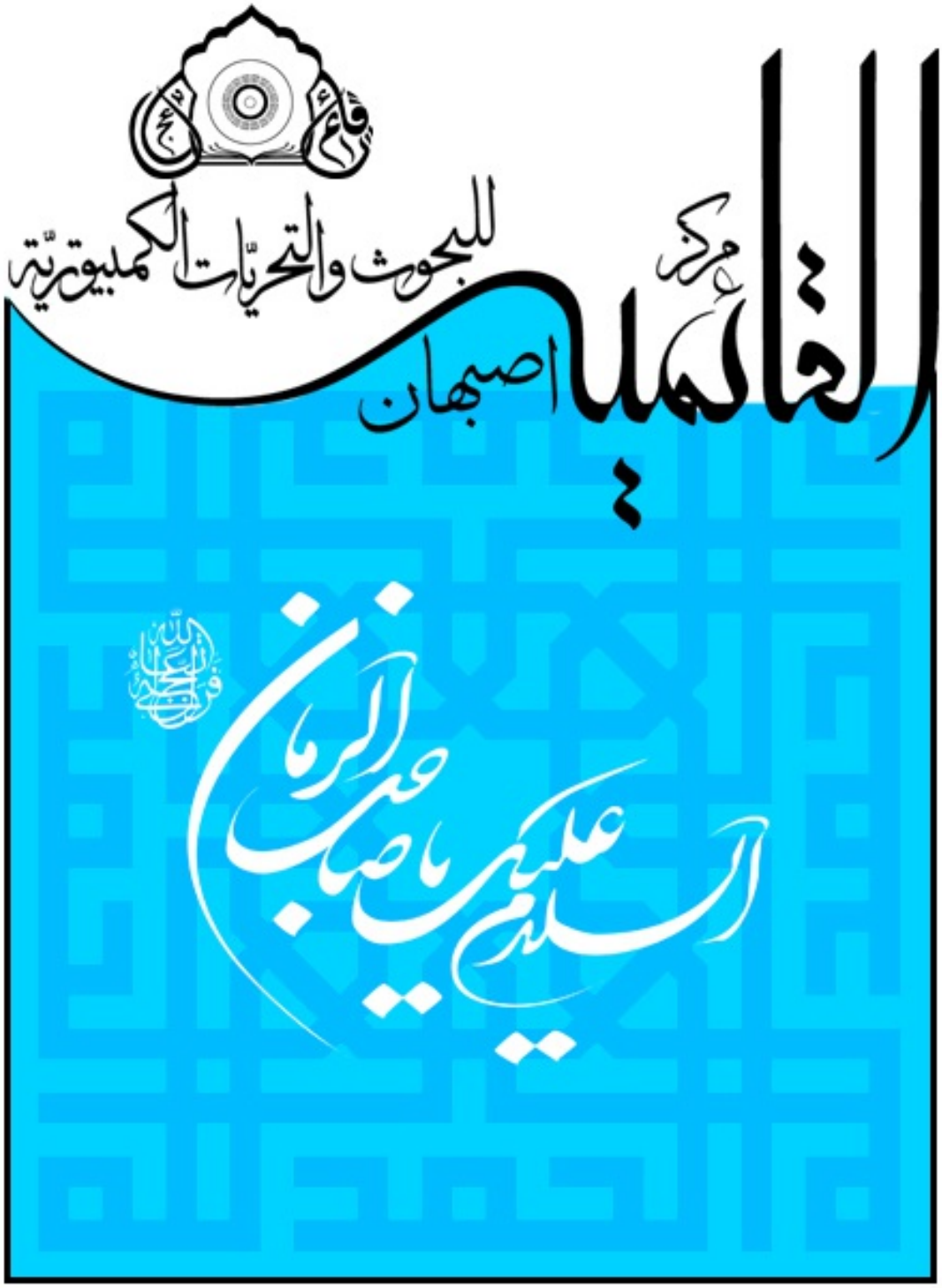

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

جعفر المرتضى

موسوعة العتبات المقدسة

٣

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعه العتبات المقدسه

كاتب:

جعفر الخليلى

نشرت فى الطباعة:

موسسة الاعلمى للمطبوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
موسوعة العتبات المقدسة، المجلد ۳ ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الجزء الثالث ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
المدينة المنورة قديما ----- ۱۲
يثرب و موقعها الجغرافى ----- ۱۲
يثرب و أسماؤها ----- ۱۵
سكان الحجاز و الجزيرة العربية ----- ۱۶
حياة سكان الجزيرة العامة ----- ۱۸
نشأة المدينة المنورة و سكانها الأقدمون ----- ۱۸
نزول اليهود المدينة ----- ۲۰
الأوس و الخزرج ----- ۲۲
حضارة المدنية و منازل اليهود و العرب منها ----- ۲۳
الاسطورة ----- ۲۵
عودة الى التصافى ----- ۲۶
حروب المدينة و أيامها المشهورة ----- ۲۷
طبيعة المدينة و سكانها و ميزتها ----- ۲۸
عوامل السكن و التمصير ----- ۳۲
قوام الزراعة و مياه المدينة ----- ۳۳
الوديان- ۱ ----- ۳۴
وادى العقيق ----- ۳۴
وادى القرى ----- ۳۴

وادی مذینیب ----- ۳۴
العیون- ۲ ----- ۳۵
عین فدک ----- ۳۵
عیون الفرع ----- ۳۵
عین دومة الجندل ----- ۳۵
عین أبی نیزر و عین البغیبغة ----- ۳۵
الآبار- ۳ ----- ۳۶
اشارة ----- ۳۶
بئر غرس ----- ۳۶
بئر أرما ----- ۳۶
بئر أریس ----- ۳۶
بئر حا ----- ۳۷
بئر بضاعة ----- ۳۷
بئر رومة ----- ۳۸
بئر رئاب ----- ۳۸
بئر عروة ----- ۳۹
الحاصلات الزراعیة ----- ۴۰
الصناعة و التجارة ----- ۴۳
اشهر قری المدینة و ضیاعها ----- ۴۴
اشارة ----- ۴۵
العقیق ----- ۴۵
خیبر ----- ۴۵
قریة فدک ----- ۴۸
وادی القری ----- ۴۹

قریة الفرع ----- ۵۰
قریة قبا ----- ۵۰
دومة الجندل ----- ۵۱
قریة ینبع ----- ۵۲
قری أخری ----- ۵۲
اشهر مواقع المدینة و اماکنها القدیمة ----- ۵۲
حرة واقم ----- ۵۳
حرّة الوبرة ----- ۵۳
البقیع ----- ۵۳
زغابه ----- ۵۵
النقا و حاجر ----- ۵۶
المنحنی ----- ۵۶
حطم الضحیان ----- ۵۶
حصن کعب بن الأشرف النبهانی ----- ۵۶
سقیفة بنی ساعدة ----- ۵۷
ثنیّة الوداع ----- ۵۷
سوق المدینة و سوق بنی قینقاع ----- ۵۷
أهم مصادر البحث ----- ۵۷
المدینة المنورة فی الشعر ----- ۵۹
اشارة ----- ۵۹
أبو بکر العیدی أو العیذی ----- ۵۹
الأعشی (میمون بن قیس بن جندل) ----- ۶۰
امرؤ القیس ----- ۶۰
البرجمیّ ----- ۶۰

بعض الأفاضل ---- ۶۰
جریر ---- ۶۰
جورج صیدح فی مولد النبی محمد (ص) ---- ۶۱
حسان بن ثابت ---- ۶۱
السید حیدر الحلّی ---- ۶۲
سعید بن العاص ---- ۶۲
شاعر ---- ۶۲
شاعر مدنی ---- ۶۲
الشریف الرضیّ ---- ۶۳
الشریف المرتضی ---- ۶۳
عبد السلام بن یوسف ---- ۶۳
عبد اللّه بن قیس (الرقیّات) ---- ۶۴
عمرو بن النعمان البیاضیّ ---- ۶۴
الفرزدق ---- ۶۴
الکمیت بن زید الأسدی ---- ۶۴
الشیخ محسن الخضری ---- ۶۵
محمد ناجی القشطینی ---- ۶۶
مهیار الدیلمی ---- ۶۶
نائلة بنت الفرافصة ---- ۶۷
هاشم الکعبی ---- ۶۷
هجرة الرسول الی المدینة المنورة ---- ۶۷
اشارة ---- ۶۷
الدکتور حسین امین ---- ۶۷
هجرة الرسول الی المدینة ---- ۶۸

اللقاءات الأولى مع أهل المدينة ---- ۷۱
بيعة العقبة الأولى ---- ۷۱
بيعة العقبة الثانية ---- ۷۳
أثر العلاقات بين المسلمين و أهل يثرب فى مكة ---- ۷۳
يوم الهجرة ---- ۷۴
طريق الهجرة ---- ۷۵
الرسول فى قباء ---- ۷۶
بناء مسجد قباء ---- ۷۶
توجه الرسول إلى يثرب ---- ۷۷
بناء المسجد النبوى ---- ۷۷
أعمال الرسول فى يثرب ---- ۷۹
المؤاخاة ---- ۷۹
الوثيقة ---- ۸۰
المراجع المشار اليها بالارقام ---- ۸۵
مدينة الرسول فى المراجع الغربية ---- ۸۸
اشارة ---- ۸۸
الاسم و الموقع ---- ۸۸
التاريخ القديم ---- ۹۱
الاوس و الخزرج ---- ۹۲
ديانة أهل المدينة قبل الإسلام ---- ۹۳
المدينة فى عهد النبى الأعظم ---- ۹۴
المدينة بعد مقتل عثمان ---- ۹۶
المدينة فى عهد الأمويين و العباسيين ---- ۹۷
فى أيام الفاطميين و ما بعدهم ---- ۹۸

فی عهد الاتراک العثمانیین ----- ۹۹
وصف المدینة بشکلها الأخیر ----- ۹۹
الحرم النبوی ----- ۱۰۰
وصف الحرام ----- ۱۰۱
المدینة فی مراجع اخری ----- ۱۰۳
الفتنة الکبری فی المدینة ----- ۱۰۶
المدینة فی کتاب دونالدسون ----- ۱۰۸
أئمة البقیع ----- ۱۱۱
الرحالة الغربیون فی المدینة ----- ۱۱۸
جون لویس بورخارت فی المدینة ----- ۱۲۰
الضواحی ----- ۱۲۲
الحرم النبوی الشریف ----- ۱۲۲
أماکن الزیارة الأخری ----- ۱۲۶
سکان المدینة ----- ۱۲۷
حکومة المدینة ----- ۱۲۸
السر ریتشارد بورتون فی المدینة ----- ۱۲۹
بین مکة و المدینة ----- ۱۳۰
مظهر الحرم النبوی ----- ۱۳۱
المنائر ----- ۱۳۱
الأروقة و الأعمدة ----- ۱۳۲
دفن النبی ----- ۱۳۳
شیء من تاریخ المدینة ----- ۱۳۴
تشکیلات الحرم ----- ۱۳۶
سکان المدینة ----- ۱۳۸

البقیع ----- ۱۳۸
مساجد المدینة ----- ۱۴۱
مشاهدات جون کین فی المدینة ----- ۱۴۳
سکة حدید الحجاز ----- ۱۴۵
المدینة فی الثورة العربیة (۹ شعبان) ----- ۱۴۶
الشریف علی حیدر فی المدینة ----- ۱۵۲
المدینة فی ۱۹۲۵ ----- ۱۵۵
مکتبات المدینة ----- ۱۵۹
ابواب الحرم و محاریبه ----- ۱۵۹
البقیع فی ۱۹۲۵ ----- ۱۶۰
المدینة فی مؤلفات فیلبی ----- ۱۶۱
الفهرس ----- ۱۶۵
هذه الموسوعة ----- ۱۶۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۷۰

موسوعة العتبات المقدسة، المجلد ۳

اشارة

سرشناسه : خليلى، جعفر، ۱۹۰۴ - م.

عنوان و نام پديدآور : موسوعه العتبات‌المقدسه/ تاليف جعفر الخليلى.

مشخصات نشر : بيروت: موسسه‌الاعلمى للمطبوعات، ۱۴ق= .-۱۳-

مشخصات ظاهرى : ج: .مصور، عكس.

يادداشت : عربى.

يادداشت : فهرستنويسى بر اساس جلد ششم، قسمت اول: ۱۹۸۷م = ۱۴۰۷ق = [۱۳۶۶].

يادداشت : چاپ دوم.

يادداشت : ج.۱ (چاپ اول: ۱۳۸۷ق. = ۱۹۶۷م.= ۱۳۴۶).

يادداشت : ناشر جلد يكم كتاب حاضر دارالتعارف مى باشد.

يادداشت : كتابنامه.

مندرجات : ج.۱. قسم كاظمين.- ج. ۶، ق. ۱، قسم‌النجف. - ج. ۷، ق. ۲، قسم‌النجف

موضوع : زيارتگاههاى اسلامى -- تاريخ

موضوع : زيارتگاه‌هاى اسلامى -- عراق

رده بندى كنگره : DSv۷۹/۹ /ز۹خ۸ ۱۳۰۰ى

رده بندى ديويى : ۹۵۶/۷۵

شماره كتابشناسى ملى : ۱۲۵۹۱۵

الجزء الثالث

اشارة

المدينة المنورة قديما

إلمامة تاريخية شاملة عن المدينة المنورة منذ اول تمصيرها حتى قيام الاسلام كتبها جعفر الخليلى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷

المدينة المنورة قديما

يثرب و موقعها الجغرافى

يثرب ثانية مدن الحجاز القديمة و أهم مدينة حجازية تاريخية بعد مكة المكرمة من حيث السعة و التجارة، و أهم مدينة حجازية من حيث الحاصلات الزراعية و وفرة المياه و لعل البعض قد فضلها على مكة المكرمة من حيث القدسية و من هؤلاء كان الخليفة عمر بن الخطاب (ض).

و الحجاز أحد أقاليم الجزيرة العربية الواقع فى غرب جزيرة العرب، و هو إقليم مستطيل تحده قديما من الشمال بادية الشام أو الأردن

الحاليـة، و من الغرب البحر الأـحمر، و من الشـرق نجـد، و من الجنوب بلاد العسـير، و يبلغ طول الحجاز من الشـمال إلى الجنوب نحو ۱۶۰۰ كيلو متر، و عرضه من الغرب إلى الشرق نحو ۳۰۰ كيلو متر، و قدر بالأميال بنحو ۷۰۰ ميل طولا و ۲۵۰ ميلا عرضا.

و تقطع الحجـاز من الشـمال إلى الجنوب جبال (السـراة) و يبلغ ارتفاع بعضـها نحو ۸۰۰۰ قـدم، و يتصل بمنحدرات هذه الجبال سـهل مشـهور هو السـهل المعروف بـاسم (تهامـة) و قيـل إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين الأرض العاليـة من نجـد و بين الساحل الواطىء (تهامة). و الحجاز

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸

على هذا هو الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير، و قيل: بل سمى حجازا لأنه يحجز بين الشام و اليمن و التهائم .

و اعتبر البعض اسم الحجاز شاملا لتهامـة، و تبوك، و حتى فلسـطين، و أن يثرب المدينـة واقعـة فى القسم الشـمالى من الحجاز و على بعد ۳۰۰ ميل شـمالى مكـة المكرمـة و فى طريق الشام للمصـعد من اليمن و مكـة، و على مسافة ۱۳۰ ميلا عن ينبع ميناء المدينـة على البحر الأحمر، و يثرب هذه واحة خصـبة التربة غزيرة المياه محصورة بين حرّتين أو ما تسـمّى باللّابتين، و فى أرض سبخة- و الحرّة هى الحجارة البركانيـة السوداء المنخوبة، و السـبخة هى التربة المشوبة بالملح- و هاتان الحرّتان اللتان تقع يثرب بينهما هما حرّة (واقم) فى الشرق، و حرّة (الوبرة) فى الغرب، و تكتنف الوديان الحرّتين من الشرق و من الغرب، و تحيط بالمدينة من جهاتها الأربع.

و يجمل أحمد ابراهيم الشريف موقع المدينة و يستخلصه من المصادر و من مشاهداته فيقول: و يقع جبل (عير) فى الجنوب الغربى من يترب، و القـادم من مكـة إلى يثرب- فى زمن الهجرة النبويـة- كـان يمكنه إذا قـام بأعلى جبل (عير) أن يحـدّد صورة مكتملـة لمنطقة يثرب، فوادى العقيق إلى يسـاره ممتـدا غربى المدينـة فيمـا وراء حرّة (الوبرة) إلى ما بعـد بئر (رومـة) فى شـمالها الغربى، و العريض و عوالى المدينة إلى يمينه من شرق حرّة (واقم)، و هناك من أقصى الشمال يقوم جبل (أحد) ثم جبل (سلع).

و تقع قرية (قباء) فى جنوب المدينة على ميلين، و بين قباء و المدينة يسير وادى (بطحان) و وادى (رانوناء) حيث يتجهان شمالا فيما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹

بين حرّة (الوبرة) و المدينـة فيتصـلان بوادى (قناة)، و هو واد يقع فى جنوب (أحـد) و ينحـدر غربا بينه و بين جبل (سـلع) حتى يتصـل بوادى (بطحـان)، و تلتقى هـذه الوديـان عنـد مجتمع الأسـيال من (رومـة)، كمـا يوجـد وادى (مزينيب)، و وادى (مهزور) فى الجنوب الشرقى من المدينة و التى سيأتى ذكرها فيما بعد من هذا البحث.

و تقع مدينـة (يـثرب) بين خـط العرض ۲۴- ۲۵ شـمالا، و على خـط الطـول ۳۹،- ۴۰، شـرقى كرينتش، و لجبالهـا و مرتفعاتها شـهرة اكتسـبت معظمهـا بعـد هجرة الرسول إلى المدينـة و بسـبب ما حـدث عنـدها من حوادث مهمـة فى تاريـخ الإسـلام مما أضـفت عليها الأحاديث الشـىء الكثير من الثناء و الـذكر الطيب، و من أهم هذه الجبال: جبل (أحد)، و هو واقع شـمال المدينة بينه و بينها قرابة ميل واحـد، و هو جبل أحمر، و عنـده كانت الوقعة الفظيعة التى اشـتهر بها (أحد) و التى قتل فيها سـبعون من خيرة أصـحاب النبى (ص) و منهم كان حمزة بن عبـد المطلب عمّ النبى (ص) فأقبلت (هند) زوج أبى سـفيان و أم معاوية، و لم يكفها أنه مات- كما يقول هيكل- بـل مثّلت به مـا لم يمثّـل بأحـد فى غزاة، إذ جـدعت أنفه، و قطعت أذنيه، و شـقّت بطنه، و أخرجت كبـده تمضـغها و تلوكها تشـفيا و سخيمـة فلقبت بآكلة الأكباد، و أقبلت يومذاك (صـفيّة) بنت عبد المطلب و هى أخت حمزة لأبيه و لامه، فقال رسول اللّه (ص) لابنها الزبير بن العوّام: إلقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها، فقال لها الزبير: يا أمّه، رسول اللّه يأمرك أن ترجعى، قالت: و لم؟ و قد بلغنى أنه مثّل بأخى و ذلك فى اللّه، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنّ و لأصبرنّ إن شاء اللّه، فجاء الزبير فأخبره

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰

بذلك، فقال الرسول (ص): خلّ سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، و صلّت عليه و استرجعت، و اسـتغفرت له فأمر به النبى (ص) فسجّى ببردة ثم صـلى عليه، فكبر عليه سـبعين و دفنه، و لما رجع إلى المدينـة سـمع البكاء و النواح على القتلى فـذرفت عيناه و بكى، ثم قال: لكن

حمزة لا بواكى له، فجاءت نساء بنى عبد الأشهل لما سمعوا ذلك- و هم من بطون الاوس- فبكين على عمّ رسول اللّه (ص) و نحن على باب المسجد، فلما سمعهن خرج إليهن فقال: إرجعن يرحمكن اللّه قد أيستن بأنفسكن .

و هذا ما جعل لأحد بالإضافة إلى الوقعة الكبيرة شهرة واسعة زادها ذكرا موقع هذا الجبل و صفاؤه فيما حوله حتى لقد ورد ذكره فى الشعر كثيرا و مما ورد: هو أن محمد بن عبد الملك الفقعسى حين كان ببغداد حنّ إلى وطنه و ذكر (أحدا) و سلعا دون الجهات الأخرى فقال فيما قال:

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةبسلع، و لم تغلق علىّ دروب

و هل (أحد) بادلنا و كأنهحصان أمام المقربات جنيب

يخبّ السراب الضحل بينى و بينهفيبدو لعينى تارة و يغيب

فإنّ شفائى نظرة إن نظرتهاإلى (أحد) و الحرّتان قريب

و من أشهر جبال المدينة جبل (ورقان) و هو جبل أسود واقع على يمين المتجه من المدينة إلى مكة. جاء فى معجم البلدان عن عرّام بن الأصبغ فى أسماء جبال تهامة قوله: و لمن صدر من المدينة مصعدا أول جبل يلقاه من عن يساره ورقان و هو جبل عظيم اسود كأعظم ما يكون من الجبال،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱

و فى ورقان أنواع الشجر المثمر و غير المثمر، و قد ورد فيه شعر كثير و من ذلك قول أبى سلمة يمدح الزبير:

إنّ السماح من الزبير محالفما كان من ورقان ركن يافع

فتحالفا لا يغدران بذمةهذا يجود به و هذا شافع

و جبل (رضوى) و يقع على نحو سبع مراحل من المدينة، و هو عند ميناء المدينة (ينبع) و من (رضوى) هذا يقطع حجر المسنّ و يحمل إلى الخارج، و هو جبل منيف ذو شعاب و أودية قال ياقوت الحموى:

و رأيته من (ينبع) أخضر، و أخبرنى من طاف فى شعابه أن به مياها كثيرة و أشجارا و هو الجبل الذى يزعم (الكيسانية) أن محمد بن الحنفية به مقيم حى يرزق، على ما قال ياقوت.

و فى هذه الجبال الثلاثة وردت أحاديث مباركة عن النبى (ص) فمن قوله فى جبل أحد: أحد نحبّه و يحبّنا ، و فى (ورقان) قوله: خير الجبال أحد و الأشعر و ورقان، و الأشعر جبل جهينة ينحدر على ينبع من أعلاه، و فى (رضوى) قوله: رضوى رضى اللّه عنه .

و هنالك جبال أخرى و منها (سلع) و هو واقع فى سوق المدينة و على مسافة ساعتين، و فى سلع وردت أشعار كثيرة و بعض هذه الأشعار قد دخل الغناء و منه شعر لقيس بن ذريح و قد غنّته ذات مرة حبّابة جارية يزيد بن عبد الملك و كانت من أحسن الناس وجها و مسموعا على ما أورد ياقوت عن الأصمعى، و كان يزيد شديد الكلف بها و كان منشؤها المدينة المنورة، فغنت:

لعمرك إننى لأحبّ سلعالرؤيته و من اكناف سلع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲ تقرّ بقربه عينى، و إنىلأخشى أن يكون يريد فجعى

حلفت بربّ مكة و المصلّىو أيدى السابحات غداة جمع

لأنت على التنائى فاعلميهأحبّ إلىّ من بصرى و سمعى

و تنفست حبّابة الصعداء على رواية الأصمعى، فقال لها يزيد: لم تتنفسين؟ و اللّه لو أردته- يقصد جبل سلع- لقلعته اليك حجرا حجرا، فقالت: و ما أصنع به؟ إنما أردت ساكنيه.

و من جبالها (عير) قال عرّام على ما جاء فى معجم البلدان أن (عير) جبلان أحمران من عن يمينك و أنت ببطن العقيق تريد مكة، و من عن يسارك شوران و هو جبل مطل على السدّ، و قال نصر: عير جبل مقابل الثنية المعروفة بشعب الخوز، و ذكر عير كذلك فى

الشعر و منه قول أبى صخر الهذلى:

فجلّل ذا عير و والى رهامهو عن مخمص الحجاج ليس بناكب

و قال السكرى أن عير جبل، و مخمص: اسم طريق فيه و يروى ذا عير و هو جبل عظيم شامخ يقع فى جنوب المدينة و على مسافة ساعتين منها.

أما مناخ المنطقة فيختلف باختلاف الموقع من حيث الارتفاع و وفرة المياه و كثرة البساتين؛ و مع ذلك فهو على العموم شديد الحرارة و لا سيما مناخ المدينة نفسها.

يثرب و أسماؤها

و يثرب هو الاسم التاريخى الذى كان يطلق على هذه المدينة قديما و التى عرفت بعد ذلك (بمدينة الرسول)، و قد اختلف المؤرخون و اللغويون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳

فى أصل هذا الاسم و اعتبره البعض من مشتقات التثريب و هو الإفساد و التخليط لغة، و لكن هذا البعض لم يذكر شيئا عن وجه هذه التسمية و أسبابها إذا صح أن تكون من التثريب العربية، و قد قيل إن اسم يثرب هو اسم الأرض من ذلك الصقع . و قيل بل هو اسم المدينة نفسها؛ و قد زعم آخرون أن يثرب قد سميت باسم أول من سكنها من ولد سام بن نوح!! و زعم غيرهم أنها سميت باسم رجل من العمالقة!!

و هناك من يزعم أن كلمة يثرب محرّفة من الكلمة المصرية (إثريبس) و يقول ياقوت: إنها سميت بيثرب لأن أول من سكنها عند التفرق كان يثرب بن قانية بن مهلائيل ابن ارم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام ابن نوح! ، و كل هذه أقوال ليس لها ما يسندها من واقع التاريخ شىء، و عندنا أن ليس من الشرط أن يعرف سبب تسمية المدن بأسمائها ليحتاج الأمر إلى مثل هذه الأقوال. و التضارب فيها، و كل ما هو ثابت: أن يثرب مدينة قديمة، و موغلة فى القدم، و لا يعرف بالضبط سبب تسميتها كما لم تعرف أسباب تسمية مئات المدن التاريخية و حتى مدن القرون الوسطى بل و بعض مدن القرون الأخيرة.

و ما من مدينة من المدن الإسلامية كان لها من الأسماء و كثرتها كمدينة يثرب، و إذا صح أن كل هذه الأسماء الواردة فى كتب التاريخ هى أسماء لمدينة (يثرب) فالراجح أن كل اسم من هذه الأسماء قد أطلق عليها بناء على صفة اتصفت بها أو اريدان تتصف بها و أن معظمها قد أطلق عليها بعد هجرة الرسول (ص).

و أورد ابن النجار فى سلسلة من الأقوال أن: «للمدينة فى التوراة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴

احد عشر اسما » و قد عدّد هذه الأسماء و ذكرها و لم يكن بينها اسم ليثرب!! و روى ابن النجار بعد ذلك عن عبد العزيز بن محمد قوله:

«و بلغنى أن لها فى التوراة- أى يثرب- أربعين اسما » و قد أوصلها صاحب كتاب وفاء الوفا إلى نيف و تسعين اسما!!

أما ياقوت الحموى فقد أحصى أسماء المدينة فوجدها تسعة و عشرين اسما و هى المدينة، و طيبة، و طابة، و المسكينة، و العذراء، و الجابرة، و المحبة، و المحبّبة، و المحبورة، و يثرب، و الناجية، و الموفية، و أكّالة البلدان، و المباركة، و المحفوفة، و المسلمة، و المجنّة، و القدسيّة، و العاصمة ، و المرزوقة، و الشافية، و الخيّرة، و المحبوبة، و المرحومة، و جابرة، و المختارة، و المحرمة، و القاصمة و طبابا .

قال ابن الأثير فى الحديث: إن النبى (ص) هو الذى سمى يثرب، طيبة و طابة لأن المدينة كان اسمها يثرب، و الثرب هو الفساد، فنهى

أن تسمى به، و سماها طابة، و طيبة .

و يقول القزويني: إن من خصائص (المدينة) أنّ من دخلها يشم رائحة الطيب، و للعطر فيها رائحة لم توجد في غيرها و على هذا فالراجح أن يكون النبي (ص) قد أطلق عليها اسم (طيبة) لهذا السبب، و مع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵

ذلك فهناك من المؤرخين من يرى أن اسم (طيبة) كان من أسماء يثرب في الجاهلية و قبل ظهور الإسلام.

و على كثرة أسماء المدينة المنورة فقد اختصت بالشهرة باسم (يثرب) و باسم (المدينة) و اسم (طيبة) دون الأسماء الأخرى، و كان اسم يثرب هو أقدم اسم عرفت به هذه المدينة أو هذه الأرض ثم تغلب اسم (المدينة) بعد ذلك على يثرب و طيبة فسميت بعد هجرة النبي اليها (بمدينة الرسول) تمييزا لها عن المدن الأخرى، ثم اكتفى بعد ذلك باسم المدينة منفردا و ألحقت بها الصفة فصارت تسمى بالمدينة المنورة.

و النسبة إلى (يثرب): يثربي و أثربي، و النسبة إلى المدينة المنورة:

مدنيّ، و لغير (المدينة) تختلف النسبة؛ فإذا نسبت إلى مدينة المنصور قيل: مدينيّ، و إلى مدائن كسرى قيل: مدائني، و ذلك للتفريق بين النسب لئلا تختلط .

و ذكر بطليموس (المدينة) في جغرافيته باسم LathriPPa و هي أيضا Polis. LathrPPa التي ذكرها اصطيفانوس البيزنطي و عرفت كذلك باسم (المدينة) من كلمة (مدينتا) التي تعني (الحمى) أي (مدينة) على رأي المستشرقين الذين يرون أن اليهود المتأثرين بالثقافة الارامية أو بعض المتهودين من بني إرم الذين نزلوا (يثرب) هم الذين دعوها (مدينتا) و منها جاءت (المدينة).

أما كلمة (مدينة) على أنها اختصار (لمدينة الرسول) فيرون أنه رأي متأخر قال به العلماء .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶

سكان الحجاز و الجزيرة العربية

لكي نعرف الشيء الكافي عن نشأة المدينة المنورة و سكانها في العصر الجاهلي، أو لكي نعرف بعض ما يمكن معرفته منها فإن علينا ان نلقي نظرة عابرة على الجزيرة العربية و أصل العرب و مبعثهم ليسهل علينا بعد ذلك ان نعرف جنسية سكان الحجاز بصورة عامة و جنسية سكان المدينة بصورة خاصة و أسلوب حياتهم.

و من المؤسف ان تكون الوسائل التي يتم بها الوقوف على تاريخ العرب القديم بصورة علمية عميقة ليست كافية لتعطينا فكرة كاملة عن حياة العرب القديمة، و كل ما ورد في الأخبار و القصص و الأشعار و الأساطير لا يتعدى مدى قرن أو قرنين على الأكثر قبل بعثة الرسول (ص) ثم ان كل ما جاء في الكتب العربية من تاريخ العرب- على ما أشار اليه فريد وجدي في دائرة المعارف- إنما كان يراد به الجانب الأدبي و تاريخه في الغالب، فأين هو من الحقائق المؤيدة بالآثار و النقوش التي لا مجال للشك فيها.

و قد كتب في تاريخ العرب فطاحل من المؤرخين الاروبيين مثل (دروي) و (سديو) و (كوستاف لوبون) و (كوسان دوبرسفال) و هذا الأخير أشهرهم جميعا، و يعتبر كتابه أجمع الكتب لتاريخ العرب و لكنه دون كتاب تاريخ العرب للدكتور جواد علي من حيث الجمع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷

و التحقيق و الاستقصاء- و على أن ما كتبه المستشرقون عن تاريخ العرب كان مستمدا من الكتب العربية فقد كان لهم فيه فضل التبويب و الترتيب، و صحة الاستنتاج، و الاستقصاء، و مع ذلك فإن هذا غير كاف لتحقيق تاريخ علمي صحيح للعرب، إذ المعول كله على ما يبذله المنقبون في الآثار و النقوش العربية و الخطوط التي يعثرون عليها في اليمن و تدمر و الحجاز، فإن هنالك آثارا عليها نقوش حميرية بالقلم المسند، و نقوش آرامية بالقلم النبطي قد بدأت تكشف عن التاريخ القديم و تسفر عن الحقائق التي لم يكن

يعرفها أحد من قبل عن العرب و تاريخهم البعيد و تلقى ضوءا على فهم هذا التاريخ.

و أول من تصدى لهذه المباحث كان العالم الألمانى (ميخايلس) المتوفى سنة ۱۸۹۱ ثم عثر الضابط الإنكليزى (و لسند) سنة ۱۸۳۸ على نقوش حميرية باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام و لكنهم لم يستطيعوا حل رموزها إلا بعد سنين.

و وجد الضابط الإنكليزى (گروتندن) فى صنعاء نقوشا ظن أنها من خرائب مدينة (مأرب)، و أول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش و الآثار كان المسيو (أرنو) فإنه اخترق اليمن سنة ۱۸۴۳ و عاد و معه ۵۶ نقشا نقلها من صنعاء، ثم جاء المستشرق (أرسياندر) فحل رموز الآثار التى وجدها (أرنو) و ذلك سنة ۱۸۴۵.

و بعد هذا أرسلت وزارة المعارف الفرنسية المستشرق (جوزيف هاليفى) سنة ۱۸۶۹ إلى اليمن فسار حتى بلغ مأرب، و رجع و معه ۶۸۰ نقشا، و جاء بعده (أدورد گلازر) الألمانى، و ساح فى اليمن مرارا و نقل منها الف نقش. بينها نقوش غاية فى القيمة التاريخية.

و عثر الباحثون أيضا فى شمالى بلاد العرب على آثار الأنباط فوجدوا منها آثارا كثيرة فى مدينة (بطرا) و مدينة (الحجر) و اكتشفوا فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸

(حوران) و (العلا) نقوشا بالخط المسند الحميرى .

و قد لقى القرن العشرون من عناية علماء الآثار و البحاثين الشىء الكثير الذى كشف عن نواحى كانت غامضة من تاريخ العرب القديم، و مع ذلك فإن جميع ما اكتشف و ما حققه الباحثون لا يؤلف إلا جزءا صغيرا من التاريخ العربى فى الأدوار القديمة التى تخص العرب البائدة، و ظل التاريخ العربى القديم يعتمد فى حكايته على الأساطير و ما يترشح منها من القصص و مما ورد فى التوراة أو الأخبار و الشعر و الأمثال.

و العرب على ما وصل إلينا من أخبارهم و على ما قسمهم المؤرخون قسمان: العرب البائدة. و هم الذين بادوا و انقرضوا قبل الإسلام بزمن بعيد و لم يبق منهم إلا- تلك الأساطير المشار إليها و الحكايات التى لا- تزال تفتقر إلى ما يسندها من الآثار و النقوش، و الخطوط، و هم قبائل: عاد، و ثمود، و العمالقة، و طسم، و جديس، و جرهم و غيرهم، و قد ترشح إلينا من أخبارهم الشىء الذى لم يزل موضع مناقشة عند المؤرخين منها أخبار التبابعة و الأذواء الذين شيدوا البنيان فى الشرق و الغرب و مصّروا الأمصار، و الذين بنوا المدن الكبيرة (كافريقش) بن أبرهة، و ما بنوا فى المغرب من المدن كمدينة (أفريقيا) و (صقليا) و ما كوّروا من الكور هناك و ما اتخذوا من العمائر فى أرض المشرق و بنيان مدينة (سمرقند) و ما خلفوا هناك من قبائل حميرية بها و منهم الحمورابيون ملوك بابل، و كل هذا و أمثاله مما ورد عن العرب البائدة لم يزل قيد الدرس عند المؤرخين الذين يبحثون اليوم بجد بين الآثار لمعرفة ما فى تلك القصص و الأخبار من الواقع الذى تسنده الآثار و تثبته الخطوط و النقوش.

و الثابت من الآثار و التنقيبات التى أجريت فى اليمن فى السنين الأخيرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹

هو أن دولا- عربية كانت ذات حضارة و نظام قد قامت فى التاريخ القديم فكان منها الدولة المعينية، و الدولة السبأية، و الدولة الحميرية، و قد دلت هذه الآثار على مدنية قديمة ربما لم تقل شأنا عن مدنية الأشوريين، و المصريين، و الفينيقيين، فقد أنشأت تلك الدول فى اليمن المدن، و عمرت القصور، و غرست الحدائق، و نحتت التماثيل، و حفرت المناجم، و نظمت الجند، و فتحت البلاد، و وسعت التجارة، و أتقنت الزراعة، و قد ذكرهم هيردوتس الرحالة اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد.

فقال:

«إن فى جنوبى بلاد العرب وحدها البخور و القرفة، و الدار صينى، و اللاذن و المر» و عدّها من أغنى ممالك العالم فى زمانه .

و قد سكن قسم من العرب البائدة الحجاز، و استوطنوا (يثرب) و امتد نفوذهم إلى العراق و الشام و مصر.

و القسم الثانى من العرب: هم العرب الباقية، و هم على قسمين:

عدنانيين و قحطانيين؛ أما العدنانيون فهم من ولد اسماعيل و قد كان مسكنهم الرئيسى فى الحجاز مكة المكرمة، و القحطانيون و هم أولاد قحطان، و مسكنهم الرئيسى من الحجاز (المدينة) و يقول المسعودى:

و ان من بقى من العرب البائدة قد دخلوا فى العرب الباقية و هم قحطان، و معد، و لا يعلم أن قبيلا بقى يشار إليه فى الأرض من العرب الأول غير معد (العدنانيين) و قحطان .

و على أن معظم تاريخ العرب البائدة بل و حتى الجاهلية الذى سبق ظهور الإسلام بقرن أو أكثر قليلا ما زال مجهولا فإن المحقق هو أن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰

العرب انبعثوا من اليمن فى دفعات أهمها الدفعة التى أعقبت سيل العرم، و انتشروا فى جزيرة العرب، و منها اندفعوا إلى خارج حدود الجزيرة، و أن الحجاز و يثرب منه كان ملجأ تلجأ اليه قبائل اليمن العربية عند نزول الشدائد، و حين تضيق بهم الأحوال الاقتصادية.، أو عند حدوث الغزو الكاسح، و إذا لم نستطع أن نستخلص أصول التاريخ القديم لجزيرة العرب. و سكانها القدماء فإننا نستطيع أن نؤكد أن الجزيرة العربية لم تعرف منذ أول تاريخها سكانا غير العرب و أن الحجاز بالذات، و المدينة منه كانت مسكنا منذ التاريخ القديم حتى اليوم من مساكن العرب البائدة اولا ثم العرب الباقية أخيرا.

حياة سكان الجزيرة العامة

أما الحياة و النظام السائد فى جزيرة العرب فى العصر الجاهلى فهو نظام قبلى مرتبط بالقبيلة داخل الجزيرة، و لكل قبيلة زعيم و رئيس أو شيخ يشترط فى تبوئه الرياسة وجود مؤهلات خاصة فيه كالكرم، و الشجاعة و الثروة النسبية، و أن يكون حسن التدبير قد اكتسب من امتداد عمره و شيخوخته تجربة تساعد على رص الصفوف بين قبيلته و حفظ كيانهم، و تنظيم شؤونهم العامة، لذلك صار لكل قبيلة أنظمة و مراسيم خاصة يفرضها اختلاف طبيعة الشيوخ و الرؤساء و الظروف المعينة و ما ورثوه من التقاليد المختلفة، و لهذا صعب ان يتوحد النظام و تتفق المراسيم و التقاليد و صعب أن يكون للجزيرة طابع معين غير طابع البداوة التى لم تعرف شيئا عن الدولة و معناها داخل الجزيرة و أواسطها.

و يقول الرحالة (دوتى): انه رأى فى أهل البادية فى هذا القرن- يعنى القرن العشرين- من لا يتصور الدولة إلا على أنها قبيلة، و يقيس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱

قوتها بما تملك من الأبل و مع ذلك فلم تعدم الجزيرة فى وقت من الأوقات نظاما حضريّا شبيها بنظام الدول التى قامت فى أطرافها، مثل مملكة الحيرة، و مملكة غسان، و مملكة كنده.

أما مكة المكرمة، و المدينة المنورة فعلى رغم ما بدا عليهما من معالم الحضارة فقد كانتا خاضعتين للنظام القبلى، و قد جرى عرف العرب حتى فى هاتين المدينتين على الانتساب إلى القبائل لا إلى المدن، بل لم يعرف الانتساب إلى المدن إلا فى القرن الثانى للهجرة و قد كان للعصبية القبلية حتى عهد الأمويين و أيام حكمهم أثر بارز فى التفرقة بين المضريين و القحطانيين و موقف بعضهم من بعض فى الحرب و السلم خلافا للتعاليم الإسلامية التى كانت ترمى إلى القضاء على كل نعرة و تدعو إلى ذوبان القبائل فى الدولة الإسلامية، و لقد توسع مفهوم العصبية القبلية حتى عمت المنافسة و الحروب القبلية ذات الأصل الواحد، بل و حتى شملت الأفخاذ و الأسر الصغيرة!!

نشأة المدينة المنورة و سكانها الأقدمون

كل ما ورد عن نشأة المدينة الأولى لا يتجاوز المزاعم و الأساطير و الحكايات فهناك من يزعم بأن أول من نزل المدينة بعد غرق قوم

نوح قوم يقال لهم صعل و فالج، فغزاهم داود النبى و أخذ منهم مائة الف عذراء !! و هناك من يزعم بأن بنى عبيل و هم من العرب البائدة كانوا أول من نزلوا (يثرب)، و عبيل هذا كما تزعم تلك الأساطير أنه ابن عوص ابن أرم بن سام بن نوح، و قد كان أمير قبيلة من العرب العاربة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲

التى انقرضت و هو أخو (عاد) بن عوص، أما الذى فى (الروض) للسهيلى فهو أن عبيل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن ارم، و فى بعض هذه الأسماء اختلاف فيما ورد فى الأخبار، و قال السهيلى:

و بنو عبيل هم الذين سكنوا (الجحفة) فأجحفت بهم السيول فسميت الجحفة و تسمى اليوم برابغ.

أما المسعودى فمن أقدم المؤرخين الذين يذكرون (الجحفة) و يعينون مكانها بين مكة و المدينة، و يقول: إن عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح هو الذى نزل بلاد (الجحفة) و معه أولاده فهلكوا بالسيل، أما يثرب فيقول المسعودى أن يثرب و هو ابن قامة بن مهليل بن ارم بن عبيل قد نزل هو و ولده و من تبعه فيها فسميت به (يثرب) فهلك هولاء ببعض غوائل الدهر و آفاته فقال شاعرهم:

عين جودى على عبيد برجع‌بأماق فيضانها بانسجام

عمّروا (يثربا) و ليس بها سفر ولا صارخ و لا ذو سنام

غرسوا لينها بمجرى معين‌ثم حفّوا السبيل بالأرحام

و بين رواة هذه الأخبار و الأساطير من يذهب إلى أن العمالقة هم الذين بنوا (يثرب) بعد خروجهم من مصر، و يقول محمد لبيب البتانونى فى رحلته الحجازية: ان لنا فى يهودية السكان ما يؤيد قول من ذهب إلى أن موسى فى طريقه إلى فلسطين أرسل فرقة من قومه لتكشف له تلك الجهة فساروا إليها و بلغهم موته فبنوا مدينة (اثريبس) و أقاموا فيها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳

و على هذا فبالامكان اعتبار ابتداء عمران (يثرب) من سنة الف و ستماية قبل المسيح أو الفين و مائتين و اثنتين و عشرين قبل الهجرة .

و كان العماليق- على هذا الرأى- هم الذين بنوا المدينة و زرعوا فيها الزروع و غرسوا النخيل، و عمروا الدور و الاطام (الحصون) و اتخذوا بها الضياع.

و العمالقة هم بنو عملاق بن ارفخشد بن سام بن نوح على ما تروى تلك الأخبار و كانوا ممن امتد نفوذهم و سطوتهم إلى جهات كثيرة فأخذوا ما بين البحرين و عمان، و الحجاز كله إلى الشام و مصر، فجبابرة الشام- و كان يقال لهم الكنعانيون- و فراعنة مصر، كانوا من العمالقة، و كان من العمالقة بالبحرين و عمان أمة يسمون (جاشم) و كان ساكنو المدينة منهم: بنو هف و سعد ابن هفّان، و بنو مطرويل، و كان ملك الحجاز الأرقم بن أبى الأرقم، و من أشهر من ورد اسمه من العمالقة هو أذينة بن السميدع الذى استولى على بلاد الروم و تملك عليها و ذكره الأعشى فى شعره إذ قال:

أزال (أذينة) عن ملكهو أخرج عن ملكه ذا يزن

و يقول ابن الأثير ان بنى عبيل قد لحقت بيثرب قبل ان تبنى و لحقت العماليق بصنعاء قبل ان تسمى صنعاء، و انحدر بعضهم إلى (يثرب) فأخرجوا منها (عبيلا) و نزلوا موضع الجحفة، و أن العماليق قوم عرب و لسانهم عربى .

و فى تاج العروس أن (يثرب) سميت بأول من سكنها من ولد سام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴

ابن نوح، و قيل باسم رجل من العمالقة .

و توسع الزبيدى فى أصل العمالقة الذين سكنوا (يثرب) و مصرّوها كما تقول الأخبار فقال: العماليق و العمالقة: قوم من عاد، تفرقوا فى البلاد، و انقرض أكثرهم، و هم من ولد عمليق كقنديل أو عملاق مثل قرطاس الأخير عن الليث: إنه ابن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح

عليه السلام كما فى الصحاح، و فى المقدمة الفاضلة أن لاوذ أخو (إرم) و ارفحشد بنى نوح عليه السلام، و قال الليث: و هم الجبابرة الذين كانو بالشام على عهد موسى عليه السلام.

و قال ابن الأثير: هم الجبابرة الذين كانوا بالشام من بقية قوم عاد، و قال ابن الجوانى: عمليق: أبو العمالقة و الفراعنة، و الجبابرة بمصر و الشام و كانوا فبانوا منقرضين.

و قال السهيلى: من العماليق ملوك مصر الفراعنة منهم الوليد بن مصعب بن أشمير بن لهو بن عمليق و هو صاحب موسى عليه السلام، و الريان بن الوليد صاحب يوسف عليه السلام .

و كل ما أوردناه هنا عن نشأة (لمدينة) الأولى و سكانها إنما هو خلاصة لأخبار لا يعول على أكثرها و ذلك لعدم وجود ما يسندها من البراهين و الأدلة من كتابات و نقوش و آثار، و قد استقيت هذه الأخبار عن نشأة المدينة الأولى و سكانها الأوائل من الروايات و الأخبار المتناقلة و من التوراة فسجلت فى العصور الإسلامية كما تناقلتها الألسن دون تمحيص.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵

نزول اليهود المدينة

و تستمر هذه الأساطير فى حكاياتها فتقول ان سبب نزول اليهود المدينة و أطرافها و ضياعها على ما روى ياقوت فى معجم البلدان و غيره هو أن موسى بن عمران بعث إلى الكنعانيين و هم (العمالقة) حين أظهره اللّه تعالى على فرعون، فوطأ الشام، و أهلك من كان بها منهم، ثم بعث بعثا آخر إلى (العماليق) فى الحجاز الذين كانوا يحكمون تلك الأصقاع، و أمرهم ان لا يستبقوا أحدا ممن بلغ الحلم من العمالقة إلا من دخل فى دينه

و تقول الرواية: فقدموا على العمالقة و قاتلوهم و قتلوهم و قتلوا ملكهم (الارقم) و أسروا ابنا له و كان شابا جميلا كأحسن من رؤى فى زمانه، فضنوا به عن القتل، و قالوا نستحييه حتى نقدم به على موسى ليرى فيه رأيه، فأقبلوا و هو معهم، و قبض اللّه موسى و هم فى الطريق و قبل وصولهم، فلما قربوا، و سمع بنو إسرائيل بذلك تلقوهم، و سألوهم عن أخبارهم، فأخبروهم بالفتح و ما أصابوا فى حربهم، قالوا- فما هذا الفتى الذى معكم؟

فأخبروهم بقصته، فقالوا: إن هذه معصية منكم لمخالفتكم نبيكم، و اللّه لا دخلتم علينا بلادنا أبدا، و حالوا بينهم و بين دخول الشام ..!!

فقال ذلك الجيش- ما بلد اذ منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذى فتحتموه و قتلتم أهله فارجعوا إليه.

فعادوا إلى يثرب و أقاموا بها، فكان هذا أول تاريخ سكنى اليهود الحجاز و المدينة!! ثم لحق بهم بعد ذلك بنو الكاهن بن هارون- شقيق موسى بن عمران- فكانت لهم الأموال و الضياع بالسافلة- و السافلة هى ما كان فى أسفل المدينة إلى جبل أحد أما العالية فهى ما كان فوق المدينة فزعم بنو قريظة أنهم مكثوا كذلك زمانا.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶

و غزا الروم الشام و احتلوها و قتلوا من بنى إسرائيل خلقا كثيرا فخرج بنو قريظة، و النضير، و هدل، هاربين من الشام يريدون الحجاز لينضموا إلى الإسرائيليين هناك و يسكنوا معهم، و وجه ملك الروم فى طلبهم من يردهم فأعجزوا رسله و فاتوهم على ما تقول الأخبار، و الراجح هو أن الروم قد طاردوهم فهاجروا إلى الحجاز لأول مرة و سكنوا المدينة و أطرافها منذ ذلك التاريخ .

و فى الأساطير التى جاء بها بعض مورخى الحجاز من اليهود أن سبب نزول اليهود (يثرب) هو أن ملك الروم حين ظهر على بنى إسرائيل و احتل الشام خطب إلى بنى هارون ابنة منهم، و لما كان زواج اليهودية بالمسيحيين و غيرهم ليس جائزا فقد تحير اليهود فى الأمر، و خافوا بطش الملك فجاملوه و تحببوا إليه، و سألوه ان يشرّفهم بزيارته لهم، و حين جاءهم فتكوا به و بمن معه و هربوا إلى الحجاز و أقاموا بها.

و يقول ابن النجار: و كان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق و كان الحجاز أكثر بلاد اللّه شجرا، و أظهره ماء، فنزل اليهود منه حيث شاؤا، بعد ان هاجروا بسبب اضطهاد الروم لهم، و يؤيد ذلك ما جاء فى المصادر الإفرنجية؛ أن مستعمرات اليهود فى الحجاز كقرى خيبر و غيرها قد كوّنها اليهود الذين اضطهدهم أباطرة الرومان من أمثال (أدربان) الذى طردهم من فلسطين عام ۱۳۲ .

و كان جمع من اليهود قد نزلوا (زهرة) و هى محل بين الحرة و السافلة مما يلى القف، و كانت لهم الأموال بالسافلة، و نزل جمهورهم بمكان يقال له (يثرب) بمجمع السيول: سيل بطحان و العقيق، و سيل قناة مما يلى رغاية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷

و خرجت قريظة و أخوانهم بنو هذل، و هدل، و عمرو، أبناء الخزرج بن الصريح ابن التوم بن السبط بن اليسع، بن العتين بن عيد بن خيبر ابن النجار بن ناحوم بن عازر بن هارون بن عمران، و النصر بن النجار بن الخزرج بن الصريح بعد هولاء، فتبعوا آثارهم و نزلوا بالعلية على واديين يقال لهما (مذينيب) و (مهزور)، فنزل بنو النضير على (مذينيب) و اتخذوا عليه الأموال، و نزل بنو قريظة و هذل على (مهزور) و اتخذوا عليه الأموال، و كانوا أول من احتفر بها الآبار، و اغترس الأموال، و ابتنى الآطام و المنازل، و قد قيل: إن جميع ما بنى اليهود بالمدينة كان تسعة و خمسين اطما أى قلعة .

*** إلى هنا و التاريخ لم يسلم من شوائب الأساطير و الحكايات المغرقة فى الخيال و المزاعم التى تفتقر إلى تأييد مادى يعتمد الخطوط و النقوش و الآثار ليصحّ تعيين مبدء لتاريخ المدينة القديم و سكانها القدماء و أجناسهم، و كل ما يمكن الجزم به هو أن مدينة (يثرب) مدينة قديمة- كما قلنا- و مغرقة فى القدم و قد ورد اسمها فى الكتابات (المعينية) مما يدل على قدمها، و أن (المعينيين) قد استعمروها على ما يستنتج من تلك الكتابات، فقد كانت للمعينيين مستعمرات على طول الطريق التجارى من اليمن- مركز المعينيين- حتى تخوم الشام، فليس من المحتمل أن يكونوا قد تجاوزوا يثرب دون ان ينتفعوا بموقعها، و خصب أرضها، و كثرة مياهها، و اتخاذها مستعمرة لهم، و محطة لتجارتهم، لا سيما و أن مستعمراتهم كانت متصلة إلى شمال يثرب و على طول (وادى القرى).

و إذا كان اسم (يثرب) قد ورد فى الكتابات المعينية القديمة فلا بد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸

أنها كانت من المواضع التى سكنتها جاليات من المعينيين ثم صارت إلى السبائيين بعد زوال مملكة معين .

و لما كانت عوامل السكن و الاستيطان متوفرة فى هذه البقعة من الأرض و لا سيما الزراعة كان من البدهى ان تكون يثرب مطمح الأنظار من قديم الزمان و أن يقصدها السكان من جميع الجهات، أما تاريخها فمثل تاريخ كثير من المدن القديمة المجهولة الأصل، فليس بالبعيد ان تكون كغيرها من المدن الزراعية نشأت فى بادىء الأمر قرية صغيرة ثم كبرت فكانت مركزا لملاكى الضياع و مسكنا للفلاحين و المزارعين الذين يذهبون صباحا إلى حقولهم و يعودون مساء إلى بيوتهم، و أن مثل هذا النهج فى الحياة، و مثل هذا الأسلوب فى معيشة السكان لمنتهج فى أغلب المدن القديمة عند أول تكوينها و تمصيرها، و ما زال ساريا منذ عهد حمورابى حتى يومنا هذا باستثناء المدن التى أنشئت لتكون مدينة منذ أول يوم كبغداد و القاهرة و سامراء و غيرها.

و كان ليثرب العوامل التى تستدعى قيامها فى هذا الموضع من الحجاز و تستدعى ان يمتد نفوذها إلى مناطق بعيدة واسعة تشمل قرى و ضياعا و أودية.

و القرى المحيطة بيثرب القديمة ككل القرى الأخرى يومذاك، كانت تتألف فى الأول من عدد من البيوت، و تضم عددا من الأسر تكثر و تقل تبعا لأهمية موقع القرية و طبيعتها و عواملها الأخرى، و تشد هذه الأسر روابط من الرحم و القرابة أو الجوار أو المصالح المشتركة، فإذا كانت القرية واقعة فى منطقة زراعية آل امتلاكها و زعامتها فى الغالب إلى شيخ

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹

أو رئيس قبيلة ثم تؤول هذه الزعامات إلى زعيم واحد يكون ملكا أو أميرا أو رئيسا كبيرا أو أية شخصية ذات نفوذ و وجاهة و قوة، و حين يتساوى النفوذ بين صغار الرؤساء أو الكبار تقع الحروب القبلية و تستمر على مرور السنين حتى يتم خضوع الضعيف من القبائل و الأسر للقوى المتنفذ، أو يحصل اتفاق تفرضه المصلحة بين الزعماء يكون من شأنه تحديد النفوذ و السلطة و تعيين حدود كل رئيس و علاقته بالآخرين من أتباعه أو جيرانه أو أصدقائه و أعدائه، و قد مرّ مثل هذا على يثرب فمرّ تاريخها بالشيء الكثير من الخصومة و المعارك و الصلح و المسالمة، و شهدت في مختلف أدوارها ممن حكمها ما رفع قدرها حينا و ما ألحق بها من الخسائر و الأضرار حينا آخر.

و على هذا النهج قامت هذه المدينة، و سكنتها قبائل لها صولة و جولة و مكانة في تاريخ جزيرة العرب.

*** و كلما بدأ الزمن يدنو من ظهور الإسلام كان يتلاشى أثر الأساطير و الأخبار في تدوين التاريخ المقارب للواقع، إذ يكون الرواة أقرب إلى مصدر الخبر و الوقوف على الوقائع عن كثب و تلقى الأخبار عن الثقاة في سلسلة قصيرة لا تسمح الظروف بإضافة نسبة كبيرة من الحلقات المختلفة إليها.

و أن مثل هذا التاريخ القريب من الواقع بعض القرب و الذى قد نجد لبعض حكاياته ما يسنده من الآثار قد بدأت علائمه منذ ظهور اليهود و الأوس و الخزرج على مسرح تاريخ المدينة، على رغم ما فيه من مبالغة و إغراق.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰

فالحقيقة التي يمكن أن يتوصل اليها المؤرخ هي أن اليهود قد نزلوا يثرب سواء تم نزولهم في أيام موسى و في أثناء حربه العمالقة الذى نستبعده نحن- أو بدفعات نتيجة للعوامل الطبيعية و الظروف التي تحتم على الأقوام الهجرة- و هو ما نميل اليه و نأخذ به- و أنهم بناء على ما عرفوا به من نزعة في كيفية استثمار الأموال و التجارة و استغلال مرافق الحياة و قصر المنفعة عليهم دون غيرهم استطاعوا أن يستولوا على ثروة البلاد و يسخروا مواردها لمنفعتهم حتى لقد استأثروا بثروة (يثرب) كلها، و كانت المدينة كما أشرنا من حيث الخصب و الشجر و المياه و الموقع التجارى الاستراتيجى مطمح الأنظار فكان لها من القابلية ما تستوعب سكنى الكثيرين من المهاجرين.

و كان أشهر اليهود الذين أمسكوا بزمام البلد و استولوا على مرافقة الزراعية و التجارية بنو قريظة و بنو النضير، حتى صاروا ملوكا، و كانت يثرب و تهامة في الجاهلية تدفع الخراج لعامل عليها من قبل (مرزبان) فلما قويت شوكة اليهود و أصبحوا حكاما بدأ سكان يثرب و ضياعها يدفعون الخراج لليهود و لذلك قال بعض الأنصار:

نؤدّى الخرج بعد خراج كسرىو خرج بنى قريظة و النضير

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱

الأوس و الخزرج

و في هذا الوقت او قبله كان قوم من القحطانيين آخرون و هم الأوس و الخزرج قد نزحوا من اليمن و نزلوا يثرب، و لنزوحهم من اليمن قصص و حكايات لا يطمئن اليها المؤرخون المتثبتون، و كل ما يمكن استخلاصه هو أن الأوس و خزرج و هم أبناء حارثة ابن ثعلبة قد هاجروا من اليمن إلى المدينة في دفعات، و استوطنوا يثرب كما فعل اليهود بناء على وفرة مياهها و رغد العيش فيها، و أقاموا بين قريظة و النضير، و خيبر، و تيماء، و وادى القرى، و نزل أكثرهم في يثرب، و كثيرا ما هاجر القحطانيون من اليمن عند نزول الشدائد و الكوارث- كما قلنا- حتى لقد تم لهم حين تكاثروا ان ينشؤوا دولا كدولة الغساسنة في الشام، و دولة المناذرة في العراق، و كندة بنجد و قد سبقت الإشارة إلى ذلك.

و جاء في دائرة المعارف أن القحطانيين خارج اليمن كانوا تسع عشرة قبيلة- أى قبائل يمانية غير عدنانية- و هي:

قبائل طی، و الأشعر، و بجيلة، و جذام، و الأزد، و عاملة، و كندة، و لخم، و مذحج، و همذان، و مازن، و غسان، و عدنان، و مزيقيا، و أزد، و شنوءة، و الأوس، و الخزرج، و خزاعة، و لكل من هذه القبائل بطون، و أفخاذ، و عمائر، و عشائر لا سبيل لحصرها.

فليس من الشرط أن تختلق لنزوح الأوس و الخزرج معاذير و أسباب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲

أكثر من أنها نزحت كما تنزح سائر القبائل حين تشتد بها الحاجة كأن يصيبها المحل، أو تبددها الحروب، أو تحل بها كارثة عامة، و لعل لانهيار سد مأرب الأثر الكبير فی مثل هذا التفرق الذی ظهر علی القبائل القحطانية فی اليمن.

و كان فی (المدينة) قری و أسواق لليهود من بنی إسرائيل كما مر و كان قد نزلها عليهم أحياء من العرب قبل نزول الأوس و الخزرج و هم:

بنو أنيف، حی من بلی و قيل إنهم من بقايا العمالقة، و بنو مريد و هم حی من بلی أيضا و بنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس ابن عيلان، و بنو الجذما و هم حی من اليمن، فبنوا الآطام و المنازل فی يثرب و كانت الاطام عزّ أهل المدينة و منعتهم التی يتحصنون فيها من عدوهم فكان منها ما يعرف اسمه، و منها ما لا يعرف اسمه، و منها ما يعرف باسم سيدها، و منها ما لا يدری لمن كانت هذه الحصون و منها ما جاء ذكرها فی الشعر، و منها ما لم تذكر، و كان ما بنی من الاطام للعرب بالمدينة ثلاثة عشر أطما .

و قال ابن النجار عن العرب الذين كانوا فی المدينة قبل نزول الأوس و الخزرج نقلا عن عبد العزيز بن عمران أنهم أحياء من العرب منهم أهل التهمة تفرقوا جانب بلقيز إلی المدينة فكانت منازلهم بين مسجد الفتح إلی يثرب فی الوطا و جعلوا الجبل بينهم و بين المدينة و قد أبّروا الآبار و زرعوا الأرض و عمروها.

و حين نزول الأوس و الخزرج المدينة كان فيها من اليهود بنو قريظة، و بنو النضير، و بنو محمحم، و بنو زعورا، و بنو قينقاع، و بنو ثعلة، و أهل زهرة، و أهل زبالة، و أهل يثرب، و بنو القصيص، و بنو

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳

فاعصة، و بنو ماسكة و بنو القمعة، و بنو زيد اللات، و هم رهط عبد اللّه، و بنو عكوة، و بنو مرانة.

و لا يعلم كم لبث الأوس و الخزرج حتی استقر بهم المقام و حتی صار لهم شأن يذكر بين اليهود الذين كانوا يملكون المال و القلاع و السلطة الزمنية فی يثرب و ضياعها، بحيث رأی اليهود ان مصلحتهم تستدعيهم إلی ان يعقدوا بينهم و بين الأوس و الخزرج حلفا و جوارا يأمن به بعضهم من بعض و يمنعون بهذا الحلف من يتحداهم بالغزو أو الحرب من الخارج، فتعاقدوا و تحالفوا و تشاركوا و تعاملوا، و لم يزالوا علی ذلك زمنا طويلا، و قد أثری الأوس و الخزرج و صار لهم مقام و جاه و صولة فی يثرب.

و علی أن الأوس و الخزرج و قبائلهم، و أن قريظة و بنی النضير و سائر اليهود كانوا متقاربين فی المجاورة و المنازل فقد اختصت كل جهة بكثافة معينة من تلك القبائل.

حضارة المدنية و منازل اليهود و العرب منها

فحرّة (واقم) و هی الحرة الواقعة شرقی (المدينة) كما عيّنا موقعها فی محل آخر من هذا البحث كانت مسكونة بأهم قبائل اليهود من بنی النضير و قريظة و عدد آخر من عشائر اليهود الأخری، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية من بنی عبد الأشهل، و بنی ظفر، و بنی حارثة، و بنی معاوية.

و تنقسم حرّة (واقم) باعتبار المنازل الواقعة منها قديما إلی خمس مناطق متجاورة، منطقتين منها كانتا لليهود، و ثلاث كانت للأوس.

و فی منازل عبد الأشهل من الأوس كان يقوم حصنهم (واقم)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۴

الذى سميت (الحرّة) باسمه، و قد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود و الأوس آثارا فى (الحرّة) تدل على حضارة و نظام مدنى لم يبق منها اليوم إلا- أطلال دوارس، ذلك لأن هذه (الحرّة) صارت ميدان حرب حين ظهر الإسلام و استقر فى المدينة و خان اليهود العهود و المواثيق التى كانت بينهم و بين النبى (ص) الأمر الذى اضطر النبى (ص) إلى محاصرة بنى النضير من اليهود حتى أجلاهم، ثم حاصر بنى قريظة حتى قضى عليهم .

و من ذكر أسماء القصور و الحصون و القلاع فى المدينة و ضواحيها و مما بقى من أطلالها حتى اليوم تقوم أدلة كثيرة على وجود حضارة ذات لون خاص عرفت به المدينة المنورة بين المدن العربية القديمة، فهذه القلاع الضخمة المشيدة فى جميع أنحاء يثرب و المبنية بالصخور و الحجارة السوداء و التى لم يزل بعضها قائما كحصن (الضحيان)، و حصن كعب بن الأشرف النبهانى، و القصور المنتشرة هنا و هناك و لا- سيما قصور وادى العقيق، و الأسوار التى كانت تحوط بعض القرى المنيعة، و الابهاء التى تحيط ببعض الأبنية كسقيفة بنى ساعدة لتشير كلها إلى طراز خاص من الحضارة التى تدل على شىء كثير من الاستقرار و الراحة و النعمة، إضافة إلى الصهاريج و أقنية المياه و حفر الآبار و تنظيم السقى و المزارع.

أما الأبنية العامة أو بيوت الطبقة الوسطى فعلى رغم بساطتها من حيث المواد و الطراز و الهندسة فهى الأخرى لا تخلو من مظهر من مظاهر الحضارة فى مثل تلك العصور و فى وسط محاط بقبائل البدو الرحل الذين لا تتجاوز حياتهم الحياة البدائية.

و يستبان من الحفريات التى يجريها المهندسون فى المدينة المنورة اليوم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۵

لإقامة الأبنية الجديدة و شق الأسس أن كثيرا من ابهاء دور المدينة القديمة التى يعثرون عليها كانت مفروشة بالطوب المربع الأحمر، و مبنية بالطين، و اللبن، و الحجارة، و الراجح أنهم كانوا يستعينون بأخشاب الأشجار التى يأتون بها من الوديان فيعملون منها الأبواب و النوافذ، أما الزخرف فلم يكن معروفا فى العمارة العربية قبل الإسلام و لا فى الصدر الأول منه

و فيما يعثر عليه المهندسون و هم يشقون الأسس من أشياء، تكفى وحدها لتدل على لون الحياة الرفيهة التى لا يجوز اعتبارها حياة غير حضارية، و قد جاء فى كتاب (آثار المدينة) لعبد القدوس الأنصارى:

أن العمال و هم يحفرون الأرض فى (المدينة) لوضع نصب تذكارى سنة ۱۳۳۵ ه إذ انفتحت لهم هوة كشفت عن بيوت كانت سقوفها تحت طبقة هذه الأرض فنزلوا اليها و وجدوا بها ثيابا معلقة على حبال!! و مع بلاها فقد كانت محتفظة بشكلها و هندامها و هى متماسكة بحكم الرطوبة، و عدم تخلل الهواء للغرف الموجودة بها، فدمّروا البيوت، و شادوا عليها النصب و قد اتضح أن المدينة الحديثة مبنية فوق المدينة القديمة.

و عند دخول الإسلام المدينة كانت مواد البناء و هندسته عند الطبقة الوسطى لم تزل على ما هى عليه من أبعد العصور، و حين قام النبى (ص) ببناء أول مسجد أسسهم هو و ابن عمه الإمام على (ع) فى العمل، و كانت مواد البناء كما تقول الأخبار من اللبن، و كان على (ع) يعمل فى البناء و يرتجز و يقول:

لا يستوى من يعمر المساجديدأب فيها قائما و قاعدا

و من يرى عن الغبار حائدا و كان عثمان بن عفان (ض) رجلا نظيفا متنظفا- على ما يصفون-

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۶

يحمل اللبنة فيجافى بها عن ثوبه فإذا وضعها نفض كمّه و ما يكون قد أصاب ثوبه من التراب .

و معظم كثافة سكان اليهود كان (بزهرة) من منازل بنى النضير، و بشمالها كانت منازل بنى قريظة، و قد عرفت (غرس) منها بكثافة السكان.

قال الواقدى: و كانت منازل بنى النضير بناحية (الغرس) و فى خارج المدينة، و فى الضياع و القرى، دساكر و منازل اختصت باليهود من يثرب، و عجت بكثافة سكانها منهم خصوصا بعد أن تغلب عليهم الأوس و الخزرج ففر الكثير منهم إلى (خيبر) و إلى (فدك) و سائر القرى الأخرى و كانت لهم على (مذينيب) و (مهزور) بصورة خاصة- كما مر من قبل- منازل و مساكن و قلاع ما لبثت ان اكتظت بالسكان.

*** و كانت مصلحة السكن و الاستقرار هى التى تفرض على القبائل العربية و القبائل اليهودية الالتئام و التقارب و إلا فإن هذه القبائل كانت على طرفى نقيض فى العادات و الأخلاق و التقاليد و الدين بصورة خاصة، فقد كان الأوس و الخزرج كسائر العرب يقدسون أصنام قريش بصورة عامة و على الأخص (مناة) بل لقد كان مناة هو الصنم الأكبر عند الأوس و الخزرج، و كان هذا الصنم منصوبا على ساحل البحر بناحية (المشلل) بقديد بين المدينة و مكة، و هو أقدم من الأصنام الأخرى كاللات و العزّى و سمت العرب: عبد مناة، و زيد مناة .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۷

و كانت العرب جميعا تعظم (مناة) و تذبح حوله، و لكن الأوس و الخزرج كانوا أشد إعظاما له من سائر القبائل و (مناة) الصنم هو (منوتن أو منوت Manavat عند النبط ».

*** و تكاثر نزول العرب فى يثرب و أطرافها، و صار للأوس و الخزرج منازل و مبان و أملاك و أموال أكثر من ذى قبل، و لا بد أن تكون قد حدثت حوادث موضعية بين العرب و اليهود و هو أمر طبيعى كثيرا ما يحدث بين الأسرة الواحدة و البيت الواحد كما حدث بعد ذلك بين الأوس و الخزرج إضافة الى ان الحذر من ابرز طبيعة اليهود، فآلت تلك الحوادث الموضعية الى توتر الحالة العامة بين العرب و اليهود و استغل اليهود كثرتهم و تفوقهم على العرب فتنمروا للاوس و الخزرج و نقضوا العهود و الحلف الذى كان قائما بينهم و اعلنت الحرب، و كان مالك بن العجلان من الخزرج ابرز رجالات القبيلتين فسودّته القبيلتان عليهما، و احسن هذا تحشيد الرجال و توحيد الصفوف و الهجوم حتى استولى فى المدينة على حصون اليهود و دفع بهم الى خارج يثرب، و الى الضياع التى يسكنها قومهم، و اتخذ هناك الأوس و الخزرج الديار و الأموال و تفرقوا فى (عالية) المدينة و (سافلتها) و جاء بعضهم الى عفا من الأرض لا ساكن فيه فنزله و نزل بعضهم بعض قراها و اتخذوا فيها الأموال و الاطام فكان ما ابتنوا من الاطام مائة و سبعة و عشرين أطما (حصنا) و اقاموا كلمتهم و أمرهم مجتمع و صارت الكلمة العليا للأوس و الخزرج.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۸

الاسطورة

و هنالك اسطورة فى كيفية تغلب الاوس و الخزرج على اليهود لا بأس من إيرادها هنا للاطلاع على ما تقول الاخبار عن هذه الحرب.

فلقد قيل ان مالكا هذا الذى سودّه الاوس و الخزرج عليهم قد استعان بابى جبيلة و هو احد ملوك الغساسنة فى الشام على حربه حين تغلب اليهود على العرب فجاء ابو جبيلة بقومه و قتل اليهود فى خدعة انطلت عليهم و مهد للاوس و الخزرج الاستيلاء على المدينة لان الاوس و الخزرج كانوا ضعفاء لا يقوون على الوقوف فى وجه اليهود، فتقول الاسطورة:

إنه كان لبنى اسرائيل فى المدينة ملك يقال له (الفيطوان) و يقول ياقوت بل انه (الفطيون) استنادا الى ما جاء فى كتاب ابن الكلبى، و كان اليهود، و الاوس و الخزرج يدينون له، و كانت له فيهم سنّة ألّا تزوج امرأة منهم إلا أدخلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذى يفتضّها!! إلى ان زوجت اخت لمالك ابن العجلان فيها و هو ابن زيد السالمى الخزرجى، فلما كانت الليلة التى تهدى فيها الى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقيها و اخوها مالك فى المجلس،

فقال لها-: قد جئت بسوءة بخروجك على قومك و قد كشفت عن ساقيك.

قالت-: الذى يراد بى الليلة أعظم من ذلك لأننى أدخل على غير زوجى.

ثم دخلت الى منزلها فدخل إليها اخوها و قد أرمضه قولها فقال لها:

- هل عندك من خبر؟

قالت- نعم فماذا؟

قال- أدخل معك فى جملة النساء على (الفطيون)، فاذا خرجن من عندك و دخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۹

قالت- افعل.

فتزّيا بزى النساء، وراح معها، فلما خرجت النساء من عندها دخل (الفطيون) عليها فشدّ مالك بن العجلان بالسيف و ضربه حتى قتله و خرج هاربا الى الشام و قصد فيها ابا جبيلة،- و قيل بل فر الى اليمن و قصد تبع الاصغر بن حسان- و شكا الى ابى جبيلة ما كان من (الفطيون) و ما كان يعمل فى نسائهم، و ذكر له انه قتله و هرب، و انه لا يستطيع الرجوع خوفا من اليهود، فعاهده ابو جبيلة ان لا يقرب امرأة، و لا يمسّ طيبا، و لا يشرب خمرا، حتى يسير الى المدينة و يذّل من بها من اليهود، و اقبل سائرا من الشام فى جمع كثير مظهرا انه يريد اليمن حتى قدم المدينة، و نزل بذى حرض، ثم ارسل الى الاوس و الخزرج انه على المكر باليهود و هو عازم على قتل رؤسائهم، و انه يخشى متى علموا بذلك ان يتحصّنوا فى آطامهم، و أمرهم بكتمان ما أسرّه اليهم، ثم ارسل الى وجوه اليهود ان يحضروا طعامه ليحسن اليهم و يصلهم، فأتاه وجوههم و اشرافهم و مع كل واحد خاصته و حشمه، فلما تكاملوا أدخلهم فى خيامه، ثم قتلهم عن آخرهم، فصارت الاوس و الخزرج من يومئذ أعزّ أهل المدينة، و قمعوا اليهود، و سار ذكرهم، و صار لهم الأموال و الاطام .

عودة الى التصافى

و يبدو من متابعة التاريخ ان المصلحة عادت فوفقت بين قبائل العرب و قبائل اليهود، و قد ساد الفريقين صفاء ضمنته احلاف و عهود جديدة، فقد حالف بعض اليهود الأوس، و حالف بعضهم الخزرج و فى هذه المرة وقف كل فريق مع حليفه فى الحروب بحكم المصلحة على الرغم من تعارض

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۰

هذا الوقوف مع احكام التوراة، و قد ظل اثر هذه الاحلاف الى ما بعد الهجرة اذ ظل الأوس و الخزرج متمسكين بحلفهم مع اليهود، و قد أشارت بعض آيات القرآن الكريم الى هذا التمسك و التزام العرب بهذا الحلف و وعدهم لليهود بالنصرة إذا ما قامت حرب ضدهم، و سمى القرآن اولئك بالمنافقين لانهم اظهروا الاسلام و قبلوه و مع ذلك فقد ظلوا على حلفهم و مواثيقهم و تضامنهم مع اليهود و ذلك فى الآية الكريمة:

«أَ لَمْ تَرَ» يا محمد «إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا» فاظهروا الايمان و ابطنوا الكفر «يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ» فى الكفر و هم «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» يعنى يهود بنى النضير. «لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ» من بلادكم «لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ» مساعدين لكم «وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً» يعنى فى قتالكم و مخاصمتكم «وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ» معاشر بين النضير «لَنَنْصُرَنَّكُمْ» و لندفعن عنكم .

و كانت صلات الاوس و الخزرج و اليهود بالقبائل العربية الاخرى و لا سيما قريش صلات طيبة، حتى لقد أصهر هاشم بن عبد مناف الى بنى النجار الخزرجيين من أهل يثرب، و ظل ابنه عبد المطلب على صلة وثيقة باخواله هؤلاء، كما كان لغيره من زعماء مكة صداقات و اتصالات بزعماء يثرب، و لكن قريشا كانت تتجنب الحلف مع قبائل المدينة منعا لتورطها فى دخول حلف ربما جرّ الى التدخل فى الحروب الداخلية التى كانت تنشب من آن لاخر بين الاوس و الخزرج قبيلتى يثرب ، و ظلت علاقة قريش طيبة مع يثرب برغم ما كان يمكن ان يحدث من تنافس بين المدينتين الواقعتين على طريق التجارة.

كذلك كانت صلات مكة باليهود جميعا طيبة فى يثرب، و خيبر،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۱

و تيماء، و وادى القرى، كما كان اليهود يجلّون القرشيين و يعتبرونهم سادة العرب، و ملوك الناس، و لم يكن اليهود فى جزيرة العرب يحفلون كثيرا بتعاليم التوراة التى تأمرهم بالابتعاد عن الوثنيين و تلزمهم بمعاداتهم، و محاربتهم، و إنما كانوا يجرون وراء مصالحهم المادية .

حروب المدينة و أيامها المشهورة

و كان من الطبيعى بعد ان صفا الجو للاوس و الخزرج و اصبحوا هم الآمرين و الناهين فى يثرب أن يدّب الخلاف بينهم بداعى احتكار السلطة و المنفعة لا سيما و قد أمنوا جانب اليهود و لم يستطع الاصل و النسب المشترك ان يحول دون التنافس بينهما و ذلك لداعى تنازع البقاء فقامت بين القبيلتين حرب طاحنة لم تخمد نيرانها مرة الا و تشب من جديد، و قد اشار المؤرخون الى العداء القائم بينهم و وصفوه بكونه عداء تجاوز حد الوصف!!

روى الطبرى قال: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: قال ابن اسحاق: كانت الحرب بين الاوس و الخزرج عشرين و مائة سنة!! حتى قام الاسلام و هم على ذلك فكانت حربهم بينهم و هم اخوان لأب و ام فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداء و الحرب ما كان بينهم و كان لهم من العز و الجاه و التاريخ الذى حكى الشعر جانبا كبيرا منه ما سجل الكثير من المفاخر العربية فى شتى الميادين فتهدم هذا بسبب تلك الحروب حتى ضعف شأن هاتين القبيلتين، و ضاع بسبب ذلك الكثير مما اكتسبت المدينة من المجد و العز و الجاه و الثروة.

و قد عرفت لحروبهم ايام مشهودة اشهرها: يوم الصفينة، و هو اول يوم جرت الحرب فيه، و يوم السرارة، و يوم وفاق بنى خطمة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۲

و يوم حاطب بن قيس، و يوم حضير الكتائب، و يوم أطم بنى سالم، و يوم أبتروه و يوم البقيع، و يوم بعاث، و يوم مضرس و معبس، و يوم الدار، و يوم بعاث الاخر، و يوم فجار الانصار.

و كانوا ينتقلون- كما يقول اليعقوبى- فى هذه المواضع التى تعرف ايامهم بها و يقتتلون قتالا شديدا .

و لم تقتصر حرب المدينة على الاوس و الخزرج و إنما شاهدت المدينة من غزو الغازين حروبا ضارية كان من اشهرها غزوة تبّع الاخر للمدينة، و هو تبان أسعد أبو كرب، و كان قد جاء من المشرق جاعلا طريقه على المدينة، و كان حين مرّ بها فى بدأته لم يهج أهلها و قد خلف بين اظهرهم ابنا له فقتل ابنه هذا غيلة فقدم تبّع و هو مجمع لإخراب (المدينة) و استئصال أهلها، و قطع نخلها، فجمع له هذا الحى من الانصار حين سمعوا بذلك من أمره ليمتنعوا منه، و كان رئيسهم يومئذ عمرو بن الطلة احد بنى النجار من الخزرج ثم أحد بنى عمرو بن مبذول، فخرجوا لقتاله، و الذى زاد من حقد تبّع و موجدته على يثرب هو انه حين نزل بهم تصدى رجل من بنى عدى بن النجار يقال له: أحمر، فقتل رجلا من أصحاب تبّع و كان قد وجده فى عذق له يجذّه على ما أورد الطبرى، فضربه بمنجله فقتله و قال: «إنما الثمر لمن أبره» اى اصلح زرعه، ثم القاه حين قتله فى بئر من آبارهم المعروفة يقال لها (ذات تومان) فوقعت الحرب بين تبّع و الاوس و الخزرج، و بينا كان تبّع على ذلك من حربه و حربهم يقاتلهم و يقاتلونه قال ابن حميد يحدّث عن سلمة عن محمد بن اسحاق: ان الانصار من الاوس و الخزرج زعموا انهم كانوا يقاتلون (تبّعا) بالنهار و يقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۳

و يقول: «و اللّه ان قومنا هولاء الكرام» .

و إذا صح هذا فيكون ما نسب لصلاح الدين الأيوبى من مثل هذا الاكرام مقتبسا من نهج الاوس و الخزرج و نبلهم فى حرب تبّع.

و انتهت الحرب دون ان يستطيع تبّع اخضاع المدينة، و لكنها كلّفت المدينة ما كلفت من الخسائر،

و فى امتناع المدينة على تبّع يقول شاعر من الانصار:

تكلّفنى من تكاليفهانخيل الاساويف و المنصعه

نخيلا حمتها بنو مالكخيول ابى كرب المفظعة

و يبدو ان حرب تبّع هذه قد طالت فقد اشار إليها غير واحد من المؤرخين حتى عبّر عنها بالحروب، و من هؤلاء كان المسعودى الذى يذكر (تبّعا) هذا فى ضمن ملوك اليمن و يقول: ثم ملك تبّع و هو الملك السائر من اليمن الى الحجاز و كانت له مع الأوس و الخزرج حروب، و أراد هدم الكعبة .

و من استعراضنا لتاريخ المدينة فى زمن الجاهلية و لا سيما فى السنوات الأخيرة ما قبل ظهور الاسلام نرى ان الحروب قد الحقت بالمدينة اضرارا كبيرة، و قد حال التنافس و العداء بين الأوس و الخزرج دون تقدم البلاد اكثر حتى ضج القوم، و حتى سئموا و راحوا يستنجدون بقريش فى مكة فلم يجدوا فيهم عونا لأية جهة حتى قام الاسلام، فساوى بينهم و قضى على تلك العداوة التى تجاوز تاريخها المايۀ من السنين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۴

طبيعة المدينة و سكانها و ميزتها

انفردت المدينة المنورة و سكانها بخصائص ميزتها بين الكثير من المدن العربية، القديمة قبل الاسلام، و قد زادها الاسلام بعد هجرة النبى (ص) اليها رفعة و علو شأن، تحدث عنها المؤرخون كثيرا فهى بلدة طيبة، مباركة، كثيرة الخيرات، عذبة المياه، و افرة النخيل و الثمار، و أهلها و سكنتها يودون الغرباء، و يحبون المهاجرين اليها و من خصائصها التى عرفت بها فى تاريخها القديم: ان من دخلها يشم رائحة الطيب على ما ادعوا، و للعطر فيها فضل رائحة لم توجد فى غيرها على ما ذكر القزوينى، و ان أهلها أحسن الناس صوتا! و قد قيل لبعض المدينيين: ما بالكم أنتم أطيب الناس صوتا؟ فقال: مثلنا كالعيدان خلت اجوافنا فطاب صوتنا و لا نحتمل ان يكون خلو الجوف هنا بسبب قلة الطعام كما قد يتبادر الى الذهن- هذا اذا صحت الروايۀ- و الراجح أنه أراد ان ينفى النهم عن أهل المدينة الذى كان يستعيبه العرب.

و عن ابن عباس: ان النبى (ص) حين عزم على الهجرة قال: اللهم انك قد اخرجتنى من أحبّ ارضك الىّ فأنزلنى أحبّ ارضك اليك، فأنزله المدينة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۵

و فى الاخبار و الاساطير التى وردت فى تاريخ العرب ما جاء فى أمالى القالى عن خنافر بن التوأم الحميرى- و قد مرت الاشارة اليه من قبل انه اوحى له (رئيه)، أى الشبح الذى كان يظهر له، و نصحه بأن يتجه الى يثرب واصفا اياها بذات النخل، و واصفا أهلها بأهل الطول، و الفضل، و المواساة و البذل فاذا شككنا فى ظهور الشبح فليس من شك فى صحة وصف المدينة و أهلها.

و خص الاسلام المدينة بفضائل لم يخص بها غيرها من المدن، و من مناظرة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لعبد اللّه بن عيّاش يستدل بعض الرواة على تفضيل المدينة حتى على مكة المكرمة، فقد روى ان الخليفة عمر بن الخطاب قال لعبد اللّه:

- أأنت القائل: ان مكة خير من المدينة؟

فقال عبد اللّه بن عياش:- هى حرم اللّه و أمنه و فيها- اى فى مكة- بيته، فقال عمر:- لا أقول فى حرم اللّه و بيته شيئا، أأنت القائل .. الى آخره، و قالها ثلاث مرات!!

و من (المنتقى) قال محمد بن عيسى: و لو أقرّ له ابن عياش بذلك لضربه الخليفة عمر- يريد به تأديبه- على تفضيل مكة على المدينة

لاعتقاده- أى لاعتقاد عمر ابن الخطاب- تفضيل المدينة على مكة، او هو يرى ترك الأخذ فى تفضيل احداهما على الاخرى، إلا ان الوجه الاول اظهر لما اشتهر من اخذ الصحابة فى ذلك دون نكير، و هذا تصريح من الخليفة عمر (ض) بأن المدينة أفضل من مكة .

و من فضيلة المدينة و رجحان عقول سكانها، و اخذهم الأمور بالموازين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۶

العقلية بالنسبة لامثالها من المدن العربية القديمة هو ان أغلب المدن و القرى قد افتتحت بالسيف، اما المدينة فقد افتتحت بالقرآن على ما تشير اليه الاخبار.

و مما روى عن رسول اللّه (ص) انه قال: «المدينة كالكير تنفى خبثها و ينصع طيبها» و قيل: انه قال: «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب و هى (المدينة) تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد» و قد علق ابن الحاج على هذا الخبر بقوله: و لا معنى لقوله تأكل القرى الارجحان فضلها عليها- اى على القرى- و زيادتها على غيرها.

و كثيرة هى الاخبار التى تميّز المدينة و تفضلها على غيرها و على مكة ايضا لخصائص طبيعية ذات علاقة بطيبها، و طيب سكانها، او ايمانها، و نصرتها لرسول اللّه (ص) و ايوائه، و ايواء المهاجرين، و ممن قال بتفضيلها من كبار الأئمة كان الامام مالك الذى رووا عنه انه قال: إن المدينة أفضل من مكة.

و مما روى ابو هريرة عن رسول اللّه (ص) انه قال: «من صبر على لأواء المدينة و شدتها كنت له يوم القيامة شفيعا او شهيدا» و قد تتنافى هذه الرواية فى الظاهر مع طبيعة المدينة التى اشتهرت بالخصب و الرخاء و طيب السكان فالراجح ان النبى أراد باللاواء الشدّة العارضة التى اصابت المدينة من جراء و باء عارض حلّ بها فى فترة من الزمان، و هى الفترة الاولى من التجاء المهاجرين الى المدينة فقد روى عن عائشة انها قالت:

لما قدم المهاجرون المدينة اشتكوا بها- اى مرضوا- فعاد النبى (ص) أبا بكر (ض) فقال:

- كيف تجدك؟ فقال ابو بكر:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۷ كل امرىء مصبّح فى أهلهو الموت أدنى من شراك نعله

ثم دخل النبى على عامر بن فهيرة فقال:

- كيف تجدك يا عامر؟ فقال عامر:

إنى وجدت الموت قبل ذوقهإنّ الجبان حتفه من فوقه

كالثور يحمى جلده بروقه ثم دخل رسول اللّه (ص) على بلال، فقال:

- كيف تجدك يا بلال؟ فقال بلال:

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةبفخّ و حولى أذخر و جليل

و هل أردن يوما مياه مجنّةو هل يبدون لى شامة و طفيل

و إذا كان مجال الشكوك فى صحة هذا الخبر من حيث الشعر واسعا و موضعا للمناقشة فليس هنالك اى شك فى ان و باء من الحمى كان قد اجتاح المدينة فى تلك الاوقات بحيث حمل النبى (ص) ان يدعو قائلا:

«اللهم حبّب الينا المدينة كحبنا مكّة و اشدّ، و صححّها، و بارك لنا فى صاعها و مدّها، و انقل حمّاها فاجعلها بالجحفة» و ذلك حين رأى شكوى اصحابه من وباء المدينة و اضاف بعضهم (خيبر) الى الجحفة فى دعاء النبى و قال: ان النبى (ص) قال: و انقل حمّاها الى خيبر و الجحفة باعتبارهما من منازل اليهود.

و لا بد ان السجايا و الفضائل التى اتصفت بها المدينة كانت من مواريث اجيالها المتقدمة لان اكتساب هذه الصفات لا يمكن ان تأتى مرة واحدة و بين ليلة و ضحاها، و حين جاء الاسلام صقلها و أيد الطيب منها، و دعا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۸

لنبذ الردىء، من الاخلاق التى صاحبت الجاهلية، فكان للمدينة و سكانها من الانصار شأن بحيث اكثر القرآن من الثناء عليهم .

و قد خصّ الكثير من أهل المدينة بخصائص اعتبرت قدوة عند المسلمين، و من بعض هولاء كان عاصم بن الأفلح، و كان حبيب بن ثابت، و كان حنظلة بن زاهب، و كان مالك بن التيهان الأوسى، و منهم كان سعد بن معاذ و هو سيد الاوس الذى قال عنه رسول اللّه (ص): اهتّز العرش بموت سعد بن معاذ، لقد قالها من باب المجاز تكريما لسعد، و ان لكل اولئك و امثالهم قصصا تدخل ضمن الاخبار اكثر مما تدخل ضمن التاريخ الممحوص.

و من اشهر اولئك كان خزيمة بن ثابت الاوسى المعروف بذى الشهادتين و قد شهد مع رسول اللّه (ص) بدرا و ما بعدها، و لقّب بذى الشهادتين لقصة اجمع عليها المؤرخون و قالوا: ان النبى ابتاع فرسا من أعرابى- كان اسمه كما جاء فى اسد الغابة-: سواء بن قيس المحاربى فاستتبعه النبى ليقضى ثمن فرسه، فأسرع النبى (ص) المشى و ابطأ الأعرابى، و اعترض الاعرابى رجال يساومونه بالفرس و لا يشعرون ان النبى قد ابتاعه حتى زاد بعضهم الاعرابى فى ثمن الفرس، فنادى الاعرابى و قال:

- إن كنت مبتاعا هذا الفرس- يخاطب النبى- فابتعه و إلا بعته ...

فقام النبى و قال:

- او ليس قد ابتعته منك؟

فقال الاعرابى- لا و اللّه و ما بعتك!!

قال النبى- بلى قد ابتعته منك.

فاجتمع الناس عليهما و هما يتراجعان، فجعل الاعرابى يقول:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۴۹

- هلمّ شهيدا يشهد أنى بعتك،

فجاء من المسلمين من قال للاعرابى: ويلك ان النبى لم يكن يقول إلا حقا، و جاءهم (خزيمة) فاستمع لمراجعة النبى و الاعرابى، و سمع الاعرابى يقول: هلمّ شهيدا يشهد انى بايعتك، فقال خزيمة: انا أشهد انك قد بايعته، فقال النبى: ما حملك على الشهادة و لم تكن معنا حاضرا؟

فقال خزيمة- صدّقت بما جئت به، و علمت انك لا تقول الا حقا، و فى: رواية قال انا اصدّقك بخبر السماء و لا اصدّقك بما تقول- فقال رسول اللّه (ص) «من شهد له خزيمة او شهد عليه فهو حسبه».

و كان هذا سبب تلقيب خزيمة (بذى الشهادتين)، و اصبحت شهادته بعد هذا تعدل شهادة رجلين، حتى اذا أراد الخليفة عمر بن الخطاب (ض) ان يجمع القرآن قال: من كان تلقى من رسول اللّه شيئا من القرآن فليأتنا به، و كانوا قد كتبوا ذلك فى الصحف، و الالواح، و العسب (جريد النخل) و كان عمر لا يقبل شيئا من ذلك حتى يشهد عليه شهيدان، فجاءهم خزيمة بالآية: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه»، و اكتفى الخليفة بشهادته عليها و قال: «لا اسألك عليها شاهدا غيرك».

و اصبحت هذه الميزة لخزيمة مدعاة فخر لقبيلة الأوس، حتى اذا ما افتخر الحيّان: الاوس، و الخزرج، قال الاوس: «و منّا ... و منّا من جعل رسول اللّه شهادته بشهادة رجلين: خزيمة».

و استشهد خزيمة هذا تحت راية على (ع) بصفّين سنة سبع و ثلاثين و أجمع المؤرخون فى بيان وفاته و قالوا: شهد خزيمة مع علىّ (الجمل) و (صفين) كافا سلاحه و هو يقول: «لا اقاتل حتى يقتل عمّار فأنظر من يقتله فانى سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «عمّار تقتله الفئة الباغية»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۰

فلما قتل عمار، قال خزيمة: قد بانت لى الضلالة، ثم اقترب فقاتل حتى قتل .

و إتماما للفائدة نأتى بخلاصة من تعليق العالم المحقق السيد مرتضى العسكرى على مقتل خزيمة الرجل الذى تفخر به المدينة و تباهى بامثاله المدن الأخرى.

يقول العسكرى: و كان وقع مثل خزيمة عظيما على أمير المؤمنين على (ع) و قد ذكره بشجو فى خطبته التى انتدب فيها أهل الكوفة لحرب اهل الشام، و قال: «ما ضرّ اخوانى الذين سفكت دماؤهم بصفين ان يكونوا اليوم احياء يستسيغون الغصص، و يشربون الرنق- الى قوله-: اين اخوانى الذين ركبوا الطريق، و مضوا على الحق، اين عمّار؟ و اين ابن التيهان؟

و اين ذو الشهادتين؟

هذا هو الصحابى خزيمة ذو الشهادتين. و كان فى قصة استشهاده منقصة مزدوجة لبنى أمية فى قتلهم اياه و هو ذو الشهادتين و من مشاهير اصحاب رسول اللّه (ص)، و من مفاخر الاوس، و هذه هى المنقصة الاولى بكونهم قتلوا شخصا كهذا، و المنقصة الثانية كونهم قد اثبتوا انهم هم الفئة الباغية التى نسب النبى البغى للفئة التى تقتل خزيمة ..

و ان شهادة النبى (ص) فى ضلالة قاتلى خزيمة قد حملت سيف بن عمر التميمى الذى وقف نفسه لخدمة بنى أمية و ممالئة سلطتهم نشدانا للنعمة و الجاه، لقد حملته على ان يحاول محو هذا العار عن بنى امية فيختلق صحابيا آخر باسم خزيمة بن ثابت ليكون هو المقتول فى صفين بسيوف امية و ليس خزيمة ذا الشهادتين!؟ و قد وضع لذلك من الحديث ما انطلى امره على الطبرى فاورده فى تاريخه نقلا عن سيف الذى نقله عن محمد و عن طلحة و مضمونه: ان عليا (ع) لما رأى من أهل المدينة ما لم يرض،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۱

جمع وجوه أهل المدينة و خطب فيهم، و طلب منهم ان ينصروه- على حد قول سيف- فأجابه رجلان من اعلام الانضار: ابو الهيثم بن التيهان- و هو بدرى- و خزيمة بن ثابت- و قال سيف على ما روى الطبرى:

و ليس هذا بذى الشهادتين لأن ذا الشهادتين مات فى زمن عثمان (ض) و راح سيف يعزّز روايته هذه بما اختلق من الاخبار ليزيل ما علق بذهن الناس عن قاتلى خزيمة مبالغة فى خدمته لبنى امية.

و يقول العسكرى: و يطول علينا المقام ان حاولنا إيراد اسماء الحاضرين من أهل المدينة مع الإمام على (ع) فى حروبه، لذلك سنقتصر على ذكر عددهم مما جاء فى (تاريخ الاسلام الكبير) للذهبى فقد روى ان عدد أهل المدينة مع على فى (الجمل) كان اربعة آلاف، و فى رواية بعدها: كان مع على (ع) يوم وقعة الجمل ثمانماية من الانصار، و سبعماية ممن شهد بيعة الرضوان و فى رواية بعدها: شهد مع على يوم الجمل مائة و ثلاثون (بدريّا) و سبعماية من اصحاب النبى و كان معظم هؤلاء من الانصار المدينيين، و مثل هذه الاخبار عن أهل المدينة و رجالاتها تشهد بتميزها منذ العصور القديمة حتى العصر الاسلامى.

و يبدو من تصفح الاخبار و استعراض التاريخ ان أهل يثرب كانوا اكثر تبصرا بالأمور، و اكثر ادراكا لقيمة العقل، و اقل تعصبا للتقاليد الموروثة على رغم تلك الحروب الضارية التى كانت تقوم بينهم و بين من يغزوهم، و على رغم تعصب الاوس و الخزرج كل لآله و أسرته و قبيلته، و ليس أدلّ على فهم (المدينيين) و وعيهم من قبول الدعوة الاسلامية و هى دعوة جاءت لتهدم كل معتقداتهم، و تزيل من الوجود كل تقاليدهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۲

الموروثة، و تقلب حياتهم رأسا على عقب لو لم يكونوا على شىء من الوعى و التروى و تحكيم العقل فى الامور العامة،

فالمروى عن جابر بن عبد اللّه الانصارى: ان رسول اللّه (ص) لبث بمكة عشر سنين يتبع الحاج فى منازلهم فى الموسم بمجنّة، و عكاظ، و منازلهم بمنى، و يقول: من يؤوينى و ينصرنى حتى ابلغ رسالات ربى و له الجنّة؟

فلا يجد احدا يؤويه، و لا من ينصره، حتى ان الرجل الذى يريد ان يرحل من مصر او اليمن يأتيه قومه أو ذو رحمه فيقولون له: إحذر

فتى قريش- يعنون محمدا- لا يفتنك- انه- يمشى بين رجالهم و يدعوهم- الى- اللّه عز و جل،- و هم- يشيرون اليه باصابعهم حتى- يقول جابر- بعثنا اللّه عز و جلّ من يثرب فيأتيه الرجل منّا فيؤمن به و يقرئه القرآن فينقلب الى اهله فيسلمون باسلامه حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا- و فيها رهط من المسلمين يظهرون الاسلام، ثم بعثنا اللّه عز و جل له فأتمرنا، و اجتمعنا سبعين رجلا منا فقلنا حتى متى ندع رسول اللّه (ص) يطرد فى جبال مكة و يخاف؟- و يقول جابر الانصارى- فرحلنا حتى قدمنا عليه فى الموسم فتواعدنا شعب (العقبة) و اجتمعنا فيه من رجل و رجلين حتى توافينا عنده، فقلنا يا رسول اللّه على من نبايعك؟ قال تبايعوننى على السمع و الطاعة فى النشاط و الكسل، و على التفقد فى العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و على ان تقوموا فى اللّه لا تأخذكم فى اللّه لومة لائم، و على ان تنصرونى اذا قدمت عليكم يثرب فتمنعونى مما تمنعون منه انفسكم، و ابناءكم، و ازواجكم و لكم الجنّة.

يقول جابر الانصارى: فقمنا اليه نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۳

و هو اصغر السبعين رجلا إلا أنا، فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنّا لم نضرب اليه اكباد المطىّ إلا و نحن نعلم انه رسول اللّه، و ان إخراجه اليوم شيخ من شيوخ قريش على ما يتخيل (برتون) مترجم الف ليلة و ليلة الى الانكليزية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۴

مفارقة العرب كافة، و قتل خياركم، و ان تعضّكم السيوف، فاما انتم قوم تصبرون على عضّ السيوف اذا مستّكم، و على قتل خياركم، و مفارقة العرب كافة، فخذوه و أجركم على اللّه، .. و اما انتم قوم تخافون على انفسكم خيفة فذروه هو اعذر لكم عند اللّه، قالوا أمط عنا يدك يا اسعد بن زرارة، لا تذر هذه البيعة و لا نستقبلها، فقمنا اليه رجلا رجلا يأخذ علينا شرطه و يعطينا على ذلك الجنة و اصبح هذا المكان مسجد البيعة و هو واقع على يسار الذاهب الى منى، و يسمى الموضع الذى فيه المسجد (شعب البيعة) و (شعب الانصارى) و قد بقى اثره الى اليوم .

و فى الطبقات الكبرى لابن سعد ان النبى (ص) اقام بمكة ما اقام يدعو القبائل الى اللّه و يعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنّة، و عكاظ، و منى، ان يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه و لهم الجنة فليست قبيلة من العرب تستجيب له و يؤذى و يشتم حتى أراد اللّه اظهار دينه، و نصر نبيه، و انجاز ما وعده، فساقه الى هذا الحى- يريد به المدينة- من الانصار لما أراد اللّه بهم من الكرامة، فانتهى الى نفر منهم و هم يحلقون رؤسهم فجلس اليهم فدعاهم الى اللّه، و قرأ عليهم القرآن فاستجابوا للّه و لرسوله، فاسرعوا و آمنوا و صدقوا، و آووا، و نصروا، و واسوا، و كانوا و اللّه اطول الناس السنة؛ و أحدّهم سيوفا .

و مثل هذا الايمان الصادق، و مثل هذه الشجاعة التى لم تبال بجموع العرب فى تألبهم على اليثربيين، و مثل هذه الشهامة التى لاحت من أهل المدينة فى ابواء النبى لأمور ليس من السهل قبولها ما لم يكن لدى سكان هذه المدينة من سالف الزمن من المثل العالية، و الطيبة، و سمو الاخلاق

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۵

و لو بنسبة محدودة معينة جعل للمدينة و سكانها ميزة محسوسة ملموسة بين المدن العربية الاخرى فى الازمان السالفة.

و لقد أحسّ النبى (ص) بهذه الميزة فاثنى عليها فى مختلف المناسبات و ذكرها بالحمد و الثناء، و لم ينزل بيوت مكة بعد ان سكن المدينة، و يقول ابن جريج نقلا عن عطاء: ان النبى كان اذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلى مكة فضرب به الأبنية، و لم ينزل بيوت مكة بعد ان سكن المدينة .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۶

عوامل السكن و التمصير

عوامل قيام القرى و الدساكر و المدن فى العالم منذ اقدم تاريخ البشرية حتى اليوم احد ثلاثة هى الزراعة، و الصناعة، و التجارة بجميع مفاهيمها الاقتصادية و لما كان لهذه المنطقة من ارض الحجاز من المؤهلات الكافية من هذه العوامل الثلاثة التى تجعل منها بلدا مرموقا عامرا بالنسبة لكثير من مواقع جزيرة العرب أمّها السكان من كل جانب، و قامت فيها على مرور الزمن مدينة (يثرب) و عدد من القرى و الحصون الآهلة بالسكان، حتى لقد تنافست على امتلاكها القبائل و الامم و قد بلغ من امرها ان امتّد نفوذها ذات يوم الى مسافات شاسعة من شمال الحجاز من تيماء و تبوك، و الى جهات البحر الاحمر من الغرب، و اصبح الكثير من هذه القرى و الأودية و حتى (مدين) و جبالها ذات يوم من ملحقات يثرب و حكامها، بل ان هذه العوامل التى يعود اليها تمصير هذه البقاع و قيام هذه المدينة بسبب الخصب و النماء و الصناعة و التجارة كثيرا ما أطمعت بها الدول البعيدة و جعلتها احدى امنيات الغزاة و موطن رجائها.

قوام الزراعة و مياه المدينة

و قوام الزراعة هى المياه، و حيث توفرت المياه الصالحة و الأرض الصالحة كثر الخصب و النماء، و قد كان لوفرة المياه فى هذا القسم من الحجاز الشمالى- يثرب و توابعها- اثره فى تمصير هذه المدينة و عمران

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۷

ضياعها، فقد جادت عليها الطبيعة بعدد من الوديان، و العيون، و الابار التى يرجع اليها الفضل فى انتعاش زراعتها- و استثمار ارضها، و اذا كانت بعض تلك العيون و الابار غير صالحة للشرب، او كان بعضها موبوء كبئر (الملك) التى احتفرها (تبّع) على ما قيل فى (المدينة) فان هناك عيونا و آبارا اشتهرت بعذوبتها كبئر (رومة) فى المدينة، و بئر (عروة) من آبار عقيق المدينة التى ارسل ماؤها على سبيل الهدية الى هرون الرشيد و هو مقيم (بالرقّة) و على شاطىء الفرات العذب!!

و الكثير من هذه المياه جوفية تستخرج بواسطة حفر الآبار لذلك كثرت الابار فى هذه المنطقة و فى نفس مدينة (يثرب) بحيث سدّت حاجة السكان من الشرب و غرس النخيل، ورعى الابل و الغنم، و على رغم ان الكثير من هذه الابار قد عرف باسم عدد من مشاهير العرب و المسلمين من سكان يثرب فان الأغلب منها كان قديما و من عهود بعيدة، يؤيد ذلك وجود السكان القدماء و بعض الاسماء غير العربية التى تطلق على تلك الابار و التى بقيت على حالها و لم تتبدل، و يغلب على الظن ان الاسماء العربية و الاسلامية التى اطلقت على هذه الابار فانما اطلقت على اساس امتلاكها لا على اساس حفرها و تاريخها، و لا يعنى هذا ان كل الابار التى ورد اسمها فى التواريخ كانت كلها من آبار العهود الماضية ذلك لان عددا من الابار قد حفر فى المدينة و ملحقاتها فى عصور مختلفة من العصور الاسلامية.

و ما عدا الابار التى فاضت بخيراتها على سكان يثرب و توابعها فان هناك اودية تفيض بالمياه فى مواسم المطر الذى قد يبلغ من غزارته ان يخرب الطرق، و يقطع طرق المواصلات، و يهدم البيوت، و يقتلع الأشجار، و حتى هذا اليوم و الامطار و السيول تنزل فى جهات يثرب و شمال الحجاز بغزارة مدهشة.

و قد روى الدكتور محمد حسين هيكل و هو على مسافة قريبة من المدينة و فى قرية بنى حصان: انه لقى بسبب غوص السيارة فى الرمل شيئا من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۸

العنت فقال احد السكان: «إنها سيول هذا العام أفسدت الطريق و كان من قبل صالحا، فقد انهمرت و بلغ انهمارها حدا لا عهد لنا به مذ عرفنا الحياة، و كان من ذلك ان ارتفعت المياه فى هذا الوادى حتى غمرت سيارة من سيارات اللورى فمات بها اثنا عشر من راكبيها».

و اضاف القائل و هو يشير الى الفندق الذى نزله هيكل قائلا: «و قد بلغت المياه هذا الفندق و كادت توهن جدرانه لو لا متانة بنائه».

و يقول هيكل: و عجبت لما سمعت، و قلت للرجل: و ماذا كان يفعل آباؤكم الاولون و قد كان هذا طريقهم من مكة الى يثرب و الى الشام .

و كان سكان يثرب ينتفعون بمياه الامطار فى مواسم المطر، و عند الجفاف كان يسهل استخراج المياه من بطون تلك الوديان بمجرد إزالة قليل من التراب او حفر بعض الحفر فى اعماقها.

و إننا نورد هنا أهم موارد المياه من الوديان، و العيون، و الابار التى يعود لها فضل تمصير تلك البقاع و قيام مدينة يثرب بالذات كاحد عوامل الازدهار و السكن.

الوديان- ۱

وادى العقيق

و العقيق لغة الوادى، و كل مسيل شقه ماء السيل فأنهره و وسعّه، و العقيق بالمدينة فيه عيون و نخيل و قد قيل عن عقيق المدينة انه عقيقان:

الأكبر، و هو ما يلى الحرّة ما بين ارض عروة بن الزبير الى قصر المراجل و مما يلى الحمى ما بين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عمرو بن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۵۹

عثمان الى قصر المراجل ثم الذهاب بالعقيق صعدا الى منتهى البقيع،.

و العقيق الاصغر ما سفل عن قصر المراجل الى منتهى العرصة، و فى عقيق المدينة يقول الشاعر:

إنى مررت على العقيق و أهلهيشكون من مطر الربيع نزورا

ما ضرّكم إن كان جعفر جاركمان لا يكون عقيقكم ممطورا

و هناك عقيق آخر هو اكبر من ذينك العقيقين فى المدينة و قد أقيمت على العقيق قصور و مبان منذ القديم، و هو واقع فى غربى (المدينة) و مصدر (حضير) على مسيرة يوم و نصف يوم منها على ما عينه عبد القدوس الانصارى فى (آثار المدينة المنورة)، و فى العقيق عدد كبير من الآبار.

وادى القرى

و هو اشهر اودية الحجاز و اوسعها يمتد بين المدينة و الشام، و قد كان مشهورا بغزارة مياهه، و كثرة عيونه، و قد روى الرواة انه استخرجت فى أيام معاوية ثمانون عينا فيه بعد ان كان هذا الوادى قد أهمل لترك سكانه له، و قد استنتج بعض المؤرخين من تسميته بوادى القرى كثرة ما كان عليه من القرى بسبب غزارة مياهه.

وادى مذينيب

و يقع وادى مذينيب على نحو سبعة أميال من (المدينة) و هو من أشهر و ديان المدينة قامت عليه منازل بنى النضير و هم اول من احتفر به، و بنى، و غرس، و قد نزل عليهم بعض قبائل العرب فشاركهم فى ذلك، و من هؤلاء الاشراف والد كعب صاحب الحصن المشهور باسمه .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۰

العيون- ۲

عين فدک

و فی (فدک) عين فوارة، و نخيل كثيرة، هی اشهر عيون يثرب، و فدک هذه واقعة فی شمال المدينة و علی مسافة قليلة منها- كما سيأتی الحديث عنها- و لمياهها فی التاريخ شهرة كبيرة.

عيون الفرع

و فی الفرع، و هی فی جنوب المدينة عيون كثيرة ورد ذكرها و ذكر نخيلها فی كثير من المصادر و الاخبار و علی الاخص معجم البلدان.

عين دومة الجندل

و فی دومة الجندل بين دمشق و بين المدينة عين قال عنها ياقوت الحموی انها عين تثج فتسقی ما به من النخل و الزرع، و قد جاء فی عهد النبی (ص) (لأكيدر) صاحب دومة الجندل: ان له (الضامئة) ای النخل، و (المعين) من المعمور و هو الماء الدائم .

عين أبی نيزر و عين البغيبغة

و هما عينان فی ضيعتين من ضياع المدينة يجری فيهما جدول يسمی (بالربيع) اما ابو نيزر فهو من ولد النجاشی رغب فی الاسلام صغيرا و اتی رسول اللّه (ص) علی ما روی ابو محلم محمد بن هشام فی اسناده، و كان معه فی بيوته، فلما توفی رسول اللّه (ص) صار مع فاطمة و ولدها، قال ابو نيزر جاءنی علی بن ابی طالب (ع) و أنا اقوم بالضيعتين: عين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۱

ابی نيزر و البغيبغة فقال: هل عندک طعام؟ فقلت طعام لا ارضاه لأمير المؤمنين، قرع من قرع الضيعة صنعته بإهالة سنخة، فقال: علیّ به، فقام الی (الربيع) و هو جدول فغسل يديه ثم اصاب من ذلک شيئا ثم رجع الی (الربيع) فغسل يديه بالرمل حتی انقاهما ثم ضم يديه كل واحدة منهما الی اختها و شرب منهما حسی من (الربيع) ثم اخذ المعول و انحدر فجعل يضرب و أبطأ عليه الماء فخرج و قد تنضح جبينه عرقا فانتكف العرق من جبينه ثم اخذ المعول و عاد الی العين فاقبل يضرب فيها و جعل يهمهم فانثالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعا و قال: اشهد اللّه انها صدقة: علیّ بدواة و صحيفة، فعجلت بهما اليه فكتب:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما تصدق به عبد اللّه علی امير المؤمنين (ع) تصدق بالضيعتين بعين ابی نيزر و البغيبغة علی فقراء أهل المدينة، و ابن السبيل ليقی بهما وجهه حر النار يوم القيامة لا- تباعان و لا- توهبان حتی يرثهما اللّه و هو خير الوارثين الا أن يحتاج اليهما الحسن و الحسين فهما طلق لهما و ليس لاحد غيرهما».

قال ابو محلم محمد بن هشام: فركب الحسين دين فحمل اليه معاوية بعين ابی نيزر مائتی الف دينار فأبی ان يبيع و قال: «انما تصدق بهما ابی ليقی اللّه وجهه حرّ النار و لست بائعهما بشیء».

و البغيبغة فی اللغة البئر القريبة الرشاء و كل ماء كان قامة او نحوها سمی بالبغيبغ و قال ياقوت فلم تزل هذه الضيعة فی يدی بنی عبد

اللّه بن جعفر من ناحية ام كلثوم يتوارثونها حتى استخلف المأمون، فذكر ذلك له فقال:

كلا هذه وقف على بن ابى طالب (ع) على ولد فاطمة، فانتزعها من ايديهم و عوضهم عنها، وردّها الى ما كانت عليه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۲

الآبار- ۳

اشارة

و ما عدا هذه الاودية و العيون و ديان و عيون اخرى ورد ذكرها عرضا فى كتب التاريخ و الروايات و الاخبار و الاحاديث، كما ورد ذكر عدد كبير من الابار و فى ضمنها آبار عرفت بالعذوبة، و حين جاء الاسلام و استوطن النبى (ص) يثرب بارك بعض هذه الابار و اضفى عليها شيئا من القدسية التى اشارت اليها كتب الحديث، اما أهم آبار يثرب التاريخية فهى:

بئر غرس

و بئر غرس بئر فى (المدينة) بينها و بين مسجد قبا نحو نصف ميل و هى واقعة فى الشمال الغربى من المدينة عذبة المياه كان النبى (ص) يستعذب ماءها و يستطيبه، و يباركه، و تقول الروايات: ان النبى (ص) حين حضرته الوفاة اوصى عليّا (ع) قائلا: «اذا انا متّ فاغسلنى من ماء بئر غرس بسبع قرب» .

و فى حديث ابن عمر قال: قال رسول اللّه (ص) و هو قاعد على شفير (غرس) رأيت الليلة كأنى جالس على عين من عيون الجنة يعنى بئر غرس و (غرس من عيون الجنة) رواه ابن عباس .

بئر أرما

و من اشهر آبار يثرب القديمة بئر عرفت ببئر أرما، و يستدل على قدمها من اسمها و كون هذا الاسم أعجميا، و هى بئر واقعة على ثلاثة أميال من (المدينة) و عندها كانت غزاة ذات الرقاع، و قد ضبطها (تاج العروس) بالالف المقصورة و قال عنها: «و بئر أرمى كحمى قرب المدينة».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۳

ماء بارد زلال لسقاية الحجيج داخل المسجد النبوى الشريف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۴

بئر أريس

و بئر أريس هى الاخرى من اشهر آبار المدينة القديمة التى ظل اسمها غير العربى شاهدا على قدمها، و هى بئر بيثرب فى غربيها مقابل مسجد قبا.

قال احمد بن يحيى بن جابر: نسبت هذه البئر الى (أريس) و هو رجل من المدينة من اليهود رواه الحموى، و قد اشتهرت هذه البئر بحادثة اوردتها كتب الاخبار و هى ان للنبى (ص) كان خاتم فى يد عثمان بن عفان (ض) و هو فى السنة السادسة من خلافته فسقط الخاتم من يده فى هذه البئر، و اجتهد عثمان فى استخراجه بكل ما وجد اليه سبيلا فلم يظفر بنتيجة فاستدلوا بعدم وجوده على وقوع

حادث فى الاسلام عظيم، و قالوا: ان عثمان لما مال عن سيرة من كان قبله كان اول ما عوقب به ذهاب خاتم رسول اللّه (ص) من يده، و قد كان قبله فى يد ابى بكر (ض) ثم فى يد عمر (ض) ثم فى يد عثمان .

و يقول ابن الاثير فى وصف هذا الخاتم ان نقشه كان ثلاثة اسطر:

(محمد: سطر، و رسول، سطر، و اللّه: سطر) فتختّم به رسول اللّه حتى توفى ثم تختّم به ابو بكر ثم عمر ثم تختم به عثمان ست سنين، ثم سقط منه فى بئر (أريس) حين كان عثمان يعبث به، فطلبوه فيها و نزحوا ما فيها من الماء فلم مقدروا عليه، و لما يئس عثمان (ض) صنع خاتما آخر على مثاله و نقشه، فبقى فى اصبعه حتى هلك ، فلما ذهب ذهب الخاتم فلم يدر من أخذه.

بئر حا

هى فى شمال شرقى المدينة و لا يفصلها عنها الا مسافة قليلة جدا و لا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۵

يعرف بالضبط سبب تسميتها ببئر (حا) و قد زارها ابن النجار فى اوائل القرن السابع الهجرى فوجدها معمورة و قال عنها: انها واقعة وسط حديقة صغيرة جدا، و عندها نخلات، و يزرع حولها، و عندها بيت مبنى على علو من الارض و هى قريبة من سور المدينة، و هى ملك لبعض اهل المدينة، و ماؤها عذب حلو، ثم يقول: و ذرعتها فكان طولها عشرة أذرع و نصف ماء، و الباقى بنيان، و عرضها ثلاثة أذرع و شبر.

و قد عين ابن النجار موقعها من المسجد فقال انها مقابل المسجد.

و بئر (حا) هذه من الآبار التاريخية القديمة، كان يدخلها رسول اللّه (ص) و يشرب من مائها العذب.

و روى البخارى فى (الصحيح) من حديث أنس بن مالك قال: كان ابو طلحه أكثر انصار المدينة مالا من نخل، و كان احب أمواله اليه بئر (حا) فلما نزلت هذه الآية: «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» قال ابو طلحة لرسول اللّه (ص):

ان أحب أموالى الىّ (بئر حا) و انها صدقة للّه أرجو برّها و ذخرها عند اللّه، فضعها يا رسول اللّه حيث أراك اللّه.

فقال رسول اللّه (ص): بخ بخ ذلك مال رابح، و انى أرى ان تجعلها فى الاقربين.

فقسمها ابو طلحة فى اقاربه و بنى عمه .

بئر بضاعة

و بضاعة هذه دار بنى ساعدة (بالمدينة) و بئرها مشهورة بلون من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۶

القدسية التى تحمل السكان على الاعتقاد بانها تشفى المرضى، و يبدو من استقصاء أخبارها أنها كانت بئرا مشوبة باختلاطات من المياه غير الصافية، و لذلك كانت الفتوى التى افتاها النبى (ص) بخصائص الماء و طهارته و كون الماء طاهرا ما لم يتغير. و تحديد هذا التغير انما كانت بشأن هذه البئر،

و فى الخبر: ان النبى (ص) أتى بئر بضاعة هذه فتوضأ من الدلو، و شرب منها، وردها الى البئر . و كان اذا مرض المريض فى أيام النبى (ص) يقول: اغسلونى من ماء بضاعة فيغسل فكأنما أنشط من عقال، و جاء فى الاخبار عن شيوع تبرك الناس بماء هذه البئر و شفاء المرضى ان اسماء بنت ابى بكر (ض) قالت: كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون.

و هى عين جارية الى بساتين يشرب منها، و قد رد البعض بهذا على من قال باختلاط المياه القذرة بها و احتمال نجاستها، و اعتبرها

طاهرة ما دامت مياهها جارية، و ما دام النبى قد توضأ بها و شرب منها، و حدّد طهارة الماء بسببها، و زارها ابن النجار فى أوائل القرن السابع الهجرى و قال انه وجدها فى بستان و ان ماءها عذب طيب، و لونه صاف ابيض و ريحه كذلك و يستقى منها كثيرا، و يقول: و قد ذرعتها فكان ان طولها احد عشر ذراعا و شبرا .

بئر رومة

بئر فى عقيق المدينة و قد باركها النبى (ص) فقال عنها: نعم القليب قليب المزنى- و القليب هو البئر و المقصود بالمزنى (رومة)- و نقل ياقوت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۷

عن الكثير من الرواة ان المهاجرين لما قدموا المدينة استنكروا الماء، و كان لرجل من بنى غفار بئر يقال لها (رومة) كان يبيع منها القربة بالمُدّ، فقال له رسول اللّه (ص) بعنيها بعين فى الجنّة، فقال يا رسول اللّه: ليس لى و لعيالى غيرها لا استطيع ذلك، فبلغ ذلك عثمان (ض) فاشتراها بخمسة و ثلاثين الف درهم، و صار الناس يستقون منها.

و جاء فى معجم البلدان: ان مصعب بن عبد اللّه الزبيرى قد ذكر (رومة) و تشوقها و هو بالعراق فقال:

أقول لثابت و العين تهمى‌دموعا ما أنهنئها انحدارا

أعرنى نظرة بقرى دجيل‌تحايلها ظلاما أو نهارا

فقال: أرى (برومة) او بسلع‌منازلنا معطلة قفارا

و قال أهل السير لما قدم (تبعّ) المدينة، و كان منزله (بقبا) و احتفر البئر التى يقال لها (بئر الملك) و به سميت فاحتوى ماءها، فدخلت عليه امرأة من بنى زريق يقال لها (فاكهة) فشكا إليها و باء بئره، فانطلقت و استقت له من بئر (رومة) ثم جاءته به فشربه فاعجبه، فقال لها: زيدى، فكانت تصير اليه مقامه بالماء من (رومة) .

و حين حوصر عثمان فى داره حالوا بينه و بين ما يريد، و منعوه كل شيء حتى الماء، فاشرف عثمان يوما على محاصريه و سلم عليهم ثم قال:

أنشدكم اللّه، هل تعلمون انى اشتريت بئر (رومة) بمالى ليستعذب بها فجعلت رشائى فيها كرجل من المسلمين؟ قالوا نعم.

قال: فلم تمنعوننى ان اشرب منها حتى افطر على ماء البحر .

و زار ابن النجار بئر (رومة) فى اوائل القرن السابع الهجرى فى اثناء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۸

طوافه بالمدينة و ربوعها فقال عنها: و هذه البئر بعيدة عن المدينة جدا و هى فى براح واسع من الأرض وطئى، و عندها بناء من حجارة خراب قيل انه كان ديرا ليهود، و حولها مزارع و آبار.

و يقول بعد ذلك: فذرعتها فكان طولها ثمانية عشر ذراعا، و ماؤها صاف .

بئر رئاب

من آبار المدينة التى اشتهرت على الالسن حتى قال احد الشعراء فيها:

أسل عمّن سلا و صالك عمداو تصابى، و ما به من تصابى

ثم لا تنسها على ذاك حتى‌يسكن الحىّ عند بئر رئاب

بئر عروة

من اشهر آبار عقيق المدينة بئر عروة و هى منسوبة لعروة بن الزبير بن العوام و قد قال على بن الجهم فيها:

هذا العقيق فعدّ أيدىالعيس من غلوائها

و اذا أطفت ببئر عروةفاسقنى من مائها

إنّا و عيشك ما ذممناالعيش فى أفنائها

قال الزبير بن بكار: كان من يخرج من مكة و غيرها اذا مرّ بالعقيق تزوّد من ماء (بئر عروة) و كانوا يهدونه الى اهاليهم و يشربونه فى منازلهم، قال الزبير: و رأيت أبى يأمر به فيغلى ثم يجعله فى القوارير و يهديه الى الرشيد و هو بالرقة، و الرقة كما هو معلوم واقعة على الفرات و ان لعذوبة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۶۹

ماء الفرات شهرة كبيرة، و من هذا يستبان ان ماء بئر عروة كانت اكثر عذوبة يحيث يستحق ان يهدى ماؤها الى الرشيد و هو على شاطىء الفرات!!

و يقول السرى بن عبد الرحمن الانصارى فى بئر عروة:

كفنونى إن متّ فى درع أرويو اجعلوا لى من بئر عروة مائى

سخنة فى الشتاء باردة الصيفسراج فى الليلة الظلماء

و جاء فى آثار البلاد و اخبار العباد عن الزبير بن بكار: «و ماء هذه البئر يأخذه من مرّ بالعقيق هدية لأهله» .

*** هذا إضافة إلى عشرات العيون و الابار التى ورد ذكرها فى التاريخ و كتب الأخبار كعين (يحنّس» و قد كانت هذه العين للحسين بن على ابن ابى طالب (ع) و كان للحسين (ع) غلام يسمى (يحنّس) و هو الذى استخرج هذه العين و قد باعها على بن الحسين بن على بن أبى طالب (ع) بسبعين ألف دينار قضى بها دين أبيه، و كان أبوه (الحسين) (ع) قتل و عليه دين هذا مقداره .

و بئر (ذروان) و هى بئر بمنازل بنى زريق بالمدينة، و بئر (جشم) و (بئر جمل) و بئر (الدريك) بالمدينة و بئر (عائشة) بالمدينة و هو عائشة بن نمير بن واقف رجل من الأوس و ليس هو بامرأة، و بئر (أبى عنبة) و هى بئر بينها و بين المدينة مقدار ميل، و بئر (السقيا) و هى بئر قديمة و كانت ملكا لذكوان الزرقى و اشتراها منه سعد بن أ. وقاص، و بئر (غدق) و هى بئر بالمدينة و بئر (مطّلب) و هى بئر تقع على سبعة أميال من المدينة، و بئر (بنى مرق) و بئر (أنّا) و سماها البعض (أنّى)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۰

و هى من آبار بنى قريظة، و بئر (البصّة) بالقرب من البقيع.

هذا إلى جانب العدد الآخر من الوديان و العيون و الابار التى كان لها شأن كبير فى تمصير هذا الجانب من الحجاز كوادى (السيّالة) و هو واد يقع فى أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة، و قد نقل ياقوت عنه على رواية ابن الكلبى أنه قال: مرّ «تبّع» بالسيّالة بعد رجوعه من قتال أهل المدينة و واديها يسيل فسماها (السيّالة) و وادى (الرّمة) المعروف بخصب الكلأ و كثرة العشب و المراعى و هو أكبر واد بنجد يجىء من الغور و الحجاز أعلاه لأهل المدينة و بنى سليم، و وادى (راثوناء) و هو فى الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة، و وادى بطحان، و قد روى عن النبى (ص) أنه قال: ان بطحان على ترعة من ترع الجنّة، و وادى (مهزور) وادى (قناة) و هو يبعد عن المدينة فى أقرب جهاته نحو ثلاثين دقيقة بالمشى المتوسط على ما عينه عبد القدوس الأنصارى، و وادى (رابغ) و هو واد له ذكر فى المغازى و فى أيام العرب بين (الابواء) و (الجحفة).

و من مواطن تجمّع المياه المعروفة: (المهراس) و هو ماء بجبل (أحد) و هو فى أقصى شعب (أحد) يجتمع المطر هناك فى نقر كبار و

صغار فيؤلف مجاميع من المياه التى سميت (بالمهراس).

و هناك مهراسان على ما جاء فى (آثار المدينة المنورة) هما الآن مقيل للمتنزهين لوجود الماء العذب القراح فيهما خصوصا فى فصل الشتاء لكثرة هطول الأمطار فى المدينة فى هذا الفصل فتنساب المياه من أعالى هضاب الجبل إلى هذه النقر فتمتلىء و تفيض.

من كل هذه المنابع و غيرها التى يصعب حصرها لاندثار البعض منها و قلة شهرة البعض الآخر كانت (المدينة) و بقاعها و ملحقاتها تستمد مياه الشرب و الزراعة و المراعى، و ليس من شك أن الذى فات كتب التاريخ ذكره لاندثاره لم يكن قليلا، فقد ذكر عبد القدوس الأنصارى فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۱

كتابه (آثار المدينة المنورة) أنه قد عثر فى اثناء الحفريات لإقامة أسس القسم الشمالى لمدرسة العلوم الشرعية الحالية فى المدينة و ذلك فى سنة ۱۳۵۲ هجرية وقعوا على بركة صغيرة و مجارى مياه، و قطع من قلل المياه على عمق أربعة أمتار، و كل هذا دليل على ما كانت يثرب تتمتع به من الخصب و الثمر و الحاصلات الزراعية المتنوعة بسبب كثرة المياه التى أشرنا إليها و ديانا، و عيونا، و آبارا.

الحاصلات الزراعية

و كثرة هذه المياه لا بد و أن توفر لهذه البقاع حاصلات زراعية وافرة خصوصا حين يتم الحصول على أرض صالحة للزراعة و لهذا كان الحجاز من المناطق التى حظيت بالكثير من الزروع و الأشجار على الأخص (الطائف) و ارباضها، و الوديان التى تمتد بين مكة و جده، و يثرب و ارباضها و ملحقاتها، و لا تزال هذه المناطق منذ القديم حتى الآن تحتفظ بالكثير من الينابيع و الوديان التى أتينا على ذكر الكثير منها، و لا تزال تتمتع بخضرة السهول، و جنات النخيل و الأعناب و مختلف الفواكه و الزروع.

و على أن يثرب نفسها من مناطق الحرار المعروفة فى الجزيرة فقد اشتهرت هى و أطرافها و ملحقاتها بالخصب و النماء بسبب كثرة مياهها و وجود التربة الصالحة إلى جانب الصخور و المرتفعات، و المؤهلات الطبيعية المتوفرة للزروع كوادى القرى الذى لا بد و أن يكون قد سمى بذلك- كما أسلفنا- لكثرة قراه، و الذى عرف بكثرة بساتينه، و مياهه، و قراه فى التاريخ القديم.

و المنطقة بين قباء و المدينة هى الأخرى قد عرفت بكونها من أخصب مناطق يثرب بل لعلها أخصبها لذلك فهى تثمر جل فاكهة هذه البقاع و خضرواتها و من ثم كانت بسبب هذا الخصب و النماء متنزها لأهل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۲

يثرب، و مصحا ينتجعون فيه الراحة فى مختلف العصور، فكان الناس يخرجون اليها للتريّض و يقيم بها الناقهون استعادة للنشاط و القوة

.

و خير دليل على خصب المدينة هو وجود غابة كثيفة الشجر فى شمال المدينة و هى قائمة منذ العهود القديمة حتى اليوم، و هى غابة كثيفة الشجر فى وسط أودية كثيرة الشقوق تشغل مساحات شاسعة من الأرض بحيث يتعذر ارتيادها بغير دليل خبير حتى هذا اليوم.

و لقد نقل السمهودى: أن الزبير بن العوام كان قد اشتراها بمائة و سبعين ألفا، و بيعت فى تركته بألف الف و ستمائة الف لذلك فليس من العجيب أن يكون نصيب يثرب فى مختلف العصور القديمة من الشجر و الزرع و الفاكهة كبيرا بحيث شمل صنوفا متعددة من الشجر و على الأخص النخل و أنواع التمور و حتى صار النخل صفة من أكثر الصفات الملتصقة بأرض يثرب و لقد نسب لخنافر بن التوأم الحميرى- و كان كاهنا- زاعمين أنه كان يتلقى وحيه فى كهانته من ملهم كان يتراءى له فى الحلم و كان اسمه (شصار) فكان (رئيّا له) فلما ظهر النبى (ص) ظهر (شصار) لخنافر بن التوأم فى الحلم، و أوصاه بأن يؤمن بدين الإسلام، و حين سأله خنافر:

- كيف؟ و اين؟

قال له شصار-: إلحق بيثرب ذات النخل (كذا).

و من أشهر بقاع يثرب و ضياعها التى عرفت بزراعة النخيل، و كثرة التمور كانت قرى (خيبر) فقد قال البخارى عن عائشة إنها قالت: لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر!!

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۳

و عن ابن عمر قال: ما شبعنا- يعنى من التمر- حتى فتحنا خيبر .

و على انه لم يعرف بالضبط متى عرفت النخلة و فى اى موطن من البلدان عرفت لاول مرة فإن هنالك كثيرا من المرجحات الدالة على أن جزيرة العرب هى أقدم ما اعتبرها التاريخ موطنا للنخيل و ان القسم الجنوبى منها كاليمن، و المدينة المنورة، و الطائف، لمن اقدم تلك المواطن .

و لقد افادت يثرب من زراعة النخيل فى حياتها الاقتصادية و العمرانية و الاجتماعية فوائد كبيرة، فالى هذه النخلة يرجع تحسن أحوال السكان، و الخروج من حياة البداوة، و تنظيم امور المعيشة النسبية، و نمو الثروة اكثر مما يرجع الى المنتوجات الزراعية الاخرى.

سأل عمر رجلا من اهل (الطائف) الحبلة- اى شجرة الكرم- خير ام النخلة؟ فقال الطائفى:

- الحبلة أتزبيها، و اتربيها، و اصلح بها برمتى- يعنى الخل- و انام فى ظلها.

فقال عمر-: لو حضرك رجل من أهل يثرب ردّ هذا عليك.

فدخل- حينذاك- عبد الرحمن بن محصن البخارى فاخبره عمر (ض) خبر الطائفى، فقال البخارى:

- ليس كما قال الطائفى، فانى إن آكل الزبيب أضرّس، و ان أتركه أغرث، ليس كالصقر- اى الدبس- فى رؤوس الرقل- اى النخل الطوال- الراسخات فى الوحل، المطعمات فى المحل، تحفة الكبير،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۴

و صمتة الصغير، و زاد المسافر، و عصمة المقيم، و تخرسة مريم بنت عمران، و ينضج و لا- يعنّى طابخه، و يحترش به الضّب من الصلفاء» .

و نستبين أثر النخلة فى حياة يثرب الاقتصادية، و قيمتها فى رفع مستوى يثرب بين العدد الكبير من اصقاع جزيرة العرب و بلدانها الشهيرة، من حكاية تعود الى ما قبل ميلاد المسيح عن شخص من قدماء سكان العراق و قد سئل:

- ما هى اثمار بلادكم؟

فأجاب: التمر.

ثم قيل له:- ثم ماذا؟

فأجاب: التمر ايضا.

فلما استغرب السائل قال الرجل:

- «اننا نستفيد من النخل فوائد عدة، فاننا نستظل به من وهج الشمس، و نأكل ثمرته، و نعلف ماشيتنا بنواته، و نعلن عن افراحنا بسعفه، و نتخذ من عصارته عسلا و خمرا، و نصنع من جريده و خوصه الاوانى و الحصران و غيرها من الاثاث، و نصنع من جذعه خشبا لسقوفنا، و اعمدة لبيوتنا، و وقودا لطبخنا» .

و من المؤكد ان قدر النخلة و قيمتها الاقتصادية فى حياة المدينة كان معروفا فقد امتلأ التاريخ باخبارها و اخبار صنوف التمور فيها واهمية تلك التمور- تمور يثرب بالذات- فى التجارة، و كانت النخلة تعد ثروة كبيرة عند أهل يثرب، و لها و لتمورها الشأن الاكبر فى حياة السكان القدماء، و لذلك

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۵

ظل مثل (عرقوب) فى مواعيده قائما منذ أقدم الأزمنة و ذلك ليس لغرابة خلف عرقوب لمواعيده فحسب و انما لقيمة التمر الذى عزّ

على الأخ ان يعين به أخاه و يسعفه و يسدّله به حاجته لما كان لهذا الثمر من شأن فى المعيشة بحيث جعل الأخ يبخل على اخيه بحاصل نخلة واحدة ليسدّ به عوزه و هو طلع بعد و لم ينضج.

و القصة كما ترويها كتب الادب هى: ان رجلا من العماليق أتاه أخ له يسأله، فقال له (عرقوب)- و هو الأخ المسؤول- اذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلما اطلعت أتاه للعدة، فقال عرقوب: دعها حتى تصير بلحا، فلما أبلحت، قال: دعها حتى تصير زهوا، فلما زهت قال: دعها حتى تصير رطبا، فلما أرطبت، قال دعها تصير تمرا، فلما أتمرت، عمد اليها عرقوب من الليل فجذّها و لم يعط أخاه شيئا، فصار مثلا فى الخلف و فيه يقول الاشجعى:

وعدت و كان الخلف منك سجيّةمواعيد عرقوب أخاه بيثرب

و يروى البعض انها (يترب) بالتاء و هو موضع قرب اليمامة، و لكن الاصح انه يثرب مدينة الرسول و ليس (بيترب) اليمامة، و على هذا الرأى كان ياقوت الحموى فقد قال ان الصحيح هو ان عرقوب من قدماء يهود يثرب

و الحكاية و ان كانت تدل اكثر ما تدل على الجشع و الطمع و لكنها لا تعدم الدلالة على قيمة التمر و اهميته بحيث يثير الطمع فى نفسو الطامعين.

و بلغت قيمة التمر و قيمة النخلة مبلغا طالما آلت الى الخصومة و حتى الى القتل و كان أهم تنكيل اذا أراد اعداء يثرب ان ينكلوا بسكان يثرب فى الحرب هو ان يعمدوا الى نخيلهم فيقطعوها و يجذوها من رؤوسها،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۶

و وجد مرة رجل من بنى النجار من سكان يثرب يقال له أحمر رجلا من اصحاب (تبّع) و هو يجذّ عذقا له فى بستانه- و قد كانت لتبّع عظمته و سلطانه و كان قد غزا المدينة بجيشه الجرّار- فضربه احمر بمنجله و قتله و قال: انما الثمر لمن أبره- اى زرعه و لقحه- ثم القاه حين قتله فى بئر من آبارهم يقال لها ذات تومان و لم يبال، و لم يخش سلطان (تبّع) و قد مرت الاشارة الى هذا الحادث من قبل.

و أنواع تمور المدينة كثيرة، و أقل ما أورده المؤرخون لتمور المدينة انه مائة و بضعة و ثلاثون نوعا اشهرها العجوة، و الصيحانى، و عذق ابن طاب و هو تمر معروف فى المدينة كما جاء فى الصحاح:

و تفيد المدينة من تجارة التمور كثيرا، و ان امتيار بدو البادية و الاطراف انما يجرى من تمر المدينة و حاصلاتها.

و من اشهر صادرات المدينة من حاصلاتها الزراعية هو التمر الصيحانى، و هو نوع لم يوجد فى غير المدينة و حبّ (البان) الذى يحمل الى سائر البلاد و تفيد المدينة من تجارته شيئا كثيرا، و البان شجر قديم يكثر فى بقاع المدينة، و لحب ثمره دهن طيب، و كان حبّه يوصف فيما مضى للبرش و النمش، و الكلف، و الحصف و البهق، و السعفة و الجرب، و تقشر الجلد، طلاء بالخل، و صلابة الكبد و الطحال شربا بالخل، و ان مثقالا منه شربا مقيء، مطلق بلغما خاصا الى غير ذلك مما كانوا يصفون به هذا الحب من المنافع فكانت تجارته تدر ارباحا كثيرة،

و حين جاء الاسلام، و هاجر النبى الى المدينة حث على العناية بالتشجير

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۷

و اوصى برعاية النخلة، و دعا لتناول التمور فى مختلف الأحوال، و قد وردت فى تمر المدينة روايات و أحاديث من قبيل: «ان اللّه ليربى لاحدكم التمرة و اللقمة كما يربى احدكم فلوه و فصيله حتى يكون مثل أحد» و هذه استعارة لطيفة و المراد بها هو ان اللّه تعالى يجمع القليل الى القليل من صدقاتكم حتى يعظم يسيرها، و يكبر صغيرها، فجعل (ص) ذلك كتربية الفلو و الفصيل، و تربية الطفل الصغير .

و روى عن النبى (ص) انه قال: «ان قامت الساعة و فى يد احدكم فسيلة فان استطاع ان لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها».

و مما رواه احمد: «من أكل سبع تمرات عجوة ما بين لابتى المدينة على الريق لم يضرّه يومه ذلك شيء حتى يمسى» .

و هـذا و غيره مـا ضـاعف العنايـة بالتمور و غرس النخيل فضاعف الحاصل منه حتى كان النخل هو الركيزة الاولى التى ارتكزت عليها حياة المدينة الاقتصادية فى تاريخ الإسلام فضلا عن تاريخها القديم و لذلك قيل عنها:

انها بلدة طيبة مباركة، كثيرة الخيرات، عذبة المياه، وافرة النخيل و الثمار .

و مع كون المدينة و بعض الأطراف ارضا حرّة سبخة فقد وصفها ياقوت بقوله: لها نخل كثير، و مياه، و زروعهم تسقى من الابار، هذا الى جانب الحاصل الكبير الذى تجنيه المدينة من فواكه الشجر و الخضروات.

و مـن استعراضـنا للتاريـخ نعرف ان فى المدينـة الى جـانب النخـل و الشـجر المثمر الشـىء الكـثير مـن الأشـجار غير المثمرة و المنتفع باخشابها و حطبها او ظلها و خضـرتها و على الاخص (العضاه) و هو كل شـجر له شوك يعظم، و من أعرف ذلك: الطلح، و السلّم، و السيّال، و العرفط، و السّمر، موسوعة العتبات المقدسة ؛ ج۳ ؛ ص۷۸

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۸

و الشبهان، و الكنهبل، و الواحدة عضة، قال الراعى:

و خادع المجد اقوام لهم ورقراح العضاه به و العرق مدخول

و المنقول عن النبى (ص) انه قال: «أحرّم بين لابتى المدينة ان يقطع عضاهها او يقتل صيدها» و اللابة هى الارض ذات الحجارة النخرة السوداء و قد فسرت اللابة بالحرّة.

و فى (ورقان) و هو من جبال المدينـة أنواع من الشـجر المثمر و غير المثمر الذى أتى على وصـفه المؤرخون و فيه (القرظ) و هو ورق يسـتعمل لدبغ الجلود، و السـماق، و الخزم، و هو شـجر تتخذ منه الأرشية الجياد، و له ساق كساق النخلة على ما وصف ياقوت الى غير ذلك مما درّ على المدينة من حاصل زراعى كان له الاثر الكبير فى انعاش هذا البلد فى مختلف ادواره التاريخية.

الصناعة و التجارة

و العاملان الاخران اللذان يعود اليهما الفضل فى تمصير يثرب فى تاريخها القديم و العمل على خلق حضارة نسبية لها: هما الصناعة و التجارة، و الصـناعة و التجارة فى يثرب و ان لم تكونا مورد قياس مع صناعة المدن التاريخية المتحضرة و تجارتها بأى وجه من الوجوه و لكنهما كانتا كبيرتى الأهمية جدا بالنسـبة لمدينة تقوم هى و ضـياعها فى موقع جغرافى كموقع يثرب تحوطه البوادى و سكانها البدو من جميع الجهـات و ينعـدم اتصالهـا الوثيق بالحضارات العريقـة كحضارة وادى الرافـدين و وادى النيل و انعـدام الوسائل التى يتجاوز مفعولها الحـدود التى كانت عليه صـناعة المدينـة و تجارتها، و مع ذلك فقـد كان هـذان العلان مما لا يسـتهان بهما فى انعاش الحالة الاقتصادية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۷۹

و الاجتماعية لسـكان يثرب و ضـياعها فالى جانب حاصلات المدينة الزراعية و كثرة الفواكه و الاشجار و النخيل و ما كان يفيد سكان المدينـة من الحاصـلات الزراعية و بيع التمور و تصديرها الى الخارج كانت هناك صـناعة تفرضـها عليهم طبيعة السـكن و مقتضـيات الحاجة، لذلك عرفت المدينة فيما عرفت بصنع النصال فقيل عن نصالها:

«و ما هو الا اليثربىّ المقطّع».

و المقصود بـاليثربى المقطع هو النصـل، و قـد زعم بعض الرواة ان المراد باليثربى السـهم لا النصل، و ان يثرب لا يعمل فيها النصال، و أنكر ابو حنيفة ان يكون الأمر كذلك لأن النصال تعمل بيثرب، و بوادى القرى، و بالرقم، و بغيرها من ارض الحجاز و قد ذكر الشعراء ذلك كثيرا، و جاء فى قول كثيّر:

و ماء كأنّ اليثربيّة أنصلتباعقاره دفع الازاء نزوع

و اشتهرت يثرب بصناعة السهام الى جانب صناعة النصال فقيل فى الوصف «سهم يثربىّ و أثربىّ» منسوب الى يثرب .

و لكون يثرب المركز الرئيسى و العاصمة الكبرى فى القسم الشمالى من الحجاز كان لا بد ان تكون مركزا رئيسيا لصناعة الالات الزراعية و الاجهزة المنصوبة على الابار و الدلاء و ما شاكل ذلك، و الافادة من منتوج النخيل كالجذوع فى بناء البيوت، و الليف فى صنع الحبال و الرشاء، و الجريد فى مختلف الصناعات التى كانت تسد حاجة البيوت بالاضافة الى دبغ الجلود و استعمالها فى مختلف الشؤون التى تقتضيها الحاجة الى الجلود.

و يكفى شهرة يثرب فى الصناعات المختلفة ان يكون فى (زهرة)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۰

وحدها و هى قرية من قرى ضواحى المدينة ثلثماية صانع من اليهود .

و لما كانت المدينة بحكم مؤهلاتها و اهميتها محل اردتياد القبائل فليس بالبعيد ان تكون مختصة من بين المدن المهمة بصناعة كل ما يلائم حياة البدو الذين يمتارون منها مأكولاتهم، و ملابسهم كنسج الأخبية و بيوت الشعر، و صنع حدوج الابل، و العدول، و القدور، و الاوانى، و القرب، اضافة الى صناعة كل ما يحتاج اليه الحضر من السكان، و قد شاعت ثياب المدينة حتى قيل فى وصفها: (ثوب مدنى).

و المدينة و ضياعها واقعة فى ممر القوافل القادمة من اليمن الى الشام و القادمة من الشام الى اليمن حتى لقد اعتبروا وادى القرى طريقا عالميا منذ القديم كانت تسلكه القواقل بين الشام و اليمن .

و صحيح ان مكة كانت مركزا مهما من مراكز التجارة بل انها كانت اهم المراكز التجارية فى شبه جزيرة العرب خصوصا فى القرن السادس الميلادى و لكن المدينة كانت تنافسها لحد غير قليل لوقوعها على نفس الطريق بين اليمن و الشام، و كانت المدينتان تجلبان الميرة و ما تحتاجان اليه من خارج جزيرة العرب من مرفئيهما جدّه كميناء خاص بمكة، و ينبع كميناء خاص بالمدينة.

و المدينة بعد ذلك متصلة ببادية نجد من الشرق التى توصلها بالعراق الذى يوصلها بالبحر الأحمر من الغرب، و ان مركزا جغرافيا كهذا لمما يجعل الفوائد الاقتصادية كبيرة جدا لا سيما و ان يثرب خير مقيل لراحة القوافل و استعادة النشاط لمواصلة السفر و ذلك لكثرة مياهها و بساتينها و وفرة ما تحتاج اليه القوافل المارة من زاد و مؤون و بضاعة للطريق، فكان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۱

كل ذلك سببا من اسباب انعاش الحركة التجارية و ارتفاع مستوى الحياة، فضلا عما كانت تجنى يثرب من انتقال الحضارة النسبى و تبادل الافكار و الاتصال بالعالم الخارجى على قدر ما فى تلك الحركة المستمرة من قابلية فى نقل الحضارة النسبية و تأثيرها فى هذه الجهة من الحجاز.

و كانت تجارة الرقيق فى الجاهلية رائجة، و من هذا الطريق دخلت الى المدينة افكار جديدة حملها الارقاء الى السكان، و ليس من البعيد ان تكون تلك الافكار قد احدثت تفاعلا و لو بنسبة محدودة فى حياة المدينة، فقد كان الرقيق شائعا لحد كبير و كثيرا ما يأتى عن طريق الأسر و الغزو كأن تغزو القبيلة القوافل المارة فى طريق الشام او طريق العراق و تأسر بعض الاشخاص الذين ترى فى اسرهم مغنما و تبيعهم فى أسواق المدن، و قد كان سلمان الفارسى من هؤلاء الارقاء الذين اسروا فى قافلة خرجت من العراق تريد الشام فاسترق و بيع لبعض يهود المدينة.

و بلغت تجارة المدينة و ثروتها ان اقتنى السكان العبيد و الاماء و استخدموا العمال و الخدم و عاش الكثير منهم فى نعمة منشهودة، و يقول ياقوت عن أهل المدينة ان نخيلهم و زروعهم كانت تسقى من الابار و يملكها العبيد .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۲

اشهر قرى المدينة و ضياعها

اشارة

تحيط بالمدينة قرى و ضياع كان لها فى أيام الجاهلية شأن كبير من حيث عمرانها، و خصبها، و ازدهارها، و حصونها، و مناعتها فى الحرب، و قد بقى قسم من تلك القرى حتى اليوم محافظا على خصبه، مزهوا بنخيله و ثمره، و قد كانت هذه القرى و الدساكر مسكونة بقبائل ليس لدينا منها إلا- أخبار يفتقر الكثير منها إلى التأييد الذى يأتى به الحفر و التنقيب و البحوث الحديثة فى كتب الأخبار و الأحاديث و الرحلات قبل نزول اليهود و نزول الأوس و الخزرج و حتى فى العصور الإسلامية، و سنستعرض هنا أهم تلك القرى على قدر ما يستسيغه علم التاريخ الحديث من اخبارها.

العقيق

و الأعقّة كثيرة، و كل عقيق ينسب لجهة من الجهات، أما عقيق المدينة فهو واد عليه أموال المدينة يقع على مسافة ميلين أو ثلاثة أميال و قيل سبعة على ما ذكر ياقوت الحموى، و كان عامرا بالقصور، و الأبنية، و السكان فى الجاهلية فقد روى أن رسول اللّه (ص) ركب إلى العقيق ثم رجع فقال:

- يا عائشة جئنا من هذا العقيق، فما ألين موطئه، و أعذب ماءه.

قالت: يا رسول اللّه- أفلا ننقل اليه؟

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۳

فقال-: كيف و قد ابتنى الناس- أى أنه ملك غيرنا من الناس- و لأهل العقيق أخبار مستحسنة فى الكتب، و أشعار رائعة، و يبدو أن العقيق ظل معمورا إلى أواسط زمن العباسيين لانتساب الكثير اليه كمحمد بن جعفر بن عبد اللّه بن الحسين الأصغر بن على بن الحسين (ع) ابن على بن أبى طالب (ع) المعروف بالعقيقى.

و يقول ياقوت الحموى عن محمد بن جعفر أن له عقبا، و فى ولده رياسة، و من ولده أحمد بن الحسين بن أحمد بن على بن محمد العقيقى أبو القاسم كان من وجوه الأشراف بدمشق، و مدحه أبو الفرج الوأواء، و مات بدمشق سنة ۳۷۸ و دفن بالباب الصغير.

و فى هذا العقيق قصور، و دور، و منازل، و قرى و يقول المسعودى و لست ترى قبيلا- من العرب توغل عن الأماكن المعروفة لهم و المياه المشهورة بهم كماء ضارج، و ماء العقيق، و السباط، و ما أشبه ذلك من المياه .

يقول ابن النجار: و ولى رسول اللّه (ص) العقيق لرجل اسمه هيضم المزنى، و لم تزل الولاة على المدينة يولون واليا من عهد النبى إلى زمن الرشيد و الأمين، و هذا يدلّ على أهمية (العقيق) و بعد تاريخه، و قيام المنازل و القصور فيه قبل الإسلام.

قالوا: و مات سعيد بن زيد، و سعد بن أبى وقاص، و هما من العشرة بالعقيق و حملا إلى المدينة فدفنا بها.

و قال ابن النجار: و وادى العقيق اليوم ليس به ساكن، و فيه بنيان خراب، و آثار تجد النفس برؤيتها أنسا كما قال أبو تمام:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۴ و لا الخدود و ان أدمين من خجل أشهى إلى ناظرى من خدّها الترب

ما ربع ميّة معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

و ابن النجار من أبناء القرن السادس الهجرى و معنى هذا انه لم يبق من العقيق و واديه فى هذا القرن و ما بعده غير آثار خرائب الماضى.

خيبر

خيبر ناحيـة على نحو ثمانيـة برد من المدينـة (و البريـد اثنا عشـر ميلا عربيا فتكون المسافـة كلها ۹۶ ميلاـ عربيا و قـد جاء فى أخبارها القديمـة أنها إنما سـميت بخيبر نسـبة إلى خيبر بن قانيـة بن مهلائيل بن ارم بن سام بن نوح، و هو عمّ الربـذة، و زرود، و الشـقره بنات يثرب؟

و كان خيبر أول من نزل هـذا الموضع على ما ذكر الحموى و ما جاءت به الأخبار القديمـة التى لم تزل بحاجـة إلى التمحيص، و لكن قدم هذه الناحية فى التاريخ أمر ليس فيه ريب، و قد ورد اسم خيبر فى الكتابات البابلية القديمة، و يقول محمد رضا فى كتابه (محمد) أن معنى خيبر باللغة العبرية هو الحصن أو القلعة مستندا على ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان، و خيبر هذه مشـهورة بحصونها المنيعة المبنية بالحجارة و الصخور، و أشهرها سبعة حصون هى:

۱- حصن ناعم.

۲- القموص حصن أبى الحقيق.

۳- حصن الشق.

۴- حصن النطاة.

۵- حصن السلالم.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۵

۶- حصن الوطيح.

۷- حصن الكتيبة.

و يستبان أن كل حصن من هذه الحصون كان يشـتمل على مجموعة من الحصون، و لكون هذه البقعة تشـمل هذا العدد من الحصون سميت (بالخيابر) و كان أمنع حصونها حصن الناعم من حصون (النطاة).

و سكان خيبر يهود كانوا يقطنون بيوتا حصينة وسط النخيل و حقول القمح، و من سكانها المشاهير كان السـموأل بن عاديا المشهور بالوفاء، و لعل خيبر أكثر القرى فى شمال الحجاز ثروة و مالا لوفرة زرعها و حاصلاتها من الحبوب و الفواكه و على الأخص التمور.

يقول حسان بن ثابت:

أتفخر بالكتّان لما لبستهو قد تلبس الأنباط ريطا مقصّرا

فلا تك كالعاوى فأقبل نحرهو لم تخشه سهما من النبل مضمرا

فانّا، و من يهدى القصائد نحوناكمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا

و أن لخيبر فى حاصل تمورها شهرة كشهرة (هجر) التى ورد فى الأمثال عنها: (كمستبضع التمر إلى هجر) أو (مستبضع التمر إلى خيبر) و كان لحاصل التمور يومها قيمة جد كبيرة فى ثروة البلاد.

و كان يهود خيبر يحسون بقيمـة هـذه الثروة الطائلـة من المزروعات و النخيل و التمر و يخافون عليها من الغزو لذلك حصـنوا قراهم و بسـاتينهم بقلاـع ليس من الهين الاستيلاـء عليهـا لمناعتهـا و لوفرة السـلاح و تنوعه فيها، فحين حاصـر النبى (ص) قلاع خيبر فى السـنة السابعـة من الهجرة اتاه رجل فى الليلـة السادسـة من الحصار من يهود خيبر و أخبره أنه قـد خرج من حصن (النطاة) و هو يعرف بعض أسرار الحصن، و قال: إن فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۶

حصن (الصـعب) و هو من حصون (النطاة) و فى بيت فيه تحت الأرض منجنيقا، و دبابات، و دروعا، و سـيوفا، فإذا دخل فيه رسول اللّه أوقفه على أسراره ، فإذا كان فى بيت من بيوت خيبر مثل هذه العدة فكم يكون فى عشرات البيوت الأخرى.

و لقد توقى الغزاة هذه القلاع و تهيّبوها و لذلك لم نعثر على فاتح استطاع أن يخضعها لنفوذه و يفتحها قبل الإسلام، و قد كلف فتحها

الإسلام الشيء الكثير من العنف و الشدة، حين حنث اليهود و نكثوا العهد الذى أعطاهم النبى إياه و الذى تضمن حريتهم و حفظ أموالهم و أغراضهم و معتقداتهم، و قد جاء أن النبى (ص) كان يعهد فى كل يوم لواء الحرب لقائد من القواد لمحاربة الحصن الأول و هو حصن (ناعم) فيرجع القائد و يرجع الجيش دون طائل، و قد عزّ على النبى (ص) أن يستشهد فى هذه المعارك قائد كمحمود بن مسلمة أخى محمد بن مسلمة حتى لقد أعطى اللواء لأبى بكر و عمر بن الخطاب (ض)، و يكفى دليلا على أهمية هذه الحصون و خطورتها أن نستعرض النبى و هو يستعيذ باللّه من شر هذه المعركة، فقد جاء فى البخارى عن أنس: أن النبى (ص) لما أشرف على خيبر قال لأصحابه: قفوا. ثم قال:

اللهم رب السموات و ما اظللن، و رب الأرضين و ما اقللن، و رب الشياطين و ما اضللن و رب الرياح و ما ذرين، نسألك خير هذه القرية، و خير أهلها، و خير ما فيها، و نعوذ بك من شرّها و شر أهلها، و شر ما فيها .. أقدموا باسم اللّه» .

حتى إذا تأزم الوضع و تعقدت الحرب دون الحصول على نتيجة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۷

طلب النبى (ص) الإمام على بن أبى طالب (ع) و دفع إليه اللواء فكان أن تم الفتح على يديه.

و يقول ابن الأثير عن على (ع): فنهض- أى الإمام على- بالراية و عليه حلّة حمراء فأتى خيبر فأشرف عليه رجل من يهود فقال:

- من أنت؟

قال- أنا على بن أبى طالب.

فقال اليهودى-: غلبتم يا معشر يهود .

و قد رويت عن فتح الإمام على (ع) لقلاع خيبر روايات كثيرة اتفقت كلها فى المضمون ففى صحيح مسلم، و البيهقى عن ابى هريرة قال: قال رسول اللّه (ص):

«لأعطينّ الراية غدا رجلا يحب اللّه و رسوله، و يحبّه اللّه و رسوله يفتح عليه، قال عمر (رض): فما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فدعا عليّا (ع) فبعثه ثم قال: اذهب فقاتل حتى يفتح اللّه عليك، و لا تلتفت الخ ... ».

و قال الإمام أحمد: إن رسول اللّه (ص) أخذ الراية فهزّها ثم قال:

من يأخذها بحقها؟ فجاء فلان فقال: أنا، قال: إمض، ثم جاء رجل آخر فقال: إمض، ثم قال النبى (ص) و الذى كرّم وجه محمد لأعطينّها رجلا لا يفرّ، فقال: هاك يا على، فانطلق حتى فتح اللّه عليه (خيبر) و (فدك) و جاء بعجوتها و قديدها .

أما إحدى روايات الطبرى فتتلخص فى أن رسول اللّه (ص) لما نزل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۸

بحصن أهل خيبر أعطى اللواء لعمر بن الخطاب (ض) و نهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر و أصحابه فرجعوا إلى رسول اللّه (ص) و هم يجبّنونه- اى يجبّنون عمر- و هو يجبّنهم، فقال رسول اللّه- و كان قد مرّ على محاصرة القلعة عدة أيام دون طائل، قال:

لأعطين اللواء غدا رجلا يحب اللّه و رسوله، و يحبه اللّه و رسوله، فلما كان من الغد تطاول لها أبو بكر و عمر (ض) فدعا عليا عليه السلام و هو أرمد و أعطاه اللواء و نهض معه من الناس من نهض فإذا (بمرحب) و هو أشهر أبطال اليهود يرتجز و يقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب‌شاكى السلاح بطل مجرّب

فارتجز على (ع) قائلا:

أنا الذى سمّتنى أمّى حيدرهأكيلكم بالسيف كيل السندره

ليث بغابات شديد قسوره و يروح الطبرى واصفا هذه المقاتلة و ما كان يدّرع به (مرحب) إذ يقول عنه: و خرج مرحب من الحصن و

هو صاحبه و عليه مغفر معصفر يمان، و حجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، و تقاتلا قتالا عنيفا انتهى بقتل مرحب و أخذ المدينة و كانت مدة النزال شهرا على ما ذكرت التواريخ.

و جاء فى كتاب (محمد رسول اللّه): و كان أول حصن فتحه المسلمون هو حصن (الناعم) من حصون (النطاة) على يد علىّ رضى اللّه عنه .

و لأهمية هذا الفتح قال النبى (ص):- و كان جعفر بن أبى طالب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۸۹

قد قدم من الحبشة يوم فتح خيبر-: ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

و إلى جانب هذه النعمة الوافرة التى كان ينعم بها أهل خيبر، و الحصن المنيع الذى يضمن لهم الأمن و الاطمئنان، و العيش الرغيد كان هنالك شىء ينغّص حياة سكان خيبر و ينكّد عيشهم، و ذلك هو الحمّى التى عرفت بها قرى خيبر، و الراجح أنها كانت (الملاريا) و ذلك لكثرة المياه و لمراودة هذه الحمى السكان بين آن و آخر على ما تصف الأخبار و قد عرفت هذه الحمى بالحمى الخيبرية و وصفت بالشعر، و منه قول أحد الشعراء:

كأن به إذ جئته- خيبريةيعود عليه وردها و ملالها

و قدم أعرابى خيبر بعياله فقال:

قلت لحمّى خيبر: استعدىهاك عيالى فاجهدى وجدى

و باكرى بصالب و وردأعانك اللّه على ذا الجند

و يقول ياقوت: فحمّ و مات هو و بقى عياله!

و قال الأخنس بن شهاب:

فلأبنة حطّان بن قيس منازل كما نمّق العنوان فى الرقّ كاتب

ظللت بها أعرى و أشعر سخنةكما اعتاد محموما بخيبر صالب

قرية فدك

و فدك قرية من قرى خيبر تقع على مسافة يومين أو ثلاثة أيام من المدينة المنورة، و سكانها يهود كسكان المواقع الأخرى و القرى اليهودية من خيبر، و هى ذات شجر و نخيل و خصب بفضل مياهها الفوارة، و أرضها الصالحة، و ليس من شك أنها كانت قد احتاطت لنفسها توقيا من الغزو و الحروب بالقلاع الحصينة كما فعلت سائر قرى خيبر دفاعا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۰

عن النعمة الوافرة التى كانت تنعم بها خيبر، و يبدو من سير التاريخ أن قرية فدك إذا لم تكن أخصب قرية من قرى المدينة و أوسعها ثروة فى حاصلاتها الزراعية فهى على الأقل كانت من أخصب البقاع فى عصور المدينة القديمة التى لم يعرف شىء عن مبدأ تاريخها قبل أن يسكنها اليهود غير ورود اسمها فى الكتابات البابلية القديمة، و قد أكسبتها قضية امتلاكها فى مختلف الأدوار شهرة كبيرة خصوصا فى القرن الأول و القرن الثانى من الهجرة، فقد تردد اسمها على الأفواه فى أيام الخليفة أبى بكر (ض) و ما بعده، و لو لا ذلك لما ذكر خبرها بأكثر مما كان يذكر من أخبار قرى خيبر الأخرى و أخبار حصونها.

و يتلخص خبر (فدك) فى أن رسول اللّه (ص) حين استولى على قلاع خيبر و أموالها لم يبق إلا حصنان هما (الوطيح) و (السلالم) و قد اشتد حصاره لهما حتى أيقن سكان الحصنين من اليهود بالهلاك سألوا النبى (ص) أن يسيّرهم و يحقن لهم دماءهم ففعل، و كان النبى قد حاز أموال حصن (الشق) و حصن (النطاة) و (الكتيبة) و (القموص) و حصن (الناعم) و ما احتوت عليه تلك القرى إلا ما كان

من ذينك الحصنين اللذين انتهى أمرهما بأخذ الأمان و حقن الدماء، و المصالحة على المناصفة فى استثمار الأرض حين رأى سكان فدك أن لا مناص لهم من المصالحة بعد أن رأوا ما انتهى اليه أمر سكان (الوطح) و (السلالم) فبعثوا إلى الرسول (ص) يسألونه أن يسيّرهم و يحقن دماءهم على أن يخلّوا له الأموال، ففعل، و صالحهم كما صالح (الوطيح) و (السلالم) على أن يكون للمسلمين الحق فى إخراجهم من القرية إذا شاؤوا، فكانت خيبر فيئا للمسلمين، أما (فدك) فكانت خالصة لرسول اللّه (ص) لأنها لم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۱

باحة المسجد النبوى الكريم و ضريح الرسول الاعظم فى المدينة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۲

يوجف عليها بخيل أو ركاب.

و بعد وفاة النبى (ص) ضمّها أبو بكر (ض) إلى أملاك المسلمين فنازعته فيها فاطمة الزهراء (ع) ابنة النبى (ص) و قالت له: إن رسول اللّه قد نحّلنيها، و قد جعلها لى فأعطنيها، و شهد لها الامام على بن ابى طالب (ع) فسألها أبو بكر شاهدا آخر فشهدت لها أمّ أيمن مولاة النبى (ص) فقال أبو بكر: «قد علمت يا بنت رسول اللّه أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين، أو رجل و امرأتين» فانصرفت .

فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بردّ (فدك) إلى ولد فاطمة (ع) فكانت فى أيديهم فى أيام عمر بن عبد العزيز، فلما ولى يزيد بن عبد الملك قبضها، فلم تزل فى أيدى بنى أمية حتى ولى أبو العباس السفاح الخلافة فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب، فلما ولى المنصور و خرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم، فلما ولى المهدى بن المنصور الخلافة أعادها عليهم، ثم قبضها موسى الهادى و من بعده إلى أيام المأمون، فجاءه رسول بنى على بن أبى طالب (ع) فطالب بها، فأمر أن يسجّل لهم بها، فكتب السجل و قرىء على المأمون فقام دعبل و أنشد:

أصبح وجه الزمان قد ضحكابردّ مأمون هاشم فدكا

و يقول ياقوت الحموى: «فلما كانت سنة ۲۱۰ أمر المأمون بدفعها إلى ولد فاطمة، و كتب إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة: أنه كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أعطى ابنته فاطمة رضى اللّه عنها (فدك) و تصدق عليها بها و أن ذلك كان أمرا معروفا عند آله عليه الصلاة و السلام، ثم لم تزل فاطمة تدعى منه بما هى أولى من صدق عليه، و أنه قد رأى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۳

ردّها إلى ورثتها و تسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى اللّه عنهما ليقوما بها لأهلهما و يقول ياقوت نقلا- عن الزجاجى: أنها سميت بفدك بن حام و كان أول من نزلها!! و هذا من الأخبار المفتقرة للتمحيص .

وادى القرى

هو واد بين الشام و المدينة- كما مر- و بين تيماء و خيبر- فيه قرى كثيرة و بها سمى وادى القرى، و نقل ياقوت عن أبى المنذر أنه إنما سمى بوادى القرى لأن هذا الوادى من أوله إلى آخره قرى منظومة، و يقول:

و كانت من أعمال البلاد و آثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنها فى وقتنا هذا كلها خراب، و مياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد .

و وادى القرى هذا من منازل قضاعة، ثم جهينة، و عذرة، و بلى، و كان قديما منازل ثمود و عاد، و آثارها إلى الآن باقية على ما يذكر ياقوت، و قد نزل هذه القرى بعدهم اليهود، و استخرجوا كظائمها، و أساحوا عيونها، و غرسوا نخلها فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفا، و كان لهم فيها على اليهود طعمة و أكل فى كل عام و منعوها لهم على العرب، و دفعوا عنها قبائل قضاعة

و يقول ياقوت: و كان النعمان بن الحارث الغسانى ملك الشام أراد غزو وادى القرى مرة فحذّره نابغة بنى ذبيان من ذلك بقوله:

تجنّب بنى حنّ فإنّ لقاءهم كريه و إن لم تلق إلا بصابر

هم قتلوا الطائى بالحجر عنوةأبا جابر و استنكحوا أم جابر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۴ و هم ضربوا أنف الفزارىّ بعدماأتاهم بمعقود من الأمر، قاهر

أتطمع فى وادى القرى و جنابهو قد منعوا منه جميع المعاشر

و يفسر ياقوت الأسماء فيقول عن (حنّ) انه ابن ربيعة و ينتهى به إلى قضاعة، أما أبو جابر فيقول عنه أنه الجلّاس و ينتهى به إلى طى، و كان هذا ممن اجتمعت عليه جديلة طى.

و فى سنة سبع و عندما فرغ النبى (ص) من غزوه لخيبر توجه إلى وادى القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا عليه و قاتلوه ففتحها عنوة و غنم أموالها، و أصاب المسلمون منهم أثاثا و متاعا فخمّس رسول اللّه ذلك و ترك النخل و الأرض فى أيدى اليهود، و عاملها على نحو ما عامل عليه أهل خيبر.

و فى وادى القرى يقول القاضى أبو يعلى عبد الباقى بن أبى الحصين المعزى:

إذا غبت عن ناظرى لم يكديمرّ به- و أبيك- الكرى

فيؤلمنى أننى لا أراكإذا ما طلبتك فيمن أرى

لقد كذب النوم فيما استقلبشخصك فى مقلتى و افترى

و كيف و دارى بأرض الشئآمو دارك أرض بوادى القرى

و بعد فلى أمل فى اللقاءلأنى و إياك فوق الثرى

و قد نسب إلى وادى القرى جماعة منهم: يحيى بن أبى عبيدة الوادى المتوفى سنة ۲۴۰ ه .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۵

قرية الفرع

و من أشهر القرى القديمة التابعة للمدينة قرية الفرع، و قد اشتهرت بكثرة مياهها و نخيلها، و هى على مسافة ثمانية برد من المدينة المنورة فى طريق مكة، و قد وصفت بالازدهار و جمال الطبيعة، فقيل عنها انها قرية غناء، و هى قرية قديمة و غابة فى القدم حتى لقد زعموا أنها كانت أول قرية مارت اسماعيل و أمّه التمر بمكّة، و قال ابن الفقيه عنها:

فأما أعراض المدينة فأضخمها (الفرع)، و من عيونها المشهورة عينان يقال لهما الربض، و النجف، و قيل انهما تسقيان عشرين ألف نخلة!!

قرية قبا

و من القرى المشهورة القديمة التابعة للمدينة المنورة قرية (قبا)، و المعروف أن قبا اسم بئر عرفت به القرية، و هى واقعة على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة كما يعينها ياقوت، و قد أكسبتها صلاة النبى فيها شهرة واسعة، و عن أبى سعيد الخدرى رووا أنه لما صرفت القبلة الى الكعبة أتى رسول اللّه (ص) مسجد قباء، فقدم جدار المسجد الى موضعه اليوم و أسسه و نقل رسول اللّه و أصحابه الحجارة لبنائه، و كان الرسول يأتيه كل سبت ماشيا .

و يقول أحمد بن يحيى بن جابر فى رواية البشارى التى أوردها ياقوت:

كان المتقدمون فى الهجرة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و من نزلوا عليه من الأنصار بنوا بقباء مسجدا يصلون فيه الصلاة سنة إلى البيت المقدس، فلما هاجر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و ورد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۶

(قباء) صلى بهم فيه، و ان أهل قباء يقولون: إنه المسجد الذى أسّس على التقوى من أول يوم، و قيل انه مسجد رسول اللّه.

و قد وسّع مسجد قباء و كبّر بعد، و قد أقام النبى لما هاجر بقباء يوم الاثنين، و الثلاثاء، و الأربعاء، و الخميس، و ركب يوم الجمعة يريد المدينة فجمّع فى مسجد بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج فكانت أول جمعة جمّعت فى الإسلام .

و يقول ياقوت: و بقبا أثر بنيان كثير- يريد فى القرن السادس- و هناك مسجد التقوى عامر، قدامه رصيف و فضاء حسن، و آبار و مياه عذبة.

و مسجد قبا كما جاء فى كتاب الاستبصار فى القرن السادس أيضا:

أنه مسجد مربع طوله ۷۰ ذراعا و عرضه كذلك، و مقدمه ۳ بلاطات و مؤخره مع مجنبته سقيفة واحدة على أعمدة من خرز ملبسة بالجيار عددها ۴۳ عمودا و له ۳ أبواب بلا- مصارع، و على ركن مؤخر المسجد مكتوب عن يسار من استقبل المحراب: «أن النبى صلعم دخل على أمّ أيمن و هى حزينة، فقالت له ليس عندى ما أحجّ به، فقال لها: صومى أيام العشر ثم أئت مسجد قبا يوم عرفة فصلّى فيه ركعتين بثواب حجة».

و مكتوب أيضا: أن سعد بن أبى وقاص قال:

«لئن آت مسجد قبا فأصلى فيه ركعتين أحبّ إلىّ من أن أزور بيت المقدس مرتين، و لو علم الناس ما فى مسجد قبا لضربوا اليه آباط الأبل».

و بيت سعد بن خيثمة الأنصارى الذى كان يقيم فيه النبى صلعم بين المسلمين و هو قريب من ركن المسجد الغربى و من مقدم المسجد و الشجرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۷

التى كانت تحتها البيعة سقف، و ذلك السقف هو جزع و هو مغطى بالألواح .

و يقول ابن جبير: أن (قبا) كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة، و الطريق إليها كما يصفه فى رحلته بين حدائق النخيل المتصلة، و النخيل محدق بالمدينة من جهاتها، و أعظمها جهة القبلة و الشرق، و أقلها جهة المغرب، و فى مسجدها موضع مبرك ناقة النبى، و فى قبلة المسجد دار لبنى النجار و هى دار أبى أيوب الأنصارى.

و فى قرية قبا التى سماها ابن جبير بالمدينة: تلّ مشرف يعرف بعرفات يدخل على دار الصفّة حيث كان عمّار، و سلمان، و أصحابهما المعروفون بأهل الصفّة، و أن آثار هذه القرية و مشاهدها كثيرة لا تحصى .

دومة الجندل

هى بضم الدال و بعضهم يلفظها بفتح الدال، قرية اعتبرها المؤرخون من أعمال المدينة و توابعها، و هى على سبع مراحل من دمشق بينها و بين المدينة، و فى تاريخها القديم أخبار لا يمكن الركون اليها لعدم وجود ما يستند اليه غير القصص و الأخبار المتناقلة، فقد روى ياقوت فى معجمه أنها سميت باسم (دوم) بن اسماعيل. و قيل انه كان لاسماعيل ولد اسمه (دما)!! أما الشىء الثابت فهو ورود اسمها فى الكتابات الأشورية و هو الدليل على قدمها.

و يقول ابن الكلبى فى رواية ياقوت أيضا: ان ابن اسماعيل هو دوماء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۸

و قال: و لما كثر ولد اسماعيل بتهامة خرج دوماء بن اسماعيل حتى نزل موضع (دومة) و بنى به حصنا فقيل دوماء و نسب الحصن له!!

و فى حديث الواقدى: دوماء الجندل، و هى قرية ذات نخيل و مزارع و فيها عين فوارة تسقى البساتين، و إنما سميت بدومة الجندل لأن حصنها مبنىّ بالجندل- أى الصخور العظيمة.

و قال أبو عبيد السكونى: ان دومة الجندل حصن و قرى بين الشام و المدينة قرب جبلى طى كانت به بنو كنانة من كلب، و على (دومة) سور يتحصن به، و فى داخل السور حصن منيع يقال له: (مارد) و هو حصن (أكيدر) الملك بن عبد الملك بن عبد الحى بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن عفير و هو كندة السكون الكندى! .

و الراجح هو أن دومة الجندل هذه قرية أو مدينة قديمة و من أقدم قرى الجاهلية، و أن الحصن الذى عرفت به حديث يرجع إلى عهد (اكيدر) الملك المسيحى الذى أسلم على عهد رسول اللّه (ص) ثم تمرّد، و قيل انه كان متمردا ثم أسلم، و قد احتل جيش الإسلام هذا الحصن، و يقول لبيد و هو يصف بنات الدهر:

و أعصفن بالدومى من رأس حصنهو أنزلن بالأسباب ربّ المشقّر

يريد به (أكيدر) صاحب دومة الجندل فقد روى أن منزل (اكيدر) هذا كان بدومة الحيرة فى العراق، و كان قومه يزورون أخوالهم من (كلب) و ذات مرة كان (اكيدر) معهم و قد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها و هى مبنية بالجندل فأعادوا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۹۹

بناءها و غرسوا فيها الزيتون و غيره و سموها (دومة الجندل) تفرقة بينها و بين (دومة الحيرة) و كان (اكيدر) يتردد بينها و بين دومة الحيرة، و قد ذهب البعض إلى أن التحكيم بين الإمام على (ع) و بين معاوية كان بدومة الجندل .

قرية ينبع

على سبع مراحل من المدينة المنورة بين مكة و المدينة، كما جاء فى مختلف الرحلات و على يمين (رضوى) لمن كان منحدرا من المدينة إلى البحر، و هى قرية كانت لبنى الحسن بن على بن أبى طالب (ع) و هى كسائر القرى التابعة للمدينة و التى لم يعرف عن تاريخها الجاهلى شىء مضبوط، و تشمل قرية ينبع حصنا به نخيل و ماء و زرع، و بها وقوف وقفها الإمام على (ع) كان يتولاها ولده و قد عدّها بعض المؤرخين من أرض تهامة و لم يلحقها بالمدينة، و قيل إنما سميت بينبع لكثرة ينابيعها، و قال الشريف بن سلمة بن عياش الينبعى: عددت بها مائة و سبعين عينا على ما ذكر ياقوت، و فى بعض الأخبار: أن النبى (ص) أقطع عمر ابن الخطاب (ض) ينبع و ملكه إياها و هذا يناقض كونها من موقوفات الإمام على (ع).

قرى أخرى

و من أشهر قرى المدينة القديمة (زبالة الزج) و قرية (المال) و هى من أقدم قرى المدينة، و قد قال السمهودى عن (زبالة الزج): و كان بالمدينة فى الجاهلية سوق بزبالة من الناحية التى تدعى يثرب و خيف العيون، و هى بالقرب من المدينة و فيها آثار بنايات متداعية قديمة على ما ذكر عبد القدوس الأنصارى، و غير هذه قرى أخرى طمست آثارها و محيت أسماؤها كقرى (عرينه) و منازل (مزينة) و غيرها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۰

اشهر مواقع المدينة و اماكنها القديمة

حرة واقم

و هى الحرّة الواقعة شرقى المدينة؛ و تتقسم باعتبار المنازل القديمة إلى خمس مناطق متجاورة مرّ وصفها، منطقتين منها كانتا لليهود، و ثلاث مناطق كانت للاوس من الأنصار.

حرّة الوبرة

و هى بضاحية المدينة الغربية و أقرب إلى المدينة بالنسبة لحرّة (واقم) و تمتاز حرّة (الوبرة) عن حرّة (واقم) بكثرة الهضاب و القلاع و المرتفعات و المنخفضات، و بهذه الحرّة تقع إحدى ثنيات الوداع، و بطرفها الشمالى الشرقى منازل بنى سلمة.

البقيع

أشهر موقع من مواقع المدينة، بل من أشهر مواقع الحجاز قاطبة، و بقيع الغرقد هذا هو الذى ورد ذكره فى مرثية عمرو بن النعمان البياضى لقومه و كانوا قد دخلوا فى بعض حروبهم حديقة من حدائقهم و أغلقوا بابها عليهم- على ما يروون- ثم اقتتلوا فلم يفتح الباب الا بعد ان قتل بعضهم بعضا!! فقال فى ذلك:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۱ خلت الديار فسدت غير مسوّدو من العناء تفرّدى بالسؤدد

أين الذين عهدتهم فى غبطةبين (العقيق) إلى بقيع الغرقد

كانت لهم أنهاب كل قبيلةو سلاح كل مدرّب مستنجد

نفسى الفداء لفتية من عامرشربوا المنيّة فى مقام انكد

قوم هم سفكوا دماء سراتهمبعض ببعض فعل من لم يرشد

يا للرجال لفتية من دهرهمتركت منازلهم كأن لم تعهد

و اتخذ البقيع مقبرة و سميت ببقيع الغرقد لأنها كانت مغطاة بالنباتات الشوكية المعروفة بالغرقد، أما كلمة البقيع فمعناها المكان المزروع بعدد من أنواع الشجر و لذلك سماها الرحالة السويسرى (برخارت) (جنة البقيع).

و شهرة البقيع قد رافقته منذ أن أصبح مدفنا لعدد من عظماء المسلمين و أئمتهم و أعلام الأنصار و المهاجرين، و كان النبى (ص) يقصد البقيع يؤمّه كلما مات أحد من الصحابة ليصلى عليه و يحضر دفنه، و قد يزور و البقيع فى أوقات أخرى ليناجى الأموات من أصحابه و يطلب لهم الرحمة.

و قد روى مسلم فى الصحيح عن عائشة أنها قالت: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم كلما كانت ليلتى منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول:

«سلام عليكم دار قوم مؤمنين، و أتاكم ما توعدون، و إنّا إن شاء اللّه بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

و حدث محمد بن عيسى عن خالد عن عوسجة قال: كنت أدعو ليلة إلى زاوية دار عقيل بن أبى طالب التى تلى باب الدار فمرّ بى جعفر ابن محمد (ع) فقال لى:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۲

- أعن أثر وقفت ها هنا؟

قلت-: لا ...

قال-: هذا موقف نبى اللّه (ص) بالليل إذا جاء يستغفر لأهل البقيع .

لذلك كبر شأن البقيع، و كثر رواده بقصد الدعاء و الاستغفار أو التسلية إذ أصبح ملتقى الجماعات و أشبه ما يكون با لمنتدى و المجلس العام لاجتماع الناس فى أوقات فراغهم، فقد روى أن عمر بن الخطاب (ض) أمر الذين يريدون أن يتحدثوا فى أمور دنياهم فى المسجد أن يخرجوا إلى البقيع ليتحدثوا هناك بشؤونهم الخاصة.

و اتسعت رقعة البقيع و عظم شأنها حتى قيل أن عدد الذين دفنوا فيها من الصحابة كان عشرة آلاف صحابى !!

و الظاهر أن هذه المقبرة ظلت عامرة باضرحتها و أبنيتها الضخمة، و القبب القائمة على مدافن المشاهير و الأعلام حتى قيام الوهابية التى كان من مذهبها تسوية القبور بالأرض فسويت تلك الأضرحة و المدافن كضريح العباس بن عبد المطلب، و السيدة فاطمة الزهراء (ع) و ابراهيم بن النبى (ص) و الخليفة عثمان بن عفان (ض) و الإمام الحسن بن على بن أبى طالب (ع) و عدد كبير من التابعين أمثال نافع شيخ الإمام مالك، و من تابعى التابعين أمثال مالك إمام المدينة.

و عمر ابن جبير الرحالة فى القرن السادس الهجرى بالبقيع فيصف المقبرة وصفا خلاصته: أن بقيع الغرقد واقع شرقى المدينة تخرج اليه على

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۳

باب يعرف بباب البقيع، و أول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبى (ص) و هى أمّ الزبير بن العوام، و أمام هذه التربة قبر مالك بن انس الإمام المدنى (ض) و عليه قبة صغيرة مختصرة البناء، و أمامه قبر السلالة الطاهرة: ابراهيم بن النبى (ص) و عليه قبة بيضاء و على اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب (ض) اسمه عبد الرحمن الأوسط و هو المعروف بأبى شحمة، و هو الذى جلده أبوه الحدّ فمرض و مات، و بازائه قبر عقيل بن أبى طالب (ض) و عبد اللّه ابن جعفر الطيار (ض) و بازائهم روضة فيها أزواج النبى (ص) و بازائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبى (ص) و تليها روضة العباس ابن عبد المطلب (ض) و الحسن بن على (ع) و هى قبة مرتفعة فى الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور و عن يمين الخارج منه، و رأس الحسن (ع) إلى رجلى العباس (ض) و قبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيّان بألواح ملصقة أبدع الصاق، مرصّعة بصفائح الصفر و مكوكبة بمساميره على أبدع صفة و أجمل منظر، و على هذا الشكل قبر ابراهيم مغشّيان بألواح ملصقة أبدع الصاق، مرصّعة بصفائح الصفر و مكوكبة ابن النبى (ص) و يلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول اللّه (ص) و يعرف (ببيت الحزن) يقال انه البيت الذى آوت اليه و التزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى (ص)، و فى آخر البقيع قبر الخليفة عثمان (ض) و عليه قبة صغيرة مختصرة، و على مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب (ع).

ثم يقول ابن جبير: و مشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين و الأنصار، و على قبر فاطمة المذكورة- بنت أسد- مكتوب: «ما ضم. قبر أحد كفاطمة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۴

بنت أسد رضى اللّه عنها و عن بنيها ».

و يمر ابن بطوطة بعد ابن جبير بما يقرب من ۱۵۰ سنة بالبقيع فيصف البقيع وصفا مطابقا لوصف ابن جبير فى تحديد هذه المشاهد و القبور و القبب و الأضرحة .

و على مرور الزمن نال البقيع بسبب الإهمال و عوادى الدهر ما ذهب بروعة هذه البقعة من الشجر و الكثير من الأبنية و الغالب أن هذه الإهمال قد لحق البقيع بعد القرن السابع الهجرى، و الغريب فى الأمر أن يزور صاحب كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار فى القرن السادس و البقيع على ما تنقل الروايات فى ذلك العصر كان فى ازهى أدواره فيقول عنه:

«بقيع المدينة من ناحية الشرق، فأول ما تلقى إذا خرجت إلى البقيع:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۵

قبر مالک (ض) و هو قبر مهمل مبنی بالحجر و الطين، مرتفع من الأرض نحو ۴ أشبار، و عند رأسه حجر أدكن منقوش تاريخه من يوم مات، ثم تسير منه قليلا و قد بصقت القبور موتاها!! و رفضت الأرض جميع ما دفن فيها من صغير و كبير!! و لم يبق فی بطنها منهم شیء إلا رفضته علی وجهها، فلم يبق عضو من أعضائها، و لا عظم من عظامها و لو كان مقدار خردلة إلا و خرج علی الأرض من ناس أهل المدينة خاصة!! و ترى البقيع شبه المقتلة من دفن قديم و حديث، و جماجم الموتى بالية قديمة، و أخرى حديثة، فهذا عبرة لمن اعتبر!! ثم تسير قليلا فتلقی روضة العباس بن عبد المطلب (ض) ثم روضة ابراهيم ولد النبی عم، ثم روضة عثمان بن عفان، و روضات كثيرة ».

و فی أوائل القرن التاسع عشر الميلادی زار الحاج عبد اللّه بورخارت البقيع و قيل بل كان اسمه الحاج بوخارت ابراهيم فقال عنه ما ملخصه:

«فی اليوم الذی يلی أداء الحاج واجباته للمسجد و الحجرة، تجری العاة بذهابه الی مقبرة المدينة تكريما لذكری القديسين الكثيرين المدفونين بها، و هی تجاور أسوار البلد علی مقربة من باب الجمعة و تسمی (البقيع) صورتها مربع مكوّن من بضع مئات من الأذرع يحيط به جدار يتصل من الجنوب بضاحية المدينة، و تحيط به من سائر نواحيه مزارع النخيل، و هذا المكان حقير جدا بالنظر الی قداسة الأشخاص الذين يحتوی رفاتهم، و لعله أشد المقابر قذارة و حقارة بالقياس الی مثله فی أية مدينة شرقية فی حجم (المدينة) فليس به متر واحد حسن البناء، كلا- بل ليست به أحجار كبيرة عليها كتابة اتخذت غطاء للقبور، إنما هی أكوام من تراب أحيطت بأحجار غير ثابتة ».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۶

و زيارة (برخارت) الحجاز كان بعد غزوة الوهابيين الذين سوّوا هذه القبور مع الأرض و حين عاد الأمر للعثمانيين بعد إجلاء الجيوش المصرية للوهابيين أعادوا بناء كثير من القباب و شادوها علی صورة من الفن تتفق مع ذوق العصر، و قد ذكر صاحب (مرآة الحرمين) هذه الأضرحة و القبب و صورها فی كتابه، و حين عاد الوهابيون الی الحجاز بعد أكثر من مائة سنة علی حملتهم الأولی عادوا إلی هدم تلك القبب و الأضرحة و ساووها بالأرض.

و يزور الدكتور محمد حسين هيكل البقيع بعد (برخارت) بما يقرب من ۱۲۵ سنة فيقول انه لم يجد فی البقيع بقية لبناء أو قبة علی الأجداث مما حمل برخارت علی أن يسمی هذا المكان (جنة البقيع) كذلك يقول إنه لم يجد بها أكواما من التراب و لا حفرا و لا حثالة، و إنما وجد قبورا مسوّاة بالأرض يحيط بكل قبر منها أحجار صغيرة تعلمه، فلو لا أنك تعرف أن هذا المكان هو البقيع، و أن به رفاتا خلّف أصحابها علی التاريخ أعظم الذكر، و لو لا هذه الأحجار المحيطة بكل قبر لخلتها- يقول هيكل- فضاء مسوّرا لا شیء فيه البتة .

زغابه

و زغابة موضع قرب المدينة و فی آخر العقيق، يصب فيه سيل العقيق و وادی قناة و بطحان، و هی مجمع سيول المدينة؛ و فيها وقعت المعركة بين النبی و قريش، فصارت لها شهرة أكبر، و فی الحديث علی ما روی الراوون: أن أعرابيا أهدی للنبی ناقة فكافأه النبی بستّ نياق فاستقلها الأعرابی و لم يقبل بها!! فقال النبی: ألا تعجبون لهذا الأعرابی و قد أهدی لی ناقتی التی أعرفها و التی ذهبت منی يوم (زغابة) فكافأته بستّ و سخط و لم يرض!؟

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۷

الرحالة بوخارت يزور العتبات و هو فی زی التنكر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۸

النقا و حاجر

النقا و حاجر موضعان متجاوران متلاصقان قديما طالما تغنى بهما الشعراء و كلاهما فى ناحية المدينة على أن هناك من يعين كل واحد منهما فى جهة أخرى بعيدة و الراجح أن الأسماء مشتركة و قد جاء فى رسالة الطيف للاربلى ذكر لحاجر فى الشعر لعل المقصود به حاجر المدينة:

أهلا و سهلا بك من مؤنسينظر عن طرف الطلا النافر

أهلا و سهلا بك من زائريخجل نور القمر الزاهر

إلى أن يقول:

و عيشة دلّت على حاجرجاد الحيا السكب ربا حاجر

و جاء ذكر (النقا) عند أبى عبادة البحترى من قصيدة يمدح بها أبا الصقر.

و لما التقينا و النقا موعد لناتعجب رائى الدّر منا و لا قطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامهاو من لؤلؤ عند الحديث تساقطه

هذا إذا كان المقصود بالنقا نقا المدينة

المنحنى

و المنحنى كما أورد السمهودى: اسم لما يقع شرقى وادى بطحان إلى مسجد المصلّى و قد ذكر السمهودى للاستدلال على موقع المنحنى بيتين للشيخ شمس الدين الذهبى هما:

تولّى شبابى كأن لم يكنو أقبل شيب علينا تولّى

و من عاين المنحنى و النقافما بعد هذين إلا المصلّى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۰۹

حطم الضحيان

و من أشهر حصون المدينة و مواقعها فى العصر الجاهلى هو حصن (الضحيان) و هو مشيّد بحجارة الحرّة السوداء يبلغ طوله نحو ۲۷ مترا و عرضه ۱۲ مترا و ارتفاعه نحو ثمانية أمتار على تحقيق الأنصارى، و لم يبق منه إلا خرائب و أطلال، يقع شمالى العصبة و هو أطم بناه أحيحة ابن الجلّاح فى أرضه التى يقال لها القبابة .

حصن كعب بن الأشرف النبهانى

و هو حصن قائم على هضبة من الحرّة الجنوبية الشرقية للمدينة على ما ذكر الأنصارى و تبلغ مساحته ۳۳ مترا فى ۳۳ مترا و لم يبق من ارتفاع أسواره اليوم إلا ما يساوى ۴ أمتار، و هو بناء حربى محصن و كونه الحصن الخاص بكعب بن الأشرف النبهانى هو من تحقيق الأنصارى.

سقيفة بنى ساعدة

سقيفة بنى ساعدة بناية اختلف المؤرخون فى موقعها، و يرى السمهودى أنها بالقرب من بئر بضاعة و هى شبه البهو الواسع الطويل السقف و كانت لبنى ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى من أيام الجاهلية، و قصة هذه السقيفة مشهورة فى التاريخ الإسلامى فقد جلس فيها النبى (ص) على ما روى ثم اجتمع فيها الأنصار من الاوس و الخزرج ليبايعوا سعد ابن عبادة رئيس الخزرج خليفة للنبى بعد وفاته و لكن الأمر تبدل لميل الأوس إلى جانب المهاجرين و تمت حينذاك بيعة أبى بكر بالخلافة فى السقيفة المذكورة و قتل سعد بن أبى عبادة و زعموا أن الجن هم الذين قتلوه!!

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۰

و كسبت السقيفة منذ ذلك اليوم شهرة لما جرى من اختلاف بسبب هذا الاجتماع و بسبب الخلافة.

ثنيّة الوداع

و من الأماكن المشهورة فى المدينة قديما: ثنيّة الوداع، و هى موقعان على ما حققه الأنصارى، موقع فى شمال المدينة فى اتجاه الشام، و موقع فى جنوب المدينة باتجاه مكة، و كان يجرى فى كل موقع توديع المسافرين المتجهين إلى الشام و المتجهين إلى مكة فسمى الموقعان باسم واحد، و فى سبب تسمية الموقع بثنيّة الوداع اختلاف كبير، و يقول ياقوت: إن الصحيح هو أنه اسم جاهلى قديم أطلق على هذا الموقع بناء على ما كان يجرى فيه من توديع المسافرين من المدينة.

و من ثنية جنوب المدينة استقبل النبى (ص) لأول مرة بنشيد الصبايا المشهور على ما يروون و هو:

طلع البدر علينامن ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا للّه داع

سوق المدينة و سوق بنى قينقاع

و سوق المدينة، و سوق بنى قينقاع هما الآخران من أشهر مواقع المدينة قديما، و كان يجرى فى هذين السوقين البيع و الشراء و عرض المحصولات، و فى الرواية: أن النبى (ص) لما أراد أن يجعل للمدينة سوقا اتى سوق بنى قينقاع، ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله و قال:

«هذا سوقكم فلا يضيق و لا يؤخذ فيه خراج».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۱

أهم مصادر البحث

۱- القرآن الكريم

۲- البيان فى تفسير القرآن للشيخ الطوسى

۳- تاريخ اليعقوبى

۴- مروج الذهب للمسعودى

۵- تاريخ الأمم و الملوك للطبرى

۶- الكامل فى التاريخ لابن الأثير

۷- آثار البلاد و أخبار العباد للقزوينى

۸- الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة لابن النجار

۹- أخبار مكة للأزرقى

۱۰- كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار

۱۱- مكة و المدينة فى الجاهلية و عهد الرسول

۱۲- تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان

۱۳- معجم البلدان للحموى

۱۴- دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى

۱۵- الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتانونى

۱۶- مرآة الحرمين

۱۷- فى منزل الوحى للدكتور هيكل

۱۸- فى بلاد الرافدين لليدى دراور

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۲

۱۹- رحلة ابن جبير

۲۰- رحلة ابن بطوطة

۲۱- جولات برخارت السويسرى

۲۲- بلوغ الارب للالوسى

۲۳- البداية و النهاية لعماد الدين أبى الفداء

۲۴- المدخل لابن الحاج

۲۵- خمسون و مائة صحابى مختلق للسيد العسكرى

۲۶- الطبقات الكبرى لابن سعد

۲۷- آثار المدينة المنورة للأنصارى

۲۸- محمد رسول اللّه لمحمد رضا

۲۹- لسان العرب

۳۰- تاج العروس

۳۱- أمالى القالى

۳۲- التنبيه على أمالى القالى

۳۳- القاموس للفيروزآبادى

۳۴- رسالة الطيف للأربلىّ تحقيق عبد اللّه الجبورى

۳۵- السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر

۳۶- التمور العراقية قديما و حديثا

۳۷- شجرة العذراء

۳۸- مجمع الأمثال للميدانى

۳۹- الدكتور جواد على

۴۰- جغرافية العالم الاقليمية (مؤسسة فرنكلين)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۳

المدينة المنورة فى الشعر

اشارة

جمعه و نسقه حسب الحروف الهجائية فؤاد عباس من خريجى الجامعة الأميركية ببيروت و المفتش الاختصاصى فى وزارة التربية العراقية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۵

أبو بكر العيدى أو العيذى

قال من قصيدة ابتدأ فيها بوصف مكة و البيت الحرام و مواقفها العظام و (يثرب) مدينة النبى عليه السلام، و يتشوّق أهلها و يذكر كرمها و فضلها.

و منها:

لى بالحجاز غرام لست أدفعهينقاد قلبى له طوعا و يتبعه

يهزّنى البرق (مكّيا) تبسّمهإذا تراءى (حجازيا) تطلّعه

و منها:

و فى ربى (يثرب) غايات كلّ هوىيجلّ عن موقع الأشواق موقعه

أفق الشريعة و الإسلام طالعةشموسه مستجاش النصر متبعه

حيث النبوّة مضروب سرادقهاو الفضل شامخ طود الفخر أفرعه

و حيث كان طريق الوحى متّضحابين السماء و بين الأرض مهيعه

و خاتم الأنبياء المصطفى شرفامحمد باهر الأشواق مضجعه

صلّى الا له عليه ما تكرّر بالصّلاة فرض مصلّ أو تطوّعه

و للشفاعة أبواب مفتّحةمشفّع من بمغناها تشفّعه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۶ محلّ قدس و تشريف يجرّ بهذيل الجمال على ذى المال يدفعه

يشبّ نيران أشواقى غليل هوىاليه ليس سوى مرآه ينقعه

و يستمدّ حنينى كلّ منحنامنه و عامره الزاكى و بلقعه

(عقيقه) و (قباه) و (البقيع) و مايحدّ (أحد) لمن فى اللّه مصرعه

مستنزل الفوز و الغفران مهبطهو ملتقى كل رضوان و مجمعه

أحبّه و أحبّ النازلين بهو ما تضمّ نواحيه و أربعه

طبعا جبلت عليه فى الغرام بهو أين من طبع من يهوى تطبّعه !

الأعشى (ميمون بن قيس بن جندل)

يروى أنّه مـدح الرسول (ص) بهـذه القصـيدة و تصدّت له قريش فى الطريق واقنعه رجالها بالرجوع الى أهله بعد أن جمعوا له مائة من الابل.

و لما رجع رمى به بعيره فى الطريق فقتله.

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداو بتّ كما بات السليم مسهّدا

إلا أيّهذا السائلى أين يمّمتفان لها فى أهل (يثرب) موعدا

و آليت لا أرثى لها من كلالةو لا من وجى حتى تلاقى (محمّدا)

متى ما تناخى عند باب (ابن هاشم)تراحى و تلقى من فواضله ندى

امرؤ القيس

تبصّر خليلى هل ترى من ضعائنسوالك نقبا بين حزمى شعبعب

علون بانطاكيّة فوق عقمةكجرمة نخل أو كجنّة (يثرب)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۷

البرجمىّ

فمن يك أمسى (بالمدينة) رحلهفانّى و قيّار بها لغريب

بعض الأفاضل

نظم أسماء (المدينة المنوّرة) بقوله:

خذ جملة يا صاح من أسماءمدينة الهادى من الأسواء

(محمد) نبينا المشرّفالهاشمى المصطفى البرّ الوفى

فطيبة، طيّبة، و طابهو طائب، تعرف بالاطابه

حبيبة، بيت الرسول، و الحرمو حرم الرسول، فاحفظ ما انتظم

و دار الايمان، و دار السّنّةو دار فتح، مع دار الهجرة

دار السلامة، و دار الأبرارو دار الأخيار، لنفى الأشرار

حسنة، مختارة، مرزوقةمؤمنة، مسكينة، محفوظة

مدخل صدق، قبّة الاسلامشافية من جملة الآلام

أكّالة القرى، مع المقدّسهو نورها بورك من قد قبسه

من نور أسماء (مكان المصطفى)نظم به أرجو موارد الصفا

جرير

لقد علم الحىّ المصبّح أننامتى ما يقل يا للفوارس نركب

إذا رمت فی حیّی خزیمة عزّناسما کلّ صرّیف السنانین مصعب

ألم تر قومی (بالمدینة) منهمو من ینزل (البطحاء) عند (المحصّب)

فوارسنا من صلب (قیس) کأنهمإذا بارزوا حربا أسنّة صلّب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۸

و قال یهجو التیم

قال الأمیر لعبد تیم بئسماأبلیت عند مواطن الأحساب

و لقد خرجت من (المدینة) آفلاخرع القناة مدنّس الأثواب

یا تیم إن بیوتکم تیمیّةقفد العماد قصیرة الأطناب

قوم إذا حضر الملوک و فودهمنتفت شواربهم علی الأبواب

جورج صیدح فی مولد النبی محمد (ص)

لا یعجز اللّه الذیإن قال کن للشیء کان

أمر الرمال فاطلعتصحراء یثرب أقحوان

للرسل آیات، و هذاالطفل آیته البیان

الروح یملی ما یترجمه، و نعم الترجمان

بالضاد آذن ربّهفتخلدت لغة الأذان

یا صاحبیّ: بأی آلاءالرسول تکذّبان

حسان بن ثابت

قال فی قتل عمرو بن عبدودّ بسیف علی (ع):

أمسی الفتی عمرو بن عبد یبتغیبجنوب (یثرب) غارة لم تنظر

و لقد وجدت سیوفنا مشهورةو لقد وجدت جیادنا لم تقصر

و لقد رأیت غداة بدر عصبةضربوک ضربا غیر ضرب الحسّر

أصبحت لا تدعی لیوم عظیمةیا عمرو أو لجسیم أمر منکر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۱۹

و قال حسان یرثی النبی (ص)

ما بال عینک لا تنام کأنماکحلت مآقیها بکحل الارمد

جزعا علی المهدی أصبح ثاویایا خیر من وطیء الثری لا تبعد

وجهی یقیک الترب لهفا لیتنیغیّبت قبلک فی (بقیع الغرقد)

بأبی و أمّی من شهدت وفاتهفی یوم الاثنین النبی المهتدی

فضللت بعد وفاته متبلّدامتلدّدا یا لیتنی لم أولد

أأقیم بعدک (بالمدینة) بینهمیا لیتنی صبّحت سمّ الأسود

السيد حيدر الحلّى

قال من قصيدة مهنّئا بها الحاج محمد صالح كتبه بقدوم ولديه محمد رضا و الحاج مصطفى من الحج.

ثم لما أكملا الحجّ معاودّعا (مكة) فيمن ودّعا

و إلى (يثرب) منها ازمعاقصد من ألبس فخرا (يثربا)

و حباها شرف الذكر و أمّا (كذا)و به فاق سناها الشهبا

فاشتهت تغدولها الشهب رغاماو نحا كل ضريح المصطفى

ناشقا طيب ثراه عرفاو به طاف و منه عطفا

نحو مغنى (المرتضى) مرتغبالسواه عنه لا يلوى الزماما

فقضى من حقّه ما وجباو أتى (الكرخ) فحيّا و أقاما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۰

سعيد بن العاص

كتب إلى عبد الأعلى بن عبد اللّه و محمد بن صفوان الجمحى يذكّرهما طيب (العقيق) و (العرصتين) فى أيام الربيع.

ألا قل لعبد اللّه إمّا لقيتهو قل لابن صفوان على القرب و البعد

ألم تعلما أن (المصلّى) مكانهو أن (العقيق) ذو الاراك و ذو المرد

و أن رياض (العرصتين) تزيّنتبنوّارها المصفّر و الاشكل الفرد

و أن بها لو تعلمان أصائلاو ليلا رقيقا مثل حاشية البرد

فهل منكما مستأنس فمسلّمعلى وطن أو زائر لذوى الودّ؟!

فأجابه عبد الأعلى:

أتانى كتاب من سعيد فشاقنىو زاد غرام القلب جهدا على جهد

و اذرى دموع العين حتى كأنهابها رمد عنه المراود لا تجدى

فان رياض (العرصتين) تزيّنتو أن (المصلّى) و (البلاط) على العهد

و أن غدير (اللابتين) و نبتهله أرج كالمسك أو عنبر الهند

شاعر

عين جودى على عبيل و هل يرجع ما فات فيضها بالسجام

عمّروا (يثربا) و ليس بها شفرو لا صارخ و لا ذو سنام

غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفّوا النخيل بالآجام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۱

شاعر مدنى

و (بالعرصة البيضاء) اذ زرت أهلهامها مهملات ما عليهن سائس

خرجن لحبّ اللهو من غير ريبةعفائف باغى اللهو منهنّ آيس

يردن إذا ما الشمس لم يخش حرّهاخلال بساتين خلاهنّ يابس

إذا الحرّ آذاهنّ لذن بحجرةكما لاذ بالظلّ الظباء الكوانس

الشريف الرضىّ

قال من قصيدة و هو فى مدينة الرسول (ص) و ذلك فى المحرّم سنة ۳۹۴ ه

و ما كنت أدرى الحب حين تعرّضتعيون ظباء (بالمدينة) عين

فو اللّه ما أدرى الغداة رميناعن النبع، أم عن أعين و جفون !

بكلّ حشا منا رميّة نابلقوىّ على الاحشاء غير أمين

فررت بطرفى من سهام لحاظهاو هل تتلقّى أسهم بعيون!!

فيا بانتى بطن (العقيق) سقيتمابماء الغوادى بعد ماء شؤون

أحبّكما و المستجنّ (بطيبة)محبة ذخر بات عند ضنين

*** و قال أيضا و هى من لواحق الحجازيّات

يا رفيقىّ قفا نضويكمابين أعلام (النقا) و (المنحنى)

و انشدا قلبى فقد ضيّعتهباختيارى بين (جمع) و (منى)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۲ عارضا السرب فان كان فتىبالعيون النجل يقضى فأنا

إنّ من شاط على الحاظهاضعف من شاط على طول القنا

تجرح الأعين فينا و الطلىقاتل اللّه الطلى و الأعينا

ثمّ كانت (بقباء) وقفةضمنت للشوق قلبا ضمنا

و حديث كان من لذته أحد) يصغى الينا أذنا

الشريف المرتضى

قال مفتخرا من قصيدة

هل ليالىّ بالمنقىّ رجوعمثلما كنّ لى و نحن جميع

إذ قناتى محتدّة و شفيعىمن شبابى إلى الحسان شفيع

ساحبا (بالبقيع) من نشواتىفضل ثوبى إذ البقيع بقيع

وطن طاب جوّه و ثراهفكأن المصيف فيه ربيع

عبد السلام بن يوسف

قال يتشوق العقيق و ساكنيه:

على ساكنى بطن (العقيق) سلامو إن أسهرونى بالفراق و ناموا

حظرتم علىّ النوم و هو محرّمو حلّلتم التعذيب و هو حرام

إذا بنتم عن (حاجز) و حجرتم‌على السمع أن يدنو إليه كلام

فلا ميّلت ريح الصبا فرع بانةو لا سجعت فوق الغصون حمام

و لا قهقهت فيه الرعود و لا بكى‌على حافتيه بالعشىّ غمام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۳ ألا ليت شعرى هل إلى الرمل عودةو هل لى بتلك البانتين لمام؟؟

و هل نهلة من (بئر عروة) عذبةأداوى بها قلبا براه أوام

عبد اللّه بن قيس (الرقيّات)

إن الحوادث (بالمدينة) قدأوجعننى و قرعن مروتيه

وجبينى جبّ السنام فلم‌يتركن ريشا فى مناكبيه

تبكيهم أسماء معولةو تقول ليلى: و ارزيّتيه

على بن حجر

هنيئا لكم يا زائرين ضريحه‌أمنتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم إلى قبر الحبيب (بطيبة)فطوبى لمن يضحى (بطيبة) أو يمسى

عمرو بن النعمان البياضىّ

يرثى قومه:

خلت الديار فسدت غير مسوّدو من العناء تفرّدى بالسودد

أين الذين عهدتهم فى غبطةبين (العقيق) إلى (بقيع الغرقد)

كانت لهم أنهاب كلّ قبيلةو سلاح كلّ مدرّب مستنجد

نفسى الفداء لفتية من عامرشربوا المنيّة فى مقام انكد

قوم هم سفكوا دماء سراتهم‌بعض ببعض فعل من لم يرشد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۴

الفرزدق

حين مدح الفرزدق الامام زين العابدين على بن الحسين (ع) بقصيدته:

(هذا الذى تعرف البطحاء و طأته) حبسه هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فى (عسفان) و هو موضع بين مكة و المدينة فهجا الفرزدق هشاما و كان هشاما أحول العين بقوله:

أيحبسى بين المدينة و التى‌اليها قلوب الناس يهوى منيبها

يقلّب رأسا لم يكن رأس سيّدو عينا له حولاء باد عيوبها

الكميت بن زيد الأسدى

قال فى إحدى هاشميّاته فى آل البيت النبوى (ع)

أسرة الصادق الحديث أبى القاسم فرع القدامس القدّام

خير حيّ و ميّت من بنى آدمطرّا مأمومهم و الامام

أبطحيّ بمكة استثقب اللّهضياء العمى به و الظلام

و إلى (يثرب) التحوّل عنهالمقام من غير دار مقام

هجرة حوّلت إلى الأوسو الخزرج أهل الفسيل و الآطام

و قال أيضا

و أنت أمين اللّه فى الناس كلّهمعلينا و فيها اختار شرق و مغرب

فبوركت مولودا و بوركت ناشئاو بوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

و بورك قبر أنت فيه و بوركتبه و له أهل لذلك (يثرب)

لقد غيّبوا برا و صدقا و نائلاعشيّة و اراك الصفيح المنصّب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۵

و منها:

إذا ما قضت من أهل (يثرب) موعدافمكة من أوطانها و المحصّب

و قال أيضا :

طربت و هل بك من مطربو لم تتصاب و لم تلعب

و شجو لنفسى لم أنسهبمعترك الطف فالمجتبى

كأن خدودهم الواضحاتبين المجرّ إلى المسحب

صفائح بيض جلتها القيونممّا تخيّرن فى (يثرب)

الشيخ محسن الخضرى

قال راثيا العلامة الكبير السيد مهدى القزوينى المتوفى فى الطريق عند قفوله من الحجاز.

ما حجّ إذ حجّ نحو البيت عن سعةأنّى و قد عال بالأنثى و بالرجل!

فرحّب البيت لمّا حلّ ساحقهأو ضاق رحبا بذاك العارض الهمل

حتى إذا ساقه الأدنى له رحماو آذنت جمرات الشوق فى شعل

جلى فآنس نور اللّه ملتمعامن أرض (طيبة) مثوى سيد الرسل

من (يثرب) جاءت البشرى بمقدمهلسهل (لينة) ممتدا إلى الجبل

فيا لها فرحة ما كان اطولهالو لم تطأها و شيطا فدحة الأجل

و قال من موشّح :

سل أهيل الود لما احتملوافى ظلام الليل عن وادى السلام

أترى هل أدركوا ما أملّوابحمى (طيبة) و (البيت الحرام)؟

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۶ أم تراهم بلغوا ما أملّوابالدعا بين المصلّى و المقام

شكر اللّه مساعيهم كماأخلصوا للّه ذلّ الموقف

شخّصا أبصارهم نحو السمابخشوع و دموع ذرّف

و قال :

أمحدثی عما رآه بمكّةو (بطيبة) و من الحجاز إلى الغرى

و سواك لو يقضى جميع زمانهبين المشاعر خلته لم يشعر

حتى كأنّك قد رأيت و لم يكنأحد سواك بمسمع و بمنظر

محمد ناجی القشطينی

من قصيدة (ما وراء الحجب)

أيها النشء ادركوا أوطانكمفهی حيری بيد المغتصب

فإذا بالسلم لم ترجع لكمفأعيدوها بحدّ القضب

و اغسلوا العار بسيل من دمفهو لم يغسل بماء السحب

و أعيدوا هيبة اللّه لهاو جلال المصطفى من (يثرب)

*** و قال من قصيدة عنوانها (ابو الزهراء)

الحق أبلج وضّاح إلى الأبدكالصبح يسطع لا يخفى على أحد

و ان ترد مثلا أعلى لتضربهللحق غير أبی الزهراء لم تجد

طوبى (ليثرب) فی طه و عترتهو لتبق (يثرب) طول الدهر فی رغد

ضمّت جلال رسول اللّه و اتّحدتبآية منه و البشری لمتحد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۷

مهيار الديلمی

سل فی الغضا- و صبا الاصائل تنفح:هل ريح (طيبة) فی الذی يستروح؟

و هل النوی- و قضاؤها متمرّدتركت برامة بانة تترنّح؟

أهل (القباب) و من بهم لمصفّدبالبعد أتلع بالعراق و أبطحوا

*** و كتب إلى الصاحب ابن عبد الرحيم من قصيدة:

أصبوا إلى (طيبة) من بابلما أقرب الشوق و ما أبعدا!!

يا فارس (الغيداء) يبغی (منی)بلّغ- بلغت الرشأ الاغيدا

يا حبذا الذكری و ان أسهرتبعدك و الدمع و إن أرمدا

و قال من قصيدة فی رثاء الشريف الرضی، معرّضا بمن كان يحسد الشريف الرضی و يزيد فی غيظهم

أقريش لا لفم أراك و لا يدفتواكلی غاض الندی و خلا الندی

خلّاك ذو الحسبين انقاضا متیتجذب على حبل المذلّة تنقد

و منها:

من راكب يسع الهموم فؤادهو تناط منه بقارح متعوّد

يطوی المياه على الظما و كأنهعنها يضلّ، و انّه للمهتدی

يغشی الوهاد بمثلها من مهبطو ربا الهضاب بمثلها من مصعد

قرّب قربت من التلاع فإنها(أم المناسك) مثلها لم يقصد

دأبا به حتى تريح (بيثرب)فتنيخه نقضا بباب المسجد

واحث التراب على شحوبك حاسراو انزل فعزّ (محمدا) (بمحمد)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۸

و قل:

انطوى حتى كأنك لم تلدمنه الهدى و كأنه لم يولد

نائلة بنت الفرافصة

قالت تخاطب أخاها ضبّة حين حملت إلى عثمان بن عفان من الكوفة.

أحقّا تراه اليوم يا (ضبّ) أننىمصاحبة نحو (المدينة) أركبا

لقد كان فى فتيان حصن بن ضمضملك الويل ما يجزى الخباء المحجّبا

قضى اللّه حقا أن تموتى غريبة(بيثرب) لا تلقين أمّا و لا أبا

هاشم الكعبى

قال من قصيدة فى رثاء الحسين (ع)

عج بى إذا جئت غربىّ الحمى و بدتمنه لمقلتك الأعلام و القبب

و حىّ عنى الألى اقمارهم طلعتمن (طيبة) ولدى (كرب البلا) غربوا

فاعجب لهم كيف حلّوا (كربلاء) و كم كانت بهم تفرج الغمّاء و الكرب!!

فأين تلك البدور التمّ لا غربواو أين تلك البحور الفعم لانضبوا!

و قال من قصيدة:

منى القلب أن تدنو (منى) و (المحصّب)و للركب قصد دون ذاك و مأرب

خليلىّ عوجا بى على الربع عوجةعسى يشتفى فيها السقيم المعذّب

تقولان قصد العيس (جمع) و (يثرب)صدقتم و هذا الربع جمع و يثرب

و لا تعجبا مما يحاول مدنففأمركما فى اللوم أدهى و أعجب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۲۹

هجرة الرسول الى المدينة المنورة

اشارة

كتبه

الدكتور حسين امين

استاذ التاريخ الاسلامى المساعد بجامعة بغداد

و الحائز على درجة دكتوراه الشرف الاولى من جامعة الاسكندرية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۱

هجرة الرسول الى المدينة

يعتبر موضوع الهجرة النبوية من أهم المواضيع التاريخية الإسلامية، ذلك لأن الإسلام بعد الهجرة انطلق انطلاقا واسعا و أضحى المسلمون أمام مسؤوليات جديدة، و راحوا يقيمون دعائم البناء الإسلامى بروح عالية مفعمة بالإيمان الصادق و مشبعة بالتعاون الكبير.

و لا بد للباحث حين يتقصى تلك الحادثة الخطيرة من تاريخ المسلمين أن يتعرف على بواعثها و مقدماتها و يقف على ما جابهه المسلمون من مخاطر و آلام.

و من المعروف أن المشركين فى مكة أنزلوا اضطهادا و عذابا بالمسلمين، و صمد المسلمون أمام ذلك الاضطهاد الكبير فقتل من قتل و لحق التعذيب بالكثيرين منهم، فرأى الرسول (ص) أن ينقذ المسلمين من ذلك الأذى و الاضطهاد، فأذن (ص) لأصحابه الكرام أن يهاجروا إلى الحبشة ۱.

و هنا يعترضنا سؤال، لماذا اختار الرسول (ص) الحبشة مكانا لهجرة أصحابه المسلمين؟ و الذى نرجحه هو أن الرسول (ص) اختار هذا المكان لأسباب سياسية أو دينية، فالرسول (ص) لم يؤيد الرأى القائل بالهجرة إلى اليمن مثلا، ذلك لأن اليمن كانت تحت النفوذ الفارسى، فالاستقرار السياسى لم يتوفر فيها كما أن هناك تأثيرات وثنية و مجوسية نتيجة النفوذ الفارسى هناك، كذلك يمكن تطبيق هذا القول على العراق،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۲

أما الشام فبالإضافة إلى القلق السياسى، فإن قريش لها علاقات تجارية مع بلاد الشام و بإمكانها إقلاق المسلمين و تأليب الحكام و المتنفذين عليهم هناك. فاختيار الحبشة كان أمرا منطقيا و سليما، فالبلاد هناك مستقرة سياسيا و نجاشى الحبشة من الذين عرفوا بالحكمة و الرزانة يومذاك و الحبشة و إن فصلها عن الحجاز بحر، فإنها قريبة إذا ما أراد المسلمون الانتقال إليها أو العودة منها، ثم إن ما يحمل المسلمون من مبادىء إنسانية سامية و احترام للدين المسيحى ما يطمئن الرسول (ص) على أصحابه فى بلاد الحبشة.

و هناك أسباب و عوامل حملت الرسول بالإذن لأصحابه الكرام فى الهجرة إلى الحبشة، و من تلك العوامل أن يتخلص المسلمون من الأذى الشديد المستمر الذى يلاقونه من الفئة المشركة، و أن يجد المسلمون رزقا لهم فى بلاد الحبشة بعد أن سدت أمامهم أبواب الكسب الحلال فى مكة، و قد يكون الرسول (ص) رأى من الضرورى إبعاد الجماعة الإسلامية من الجو المشحون بالحقد و العنف و الاضطهاد الحاصل فى مكة، بقصد تقوية الروح المعنوية لتلك الجماعة و حتى لا تشعر بالضعف و الخور من توالى شدة الضربات، أو أنه أراد أن تكون هذه الجماعة المهاجرة إلى الحبشة رصيدا يعتمد عليه فى المستقبل ۲.

و هاجر إلى الحبشة أحد عشر رجلا و أربع نساءوهم:

عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية و معه أمرأته رقية بنت رسول اللّه (ص)، و أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة و معه امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو، و الزبيرى العوام بن خويلد بن أسد، و مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، و عبد الرحمن بن عوف، و أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، و معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة. و عثمان بن مظعون، و عامر ابن ربيعة، و معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، و أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۳

و سهيل بن بيضاء و جعفر بن أبى طالب و معه امرأته أسماء بنت عميس.

و مكثوا هناك ثلاثة أشهر و تناقلت إليهم بعض الأخبار التى تشير إلى أن المشركين عدلوا عن إيذاء المسلمين، فعاد معظم هؤلاء المهاجرين إلى مكة، فلما بلغوها وجدوا قريشا ما زالت مستمرة فى صب أذاها على المسلمين بشكل أشد، فعاد المسلمون بهجرة ثانية

إلى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم و أطفالهم، و ظلوا هناك حتى استتب الأمر للمسلمين فى المدينة (يثرب) و فى السنة السابعة للهجرة عاد جميعهم على ظهر سفينتين ۳.

و الذين هاجروا إلى الحبشة فى هجرتهم الثانية من المسلمين هم:

جعفر بن أبى طالب و معه زوجته أسماء بنت عميس، و عثمان بن عفان و معه امرأته رقية ابنة رسول اللّه (ص)، و عمرو بن سعيد بن العاص ابن أمية و معه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية، و خالد بن سعد بن العاص بن أمية و معه امرأته أمينة بنت خلف بن أسعد بن عامر، و عبد اللّه بن جحش و أخوه عبيد اللّه بن جحش و معه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب بن أمية، و قيس بن عبد اللّه و معه امرأته بركة بنت يسار، و معيقب بن أبى فاطمة. و أبو خديعة ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، و أبو موسى الأشعرى و اسمه عبد اللّه ابن قيس. و عتبة بن غزوان ابن جابر، و الزبير بن العوام، و الأسود ابن نوفل بن خويلد بن أسد، و يزيد بن زمعه بن الأسود بن المطلب، و عمرو بن أمية بن الحارث، و طليب بن عمير، و مصعب بن عمير بن هاشم، و سويبط بن سعد بن حرملة، و جهم بن قيس بن عبد شرحبيل، و معه امرأته أم حرملة، و عمرو بن جهم بن قيس و خزيمة بن جهم بن قيس، و أبو الروم بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف، و عبد الرحمن بن عوف، و عامر ابن أبى وقاص، و أبو وقاص مالك بن أهيب، و المطلب بن أزهر بن عبد عوف، و معه امرأته رملة بنت أبى عوف. و عبد اللّه بن مسعود بن الحارث، و أخوه

عتبة بن مسعود، و المقداد بن عمرو بن ثعلبة، و الحارث بن خالد بن صخر بن عامر و معه امرأته ربطة بنت الحارث، و عمرو بن عثمان بن كعب، و أبو سلمة بن عبد الأسد و معه امرأته أم سلمة بنت أبى أمية، و شماس بن عثمان بن الشريد، و هبّار بن سفيان و هشام بن أبى حذيفة، و سلمة بن هشام بن المغيرة، و عيّاش بن أبى ربيعة، و معتّب بن عوف، و عثمان بن مظعون و ابنه السائب بن عثمان و أخواه قدامة بن مظعون و عبد اللّه بن مظعون، و حاطب بن الحارث، و معه امرأته فاطمة بنت المجلّل ابن عبد اللّه، و ابناه محمد بن حاطب و الحارث بن حاطب، و أخوه حطّاب بن الحارث، و معه امرأته فكيهة بنت يسار، و سفيان بن معمر ابن حبيب، و معه ابناه جابر بن سفيان و جنادة بن سفيان، و معه امرأته حسنة و هى أمهما، و أخوهما من أمهما شرحبيل بن حسنة. و عثمان ابن ربيعة، و خنيس بن حذافة بن قيس و عبد اللّه بن الحارث بن قيس، و هشام بن العاص، و قيس بن حذافة بن قيس، و أبو قيس بن الحارث ابن قيس، و عبد اللّه بن حذافة بن قيس، و الحارث بن الحارث بن قيس، و معمر بن الحارث بن قيس، و بشر بن الحارث بن قيس و أخ له من أمه من بنى تميم يقال له سعيد بن عمرو، و سعيد بن الحارث ابن قيس، و السائب بن الحارس، و عمير بن رئاب بن حذيفة، و محمية بن الجزاء.

و معمر بن عبد اللّه بن نضلة بن عبد العزى، و عروة بن عبد العزى، و عدى بن نضلة بن عبد العزى و ابنه النعمان بن عدى، و عامر بن ربيعة و معه امرأته، ليلى بنت أبى حثمة بن غانم. و أبو سبرة بن أبى رهم و معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، و عبد اللّه بن مخرمة، و عبد اللّه ابن سهيل بن عمرو، و سليط ابن عمرو بن عبد شمس، و أخوه السكران ابن عمرو و معه امرأته سودة بنت زمعه، و مالك بن زمعة و معه امرأته عمرة بنت السعدى بن وقدان، و حاطب بن عمرو، و سعد بن خولة، و أبو عبيدة بن الجراح، و سهيل بن بيضاء، و عمرو بن أبى سرح بن

ربيعة، و عياض بن زهير بن أبى شداد، و عمرو بن الحارث بن زهير بن أبى شداد، و عثمان بن عبد غنم بن زهير، و سعد بن عبد قيس بن لقيط، و الحارث ابن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية.

و حاولت قريش أن توغر صدر النجاشى ضد المسلمين المهاجرين، فأرسلت برجلين من زعمائها و معهما هدايا ثمينة، هما عمرو بن العاص و عبد اللّه بن أبى ربيعة، و قالا لملك الحبش: (أيها الملك أنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم و لم

يدخلوا فى دينك، و جاؤوا بدين ابتدعوه لا- نعرفه نحن و لا- أنت. و قد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من أبائهم و أعمامهم و عشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا و أعلم بما عابوا عليهم و عاتبوهم فيه ۴). و قدما للملك و لرجاله الهدايا، و لكن الملك الحبشى أبى أن يعيد المسلمين إلّا بعد أن يسمع كلامهم، فاستدعاهم، فجاؤوا لمقابلة الملك، فسألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا فى دينى و لا- دين أحد من هذه الملل؟ فأجاب الملك رجل من المسلمين الأولين و بطل من أبطالهم المشهورين، و كان لجوابه أثر كبير فى نفس النجاشى و أتباعه، و كانت كلمته صورة واضحة لحالة العرب قبل ظهور محمد (ص)، لقد وقف جعفر ابن أبى طالب و قال:-

«أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، و نأتى الفواحش و نقطع الأرحام و نسىء الجوار، و يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولا منّا نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه، فدعانا إلى اللّه لنوحّده، و نعبده و نخلع ما كنا نعبد نحن و أباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان، و أمرنا بصدق الحديث و أداء الأمانة وصلة الرحم و حسن الجوار و الكف عن المحارم و الدماء و نهانا عن الفحشاء و قول الزور و أكل مال اليتيم و قذف المحصنات، و أمرنا أن نعبد اللّه و لا نشرك به شيئا، و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۶

فصدقناه و آمنا به و اتبعناه على ما جاء به من اللّه، فعبدنا اللّه وحده لا نشرك به شيئا، و حرّمنا ما حرّم علينا و أحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا و فتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللّه، و أن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا و ظلمونا و ضيقوا علينا و حالوا بيننا و بين ديننا، خرجنا إلى بلدك و اخترناك على من سواك و رغبنا فى جوارك، و رجونا أن لا نظلم عندك ۵».

كانت لتلك الكلمات الحقة الرائعة أثرها الكبير فى يقظة الضمير و انقداح الفكر، و تأكد لملك الحبشة و رجاله صدق هؤلاء المؤمنين المسلمين و أن ما يحملون من مبادىء و أفكار لا تختلف عن مبادىء و أفكار السيد المسيح، فامتنع النجاشى من تلبية طلب القرشيين و رجع رسولا- قريش يجرّون أذيال الخيبة و الفشل، و انتصر الإسلام و المسلمون فى هذه الجولة، و اطمأن المؤمنون فى الحبشة ينعمون بالأمن و الحرية حتى عادوا إلى أوطانهم بمحض إرادتهم و برغبتهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

و استمر المشركون فى أذى المسلمين، و لاقى الرسول (ص) ما لاقى من صنوف العذاب و الاضطهاد، و قد ضرب الرسول العظيم و صحبه الكرام أمثلة عالية فى الثبات على المبدأ، و لما وجد المشركون هذا الصمود العظيم و الثبات الكبير، ساورهم شعور بخطورة الأمر و أن محمدا (ص) سوف يقوى جانبه يوما بعد يوم، فاتصلوا بعمه أبى طالب، و طلبوا منه التوسط لدى ابن أخيه، ليكف عن الدعوة إلى الإسلام، و عرض المشركون عليه عروضا مغرية، و لكن الرسول (ص) وقف بصلابة المؤمن، قائلا:- «و اللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى و القمر فى شمالى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره اللّه. أو أهلك دونه ۶».

و لما يئست قريش من إغراء محمد (ص) بالمال و السلطان، اتعبت أسلوبا جديدا، أعلنت فيه مقاطعة بنى هاشم مقاطعة كاملة، فلا يؤاكلونهم و لا يشاربونهم و لا يبايعونهم، و لا يناكحونهم، و لا يكلمونهم حتى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۷

ينبذوا محمدا و المسلمين، و لكى يؤكدوا على أنفسهم قداسة هذا العهد الذى اتخذوه على أنفسهم، وضعوا- الصحيفة- التى كتبوا فيها بنود القطيعة فى جوف الكعبة ۷، و قاسى المسلمون فى هذه الفترة أذى شديدا، و ضرب أبو طالب عم النبى الكريم (ص) اسمى مثل للوفاء كما كان موقف السيدة خديجة زوج النبى (ص) عظيما و جليلا، و فى هذه الفترة توفى أبو طالب و السيدة خديجة ۸، و بذلك يكون الرسول (ص) قد فقد أعظم نصيرين له، و كان لهذه الحادثة أثرها الكبير فى نفس الرسول (ص) فقد فقد عمه الحنون و من بذل له الحماية و العون و فقد زوجته الرؤوف و شريكة حياته الوفية، من بذلت له الإخلاص و الحب و الوفاء صافيا نقيا، و كانت و

الحق أحب نسائه و اولهن اسلاما و اشدهن ايمانا.

و هكذا استمر الاضطهاد الكبير و انصب العذاب الشديد على المسلمين الأولين الذين ثبتوا على معتقدهم ثبات المؤمنين الصامدين، عندئذ فكّر الرسول لدعوته فى مناخ آخر غير مناخ مكة و فى أناس آخرين غير أهل مكة من المشركين، فتوجه إلى الطائف ۹ يلتمس من قبيلة ثقيف النصرة و يرجو إسلامهم، و لكنهم جابهوه بعنف لم يكن يتوقعه، و بأذى شديد لم يكن يحسبه، فعاد إلى مكة، و من هنا بدأ الرسول (ص) يفكر فى عرض فكرته على القبائل، خاصة تلك التى تفد على مكة فى موسم الحج، فاتصل (ص) برهط من بنى كلب و برهط من بنى حنيفة و برهط من بنى عامر ۱۰، و لكنهم لم يتجاوبوا مع دعوة الرسول (ص) و لكن الرسول (ص) لم ييأس و استمر فى عرض نفسه على الوافدين إلى مكة من القبائل المختلفة.

اللقاءات الأولى مع أهل المدينة

و بدأت تباشير النجاح فى حدود سنة ۶۲۱ م، فقد قدم مكة، أبو الحيسر أنس بن رافع و معه فتية من بنى الأشهل فيهم إياس بن معاذ،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۸

يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ۱۱، فسمع بهم رسول اللّه (ص) فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم:- هل لكم فى خير مما جئتم له؟ فقالوا له:- و ما ذاك؟ قال: أنا رسول اللّه، بعثنى إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا اللّه و لا يشركوا به شيئا، و أنزل علىّ الكتاب.

و ذكر لهم (ص) الإسلام و تلا عليهم القرآن. فقال بن معاذ، و كان غلاما حدثا: أى قوم، هذا و اللّه خير مما جئتم له. بينما أخذ أبو الحيسر، أنس بن رافع، حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه اياس بن معاذ، و قال: دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا. فصمت اياس ابن معاذ، و قام الرسول (ص) عنهم و انصرفوا إلى المدينة ۱۲. و يبدو أن الإسلام قد دخل قلب اياس بن معاذ، و ذكر ابن هشام فى سيرته عن محمود بن لبيد قال: أخبرنى من حضره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل اللّه تعالى و يكبّره و يحمّده و يسبّحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلما، و أنه قد كان استشعر الاسلام فى ذلك اللقاء مع الرسول الكريم (ص) ۱۳.

و التقى الرسول (ص) بنفر من الخزرج، قال ابن اسحاق، حدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه. قالوا: لما لقيهم رسول اللّه (ص) قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال أمن موالى يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى اللّه عز و جل، و عرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فلما كلّم الرسول (ص) أولئك النفر، و دعاهم إلى اللّه، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلّموا و اللّه إنه للنّبى الذى توعّدكم به يهود فلا تسبقنّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه و قبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، و قالوا إنا قد تركنا قومنا، و لا قوم بينهم من العداوة و الشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم اللّه بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك و نعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۳۹

فإن يجمعهم اللّه عليه فلا رجل أعزّ منك، ثم انصرفوا عن رسول اللّه (ص) راجعين إلى بلادهم و قد آمنوا و صدقوا ۱۴.

كان هذا من الانتصارات الرائعة فى نشر الفكرة، و كان ذلك اللقاء فاتحة خير فى نجاح الدعوة و بث مبادئها السامية بين العرب من أهل يثرب و الحق ليعتبر ذلك اللقاء مفتاح الهجرة العظيمة و باكورة اللقاءات الطيبة ذات النتائج المفيدة للإسلام و للجماعة الإسلامية، فقد أصبح للمسلمين أعوان يؤمنون بالمبادىء الإسلامية فى يثرب ينشرون الفكرة بصدق و إخلاص و يعملون على ترسيخ المبادىء النبيلة فى نفوس أهليهم و أبناء عشيرتهم، و يعرّفون الناس بالدعوة الجديدة، منهم النواة الأولى و الوحدات الأساسية فى تلك المدينة التى ستشهد عما قريب أعظم حدث فى التاريخ الإسلامى، حادثة الهجرة النبوية و تأسيس الدولة الإسلامية فيها.

بيعة العقبة الأولى

بعد ذلك اللقاء المهم و بعد أن حلّ العام الجديد و جاء موعد الحج أتى الموسم اثنا عشر رجلا من أهل يثرب، فالتقوا بالرسول محمد (ص) بالعقبة، و هؤلاء الرجال هم:- أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد ابن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار و عوف و معاذ، ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك بن النجار، و رافع بن مالك ابن العجلان و ذكوان بن عبد قيس و عبادة بن الصامت ابن قيس بن أصرم، و أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم، و العباس ابن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان، و عقبة بن عامر بن نابى بن زيد ابن حرام، و قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد. و أبو الهيثم بن التّيهان، و عويم بن ساعدة ۱۵.

و بايع أولئك الرجال الرسول (ص) على أن لا يشرك أحدهم باللّه شيئا و لا يسرق و لا يزنى و لا يقتل أولاده و لا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه و رجليه و لا يعصيه فى معروف، فإن و فى ذلك فله الجنة، و ان غشى من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۰

ذلك شيئا فأمره إلى اللّه، إن شاء عذّب و إن شاء غفر، ۱۶ ... و لما انصرف القوم بعث رسول اللّه (ص) معهم الصحابى الجليل مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار بن قصى، و أمره أن يقرئهم القرآن و يعلمهم الإسلام، و يفقههم فى الدين، فكان يسمى المقرىء بالمدينة: مصعب و كان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس ۱۷.

و أخذت المبادىء الإسلامية فى الانتشار بيثرب و اعتنق الكثير من الاوس و الخزرج الدين الإسلامى، و قد أسلم سعد بن معاذ و أسيد بن حضير، و كان لإسلامهما أثر كبير فى نشر الدعوة الجديدة، و قصة إسلامهما من طرائف تاريخ الدعوة الإسلامية. قال ابن اسحاق:

و حدثنى عبيد اللّه بن المغيرة بن معيقب و عبد اللّه بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد دار بنى عبد الأشهل، و دار بنى ظفر، و كان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر ۱۸.

قال ابن هشام: و اسم ظفر، كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الاوس قالا: على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا فى الحائط، و اجتمع إليها رجال ممن أسلم، و سعد بن معاذ و أسيد بن حضير، يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، و كلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا، ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما و انههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لو لا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتى، و لا أجد عليه مقدّما، قال:- فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل اليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك، فاصدق اللّه فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما و قال: ما جاء بكما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۱

إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، و إن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته و جلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، و قرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: و اللّه لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه و تسهّله، ثم قال:

ما أحسن هذا الكلام و أجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطّهر و تطّهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى. فقام فاغتسل و طهّر ثوبيه و تشهّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، و سأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته و انصرف إلى سعد و قومه و هم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف باللّه لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو اللّه ما رأيت بهما بأسا، و قد نهيتهما، فقالا: نفعل ما احببت، و قد حدّثت أن

بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زرارة ليقتلوه، و ذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك . فقام سعد بن معاذ مغضبا مبادرا، تخوّفا للذى ذكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال و اللّه ما أراك اغنيت شيئا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما، ثم قال لأسيد بن زرارة:- يا أبا أمامة، أما و اللّه لو لا ما بينى و بينك من القرابة، ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟ و قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك و اللّه سيّد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۲

فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا و رغبت فيه قبلته، و إن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة و جلس، فعرض عليه الإسلام، و قرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا و اللّه فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه و تسهّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم و دخلتم فى هذا الدين، قالا: تغتسل فتطّهر و تطهّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل و طهّر ثوبيه و تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدا إلى نادى قومه و معه أسيد بن حضير ۱۹.

و لما رآه قومه مقبلا، قالوا: نحلف باللّه لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا و أفضلنا رأيا و أيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم و نسائكم علىّ حرام، حتى تؤمنوا باللّه و برسوله ۲۰. فدخل جميع من فى دار بنى عبد الأشهل من رجال و نساء فى الإسلام، و رجع أسعد و مصعب بن عمير إلى دار أسعد بن زرارة، و أقام عنده يدعو إلى الدين الجديد و انتشر الإسلام بشكل كبير و اعتنقته معظم الاوس و الخزرج.

بيعة العقبة الثانية

كانت بيعة العقبة الأولى فى حدود سنة ۶۲۱ م ۲۱، و فى الموسم الأخير، خرج من الأنصار ثلاثة و سبعون رجلا و امرأتان، و التقوا بالرسول (ص) بالعقبة، و بايع أولئك القادمون من يثرب الرسول (ص) بيعة عرفت فى التاريخ الإسلامى ببيعة العقبة الثانية ۲۲، و قد أبانت بنود البيعة ما تحلى أولئك الرجال من صدق فى العزيمة و رغبة فى تقبل المبادىء الجديدة و اندفاع فى حماية الأهداف النبيلة و الذود عن الرسول الكريم (ص)، و يتجلى ذلك بوضوح فى كلمة الصحابى الجليل البراء بن معرور الذى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۳

كان فى مقدمة أهل يثرب فى بيعتهم الرسول عند العقبة، قال البراء يخاطب الرسول محمدا فى ايمان كبير و صدق عظيم: و الذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول اللّه، فنحن و اللّه أهل الحرب و أهل الحلقه ورثناها كابرا عن كابر ۲۳.

و مدّ القوم أيديهم، و بسط الرسول (ص) يده فبايعوه على أن يحموه كما يحمون أهلهم و على أن يحاربوا الأسود و الأحمر فى سبيله، فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبى (ص) أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء. فاختار القوم تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس، فقال الرسول (ص) لهؤلاء النقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم و أنا كفيل على قومى ۲۴.

أثر العلاقات بين المسلمين و أهل يثرب فى مكة

و انتشر خبر هذه البيعة الكبيرة فى مكة بشكل سريع و حسبت مكة لها حسابا كبيرا وراعها أمر تلك العلاقة المتطورة بين الرسول (ص) و أهل يثرب و تحققت من خطورة الأمر و العاقبة الفادحة، فأخذت فى تدبير المؤامرات للتخلص من شخص محمد (ص) و عملت على تشديد الرقابة و العذاب بالمسلمين، و أخذ بعض المسلمين فى الهجرة إلى يثرب خلاصا بدينه و ابتعادا عن ذلك الأذى و

الاضطهاد، و ضرب المسلمون أسمى درجات التضحية، فتركوا أهليهم و أراضيهم و مواطن ذكرياتهم إلى بلد آخر فى سبيل الدعوة الإسلامية و ثباتا على العقيدة السامية.

و تفاقم الأمر حدة و صارت قريش تضيق الخناق و تكيل للمسلمين الأذى، و اجتمع زعماؤها فى دار الندوة يتشاورون على ضرورة التخلص من محمد بن عبد اللّه (ص) بأى ثمن و بأية وسيلة، و أخيرا قرروا أن يختاروا من كل قبيلة شابا جلدا و يحملون سيوفهم و يضربون محمدا ضربة رجل واحد فى ليلة معينة و فى وقت محدد، و لكن اللّه عز و جل، نصر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۴

نبيه العظيم و أعز الإسلام بفشل المشركين و نجاة النبى الأمين ۲۵ فى تلك الليلة طلب النبى (ص) من ابن عمه الامام على (ع) أن ينام فى فراشه ليوهم قريشا أنه محمد، و طلب من صديقه أبى بكر (رض) أن يصحبه فى الخروج إلى يثرب، فخرج الرسول (ص) و أبو بكر (رض) و نام على بن أبى طالب (ع) فى فراش النبى و كانت تضحية عالية و كان فداء كبيرا ۲۶. موسوعة العتبات المقدسة ؛ ج۳ ؛ ص۱۴۴

يوم الهجرة

مضى رسول اللّه (ص) و لما يزل المتآمرون ينتظرون فى بابه، و قال قائل لهم ما تنتظرون؟ قالوا: محمدا. قال خبتم و خسرتم، قد و اللّه مرّ بكم و ذرّ على رؤوسكم التراب، قالوا و اللّه ما أبصرناه و قاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم و هم أبو جهل، و الحكم بن أبى العاص، و عقبة بن أبى معيط، و النضر بن الحارث، و أمية بن خلف، و ابن الغيطلة، و زمعة بن الأسود، و طعيمة بن عدى، و أبو لهب، و أبى بن خلف، و نبيه و منبه ابنا الحجاج، فلما أصبحوا قام على عن الفراش فسألوه عن رسول اللّه (ص) فقال: لا علم لى به، و صار رسول اللّه (ص) إلى منزل أبى بكر، فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو و أبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه. و كان الرسول و أبو بكر قد استأجرا عبد اللّه بن أريقط من بنى الديل بن بكر و كان مشركا يدلهما على الطريق، و لم يعلم بخروج رسول اللّه (ص) غير أبى بكر و على و آل أبى بكر و أمر أبو بكر ابنه عبد اللّه أن يتسمّع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا و أمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيهما بها ليلا و كانت أسماء بنت أبى أبى بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما فى الغار ثلاثا ۲۷.

و غار ثور، غار فى جبل ثور بأسفل مكة، و كان عبد اللّه بن أبى بكر إذا غدا من عندهما اتبع أثره بالغنم حتى يعفى أثره، فلما مضت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۵

الثلاث و سكن الناس أتاهما دليلهما ببعيريهما فأخذ رسول اللّه أحدهما بالثمن و ركبه، و قيل هى ناقته اشتراها أبو بكر من نعم بنى قشير بثمانمائة درهم و اشتراها منه رسول اللّه (ص) لتكون هجرته من مال نفسه، و بقيت الناقة إلى زمن أبى بكر، فماتت و هى مرسلة ترعى فى البقيع.

و ركب الرسول، و ركب أبو بكر، و سارا و أردف أبو بكر مولاه عامر ابن فهيرة يخدمهما فى الطريق فساروا ليلتهم و من الغد إلى الظهر، و رأوا فى الطريق صخرة طويلة فسوى أبو بكر عندها مكانا ليقيل فيه الرسول (ص) و ليستظل بظلها، فنام رسول اللّه (ص) و حرسه أبو بكر حتى رحلوا بعد ما زالت الشمس ۲۸.

إن قريش قام قائمها فى مكة و أرسلت العيون إلى كل مكان يتتبعون الآثار و يتقصون الأخبار، و جعلت قريش لمن يأتى بالنبى (ص) مائة ناقة ۲۹، فدفع الطمع من المشركين فتتبع أثر الرسول، ذلك المشرك هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى، فلحقهم و هم فى أرض صلبة فقال أبو بكر: يا رسول اللّه، أدركنا الطلب فقال (ص): (لا تحزن إن اللّه معنا) و كبا جواد سراقة بن مالك بن جعشم كبوة عنيفة، و كان قد كبا قبلها كبوتين، فوقع من ظهر جواده يتدحرج فى سلاحه، و تطيّر سراقة و ألقى فى روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته، و أنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هو همّ مرة رابعة لإنفاذ محاولته. هنالك وقف و نادى القوم:

أنا سراقة ابن جعشم. أنظرونى أكلمكم، فو اللّه لا أريبكم و لا يأتيكم منّى شيء تكرهونه. فلما وقفا ينظر انه طلب إلى محمد (ص) أن يكتب له كتابا يكون آية بينه و بينه. و كتب أبو بكر بأمر النبى كتابا على عظم أو خزف القاه إلى سراقة، فأخذه و عاد أدراجه، و أخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده ۳۰.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۶

طريق الهجرة

يبدو أن الفصل الذى كانت فيه هجرة الرسول (ص) كان فصل الصيف، و أن الرسول و صاحبه قطعا بطون تهامة فى قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، فقد خرج بهما دليلهما عبد اللّه بن أريقط و سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، و عسفان على بعد ستة و ثلاثين ميلا من مكة و هى حدّ تهامة، ثم سلك بهما على أسفل أمبح و هى بلد من أعراض المدينة، قال الشاعر ۳۱:

و لست أنسى مسيرنا ظهراحين حللنا بالسفح من أمبح

ثم استجاز بهما، حتى عارض بهما الطريق، بعد أن أجاز قديدا و قديد هى من أعمال مكة، قال عبيد اللّه بن قيس الرقيات ۲۳:-

قل لقند تشيّع الأضعاناو بما سّرّ عيشنا و كفانا

صادرات عشية عن قديدواردات مع الضحى عسفانا

ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرّار، و الخرار موضع بالحجاز قرب الجحفة و قيل: أول واد من أودية المدينة، ثم سلك بهما ثنيّة المرة، و هو موضع ماء، ثم سلك بهما لفتا، و هى ثنيّة بين مكة و المدينة، قال معقل بن خويلد الهذلى ۳۳:

نزيعا محلبا من آل لفتلحىّ بين أثلة و النّحام

ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح ذكر الزبير بن بكار فى مجاح؛- ۳۴ من قول محمد بن عروة بن الزبير:

لعن اللّه بطن لقف مسيلاو مجاحا و ما أحب مجاحا

لقت ناقتى به و بلقفبلدا مجدبا و أرضا شحاحا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۷

ثم تبطن بهما مرجح من ذى العضوين، قال قيس بن مكشوح لعمرو ابن معد يكرب ۳۵:

و أعمامى فوارس يوم لحجو مرجح ان شكوت و يوم شام

ثم أجاز بهما إلى ذى كشر، و هو موقع بين مكة و المدينة، ثم أخذ بهما على الجداجد ثم على الأجرد ثم سلك بهما ذا سلم، و سلم واد مشهور فى الحجاز، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما القاحّة، و القاحة مدينة على بعد ثلاث مراحل من المدينة، ثم هبط بهما العرج و هى عقبة بين مكة و المدينة، ثم خرج بهما من العرج فسلك بهما ثنيّة العائر، و هو جبل بالمدينة، ثم هبط بهما بطن رئم، و هو واد لمزينة قرب المدينة، قال كثير ۳۶:

عرفت الدار قد أقوت برئمإلى لأى فمدفع ذى يدوم

ثم قدم بهما قباء، على بنى عمرو بن عوف، و هى قرية قرب المدينة على بعد ميلين منها على يسار القاصد إلى مكة، و فيها مسجد التقوى.

و كان أهل المدينة ينتظرون بفارغ الصبر قدوم النبى (ص)، قال عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة، حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول اللّه (ص) من مكة توكفنا قدومه (أى استشعرناه و انتظرناه)، كنا نخرج إذا صلينا الصبح، إلى ظاهر حرّتنا ننتظر رسول اللّه (ص)، فو اللّه ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلا

دخلنا، و ذلك فى أيام حارة.

حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول اللّه (ص)، جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظلّ دخلنا بيوتنا، و قدم رسول اللّه (ص) حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود، و قد رأى ما كنا نصنع، و أنّا ننتظر قدوم رسول اللّه (ص)، فصرخ بأعلى صوته: يا بنى قيلة (بنو قيلة هم الأنصار)، هذا جدّكم قد جاء.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۸

قال: فخرجنا إلى رسول اللّه (ص) و هو فى ظل نخلة، و معه أبو بكر (رضى) فى مثل سنّه، و أكثرنا لم يكن رأى رسول اللّه (ص) قبل ذلك، و ركبه الناس و ما يعرفونه من أبى بكر، حتى زال الظل عن رسول اللّه (ص)، فقام أبو بكر، فأظلّه بردائه، فعرفنا عند ذلك ۳۷.

الرسول فى قباء

أقام الرسول بقباء مدة خمسة أيام فقد وصلها يوم الاثنين لأثنى عشر من شهر ربيع الأول، و نزل رسول اللّه (ص) بقباء على كلثوم ابن هدم، أخى بنى عمرو بن عوف، و كان شيخا كبيرا، و هو أول من مات من الأنصار بعد قدوم الرسول (ص) ثم مات بعده أسعد بن زرارة بأيام و كان كلثوم يكنى أبا قيس ۳۸. و قيل أن الرسول نزل على سعد بن خيثمة، و يبدو أن الرسول (ص) كان إذا خرج من بيت كلثوم بن هدم جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة، و ذلك أنه كان عزبا لا أهل له، و كان يقال لبيت سعد بن خيثمة أنه بيت الأعزاب. و نزل أبو بكر (رضى) على خارجة بن زيد بن أبى زهير بن مالك الأنصارى، و قد شهد خارجة، العقبة و بدرا و قتل يوم أحد شهيدا و دفن هو و سعد بن الربيع فى قبر واحد و كان ابن عمه، و كان خارجة ابن زيد من كبار الصحابة، صهرا لأبى بكر (رضى) كانت ابنته تحت أبى بكر، و كان الرسول (ص) قد آخى بين أبى بكر (رضى) و بين خارجة بن زيد حين آخى بين المهاجرين و الأنصار ۳۹.

و من الجدير بالذكر أن الامام على بن أبى طالب (ع) بقى فى مكة ثلاث ليال و أيامها، حتى أدى عن الرسول (ص) الودائع التى كانت عنده للناس، و حين فرغ منها، لحق برسول اللّه (ص) فنزل معه على كلثوم بن هدم، و بقى الإمام على (ع) بقباء ليلة أو ليلتين، و من الطريف أنه كانت بقباء امرأة لا زوج لها، مسلمة. قال الإمام على (ع)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۴۹

فرأيت إنسانا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها فتخرج إليه، فيعطيها شيئا معه فتأخذه. قال: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة اللّه، من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كلّ ليلة، فتخرجين إليه، فيعطيك شيئا لا أدرى ما هو، و أنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت:

هذا سهل بن حنيف بن واهب، قد عرف أنى امرأة لا أحد لى، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءنى بها، فقال: احتطبى بهذا، فكان الإمام على (ع) يأثر (يحدّث به) ذلك من أمر سهيل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق ۴۰.

بناء مسجد قباء

و بدأ النبى (ص) مع الصحابة الكرام فى تشييد مسجد قباء و المعروف بمسجد التقوى ۴۱، قال ياقوت الحموى: لما قدم (ص) نزل بقباء على بنى عمرو بن عوف فأقام فيهم يوم الاثنين و يوم الثلاثاء و يوم الأربعاء و يوم الخميس و أسس مسجده ثم أخرجه اللّه من بين أظهرهم يوم الجمعة، و ذكر ابن خيثمة أن رسول اللّه (ص) حين أسسه كان هو أول من وضع حجرا بيده فى قبلته ثم أخذ الناس فى البنيان و هذا المسجد هو أول مسجد بنى فى الإسلام و فيه و فى أهله نزلت (فيه رجال يحبّون أن يتطهروا) ۴۲، و هو عن هذا المسجد الذى أسس على التقوى.

توجه الرسول إلى يثرب

خرج الرسول (ص) من قباء متوجها إلى يثرب ۴۳ و أدركت رسول اللّه (ص) الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فصلاها فى المسجد الذى ببطن الوادى، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ۴۴، قال ابن عباس: ولد النبى يوم الاثنين و استنبىء يوم الاثنين و رفع الحجر الأسود يوم الاثنين و هاجر يوم الاثنين و قبض يوم الاثنين ۴۵!!

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۰

كان دخول الرسول يثرب من الأيام المشهودة فى التاريخ و أصبح ذلك اليوم من أعز أيام المسلمين تمجيدا، و من شدة اعتزازهم بذلك اليوم الأغر أن جعلوا تاريخهم يبدأ من يوم هجرة نبيهم (ص)، و وقف الناس رجالا و نساء ينتظرون قدوم الرسول، بل خرجوا إلى مسافات بعيدة من ظاهر المدينة ينشدون النغم الجميل معلنين فرحتهم و مظهرين استبشارهم، و سارع كل فرد من أهل يثرب إلى استضافة الرسول (ص) و كلهم يود لو ظفر بهذا الشرف، و قد أتاه عتبان بن مالك، و عباس ابن عبادة بن نضلة، فى رجال من بنى سالم بن عوف، فقالوا: يا رسول اللّه. أقم عندنا فى العدد و العدّة و المنعة، قال: خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة، (يقصد ناقته) فخلّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى بياضة، تلقّاه زياد بن لبيد، و فروة بن عمرو، فى رجال من بنى بياضة، فقالوا: يا رسول اللّه: هلمّ إلينا، إلى العدد و العدة و المنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلّوا سبيلها. فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بنى ساعدة، اعترضه سعد بن عبادة، و المنذر بن عمرو، فى رجال من بنى ساعدة، فقالوا: يا رسول اللّه، هلم إلينا إلى العدد و العدة و المنعة، قال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلّوا سبيلها، فانطلقت، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج، اعترضه سعد ابن الربيع، و خارجة بن زيد، و عبد اللّه بن رواحة فى رجال من بنى الحارث ابن الخزرج، فقالوا: يا رسول اللّه، هلم إلينا، إلى العدد و العدة و المنعة، قال: خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلّوا سبيلها، فانطلقت، حتى إذا مرت بدار بنى عدّى بن النجار و هم أخواله، اعترضه سليط بن قيس و أبو سليط، أسيرة بن أبى خارجة فى رجال من بنى عدى ابن النجّار، فقالوا: يا رسول اللّه، هلم إلى أخوالك، إلى العدد و العدة و المنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلّوا سبيلها، فانطلقت ۴۶.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۱

و بركت الناقة على موضع لغلامين يتيمين من بنى النجار، و هما فى حجر معاذ بن عفراء، سهل و سهيل ابنى عمرو، فلما بركت، و رسول اللّه (ص) عليها لم ينزل، و ثبت فسارت غير بعيد، و رسول اللّه (ص) واضع لها زمامها لا- يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه، ثم تحلحلت و زمّت و وضعت جرانها- الجران ما يصيب الأرض من صدر الناقة و باطن حلقها-، فنزل عنها رسول اللّه (ص)، فاحتمل أبو أيوب خالد ابن زيد رحله، فوضعه فى بيته، و نزل عليه رسول اللّه (ص) و سأل عن الموضع لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول اللّه لسهل و سهيل ابنى عمرو، و هما يتيمان لى، و سأرضيهما منه، فاتخذه مسجدا ۴۷.

بناء المسجد النبوى

رأى الرسول أن يقيم مسجده على ذلك الموضع، و نزل (ص) على أبى أيوب حتى بنى مسجده و مساكنه، فعمل فيه رسول اللّه (ص) ليرّغب المسلمين فى العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون و الأنصار و دأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين ۴۸:

لئن قعدنا و النبى يعمل لذاك منّا العمل المضلّل

و ارتجز المسلمون و هم يبنون المسجد يقولون ۴۹:-

لا عيش إلّا عيش الآخرةاللهم ارحم الأنصار و المهاجرة

و ارتجز الإمام على بن أبى طالب (ع) و هو يساهم فى ذلك العمل الخالد ۵۰:

لا يستوى من يعمر المساجدايدأب فيه قائما و قاعدا

و من يرى عن الغبار حائدا قال ابن هشام: سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر، عن هذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۲

الرجز، فقالوا بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به، فلا يدرى أهو قائله أم غيره ۵۱.

و كان من الذين يعملون بجد و نشاط و أظهر همة عالية فى تلك الأيام، عمار بن ياسر، فقد ذكر أن عمّار بن ياسر دخل بناء المسجد و قد أثقلوه باللّبن، فقال: يا رسول اللّه، قتلونى، يحملون علىّ ما لا يحملون.

قالت أم سلمة زوج النبى (ص) فرأيت رسول اللّه (ص) ينفض و فرته بيده، و كان رجلا جعدا، و هو يقول: ويح ابن سميّة، ليسوا بالذين، يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية ۵۲.

و بعد أن كمل بناء المسجد و كملت ابنية مساكن الرسول (ص) انتقل (ص) من بيت أبى أيوب إلى مساكنه، و بناء المسجد النبوى فى المدينة يعتبر أول عمل باشره الرسول فى تلك المدينة الخالدة، و من الجدير بالذكر أن مسجد النبى كان بسيط البناء و أقيم فى نفس المربد الذى بركت فيه ناقته، ثم بنى لعائشة بيتا، يليه شارع المسجد، و جعل بابا فى المسجد تجاه باب عائشة يخرج منه إلى الصلاة، و أقام من حول المسجد منازل لأزواجه و كانت كلها فى الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الإمام فى وجه المنبر ۵۳، (و عن الإمام مالك (رضى) إن حجر أزواج النبى (ص) ۵۴ ليست من المسجد و لكن أبوابها شارعة فى المسجد) و كانت هذه المنازل تسعة بيوت باللبن و لها حجر من جريد مطرور بالطين ۵۵.

و من الطريف أن الغلامين أصحاب المربد، قالا للرسول (ص):

نهبه لك يا رسول اللّه، فأبى رسول اللّه (ص) حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير و قال معمر عن الزهرى، و أمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك.

و كان جدارا مجدّرا ليس عليه سقف و قبلته إلى بيت المقدس، و كان أسعد بن زرارة بناه فكان يصلى بأصحابه فيه، و يجتمع بهم فى الجمعة قبل مقدم رسول اللّه. فأمر رسول اللّه (ص) بالنخل الذى فى الحديقة، و بالغرقد الذى فيه، أن يقطع، و أمر باللبن فضرب. و كان بالمربد قبور جاهلية،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۳

فأمر رسول اللّه فنبشت، و أمر بالعظام أن تغيب، و كان بالمربد ماء مستنجل فسيره حتى ذهب ۵۶.

و أسسوا المسجد، و جعلوا الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللبن، و جعلت قبلته إلى بيت المقدس و جعل له ثلاثة أبواب، باب فى مؤخره، و باب يقال له باب الرحمة، و هو الباب الذى يدعى باب عاتكة، و الباب الثالث الذى يدخل فيه رسول اللّه، و هو الباب الذى يلى آل عثمان، و جعل طول الجدار بسطة و سقفه جديدا ۵۷.

و أغلب الظن أن المسجد و قتذاك كان يقتصر على رحبة واسعة تحيط بها جدران من جهاتها الأربعة، و أنه لم يكن له سقف أول الأمر، (لأن الناس شكوا إلى الرسول شدة الحر) ۵۸ فأقام لهم ظلة و جعل فى المسجد (سوارى من جذوع النخل، ثم طرحت عليها العوارض و الخصف و الادخر ۵۹ و يضيف العقيلى: (جعلت قبلته- أى جدار القبلة- من حجارة منضورة بعضها على بعض، و حيطان باللبن، و جعلت عمده من جذوع النخل) ۶۰.

و كانت طريقة البناء فى أول الأمر، أن الجدران بنيت بالسميط، لبنة على لبنة، أى الواحدة بجوار الواحدة، و الواحدة فوق الأخرى، ثم بالسعيدة، لبنة و نصف أخرى، أى اللبنة الواحدة متعارضة مع كل لبنتين ثم كثروا، فقالوا يا رسول اللّه لو زيد فيه، ففعل، فبنى بالذكر و الأنثى، و هى لبنتان مختلفتان ۶۱.

و نلاحظ أن هناك اختلافات فى مقدار مساحة المسجد، فذكر البعض إنه كان مائة فى مائة ذراع، و أنه كان مربعا، و قال البعض

الآخر أنه كان أقل من ذلك، و نرجح أن مساحة المسجد كانت ثلاثة و ستين ذراعا عرضا و سبعين ذراعا طولا، و قيل كانت بظلته ثلاثة اروقة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۴

أى ثلاثة اساكيب ۶۲. و كانت به ست أساطين ثلاثا إلى يمين المنبر و ثلاثا إلى يساره ۶۳).

و ظلت القبلة متجهة نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ثم حولت نحو الكعبة، و أقيمت ظلة ثانية عليها، و ظلت الظلة الأولى مكانا لأهل الصفة، و كان ما بين الظلتين رحبة واسعة ۶۴. و كان سقف المسجد واطئا، و ارتفاع جدرانه سبعة أذرع، أى ثلاثة أمتار و نصف، و قيل فى ذلك (بنى الرسول فى مسجده عريشا كعريش موسى، سبعة أذرع، تمامات و خشبات و ظلة) ۶۵.

و بعد فترة ليست بالطويلة ضاق المسجد بالناس، فجدد سقفه، و زيد فيه، و قد اشترى الرسول (ص) بقعة من أنصارى زيدت فى المسجد ۶۶، و كانت هذه الزيادة فى شرقيه بمقدار عشرة أذرع، أو أسطوانة، و فى غربيه بمقدار عشرين ذراعا و فى شماليه بمقدار ثلاثين ذراعا، فأصبح ذرع المسجد قريبا من مربع، طول جدار القبلة فيه تسعون ذراعا و منه إلى جدار المؤخر مائة ذراع ۶۷. و قد أضيفت إلى المسجد النبوى زيادات و إضافات مختلفة فى عصور تاريخية متعددة سوف لا نتطرق إليها لأننا اقتصرنا فى موضوعنا هذا على عهد الرسول (ص) فقط.

أعمال الرسول فى يثرب

و منذ أن وصل الرسول (ص) مدينة يثرب، و هو دائب على العمل فيلمس الناس جميعا تغييرات و تطورات مختلفة، فقد أمر (ص) بإبدال اسم يثرب إلى اسم طيبة، و قد كره الرسول أن تسمى باسمها و سماها طيبة، و يثرب من التثريب و معناه الإفساد أو اللؤم، و هناك رأى أن يثرب كلمة مشتقة من كلمة اثريبس المصرية و سماها بطليموس و ستيفان البيزنطى (يثربا)، كما ظهر اسمها فى بعض النقوش القديمة (إثرب)،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۵

و يقال أن يثرب كانت ناحية من المدينة ثم أطلق على المدينة كلها من باب إطلاق البعض على الكل .

المؤاخاة

و ليزيد النبى من الترابط الاجتماعى بين المسلمين فى المدينة من أنصار و مهاجرين فقد عمل (ص) بمبدأ المؤاخاة بين الجماعة الإسلامية، و جعل كل مهاجر أخا لأنصارى، فجعل عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان أخوين، و أبا ذر الغفارى و المنذر بن عمرو أخوين، و ساعدة بن كعب بن الخزرج أخوين، و مصعب بن عمير و أبا أيوب خالد بن زيد أخوين و أبو بكر بن أبى قحافة و خارجة بن زهير أخوين، و عمر بن الخطاب و عتبان ابن مالك أخوين، و طلحة بن عبيد اللّه و كعب بن مالك أخوين.

و كان الرسول (ص) و على بن أبى طالب (ع) أخوين، و كان حمزة ابن عبد المطلب أسد اللّه و أسد رسول اللّه (ص) و زيد بن حارثة أخوين، و كان جعفر بن أبى طالب و معاذ بن جبل أخوين ۶۸.

ذكر ابن سعد فى طبقاته: أن الرسول آخى بين المهاجرين و الأنصار، آخى بينهم على الحق و المؤاساة يتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام، و كانوا تسعين رجلا، خمسة و أربعين من المهاجرين، و خمسة و أربعين من الأنصار، و يقال كانوا مائة، خمسين من المهاجرين و خمسين من الأنصار، و كان ذلك قبل معركة بدر، فلما كانت وقعة بدر و أنزل اللّه تعالى (و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب اللّه إن اللّه بكل شىء عليم) ۶۹ فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، و انقطعت المؤاخاة فى الميراث، و رجع كل إنسان الى نسبه و ورثه ذوو رحمه. و ذكر أن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۶

الرسول (ص) حالف بين المهاجرين و الأنصار فى دار أنس ۷۰.

و كتب الرسول (ص) دستور الجماعة الإسلامية، فقد عمل الرسول (ص) منذ أن وطئت قدمه المدينة على تكوين قوة سياسية تساعده و تساعد جماعته على الوقوف فى وجه أى معارضة سياسية و أدرك الرسول (ص) أن الفكرة الدينية التى يعمل جاهدا على تحقيق مبادئها هى بحاجة ماسة إلى تنظيم سياسى يخدم الأهداف و العقائد الدينية الإسلامية، و بما أوتى من الذكاء الحاد و القابليات المنطقية، و بلباقة السياسى المجرب نجح (ص) فى تحويل قوته السياسية التى أوجدها فى المدينة إلى اتجاه دينى بل إلى سلطة دينية، و الوثيقة التى بين أيدينا و التى نشرها (ص) بين المسلمين فى المدينة تعتبر الدستور المؤقت الذى رسمه الرسول (ص) للجماعة الإسلامية و الطوائف الأخرى التى تسكن المدينة، حتى يتم التشريع شيئا فشيئا، و هى لا- تخرج عن إطار الأهداف و المبادىء الإسلامية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۷

الوثيقة

و لأهمية الوثيقة بموضوع هجرة النبى لا بد لنا من الوقوف عندها بعض الشىء و تثبيت نصها التاريخى الفريد التالى:-

بسم اللّه الرحمن الرحيم.

«هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين و المسلمين من قريش و يثرب و من تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم و هم يفدون عانيهم بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف و القس بين المؤمنين، و بنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف و القسط

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۸

بين المؤمنين، و ان المؤمنين لا يتركون مفرحا- المفرح المثقل بالدين- بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

و أن لا- يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، و أن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، و أن أيديهم عليه جميعا، و لو كان ولد أحدهم، و لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، و لا ينصر كافرا على مؤمن، و أن ذمة اللّه واحدة، يجير عليهم أدناهم، و أن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس؛ و أنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر و الأسوة، غير مظلومين و لا- متناصرين عليهم؛ و أن سلم المؤمنين واحدة، لا- يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل اللّه، إلّا على سواء و عدل بينهم، و أن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، و أن المؤمنين يبيىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل اللّه، و أن المؤمنين المتقين على أحسن هدى و أقومه؛ و أنه لا يجير مشرك مالا لقريش و لا نفسا، و لا يحول دونه على مؤمن؛ و أنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيّنة، فإنه قود به إلّا أن يرضى وليّ المقتول، و أن المؤمنين عليه كافة، و لا يحل لهم إلّا قيام عليه.

و أنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، و آمن باللّه و اليوم الآخر، أن ينصر محدثا و لا يؤويه؛ و أنه من نصره أو آواه، فإن عليه

لعنة اللّه و غضبه يوم القيامة، و لا يؤخذ منه صرف و لا عدل. و أنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مردّه إلى اللّه عز و جلّ، و إلى محمد (ص).

و أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، و أن يهود بنى عوف مع المؤمنين، لليهود دينهم و للمسلمين دينهم، مواليهم و أنفسهم، إلّا من ظلم و أثم، فإنه لا يوتغ إلّا نفسه، و أهل بيته. و أن ليهود بنى النجّار مثل ما ليهود بنى عوف، و أن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف- و ذكر يهود بنى ساعدة و يهود بنى جشم و يهود بنى الأوس و يهود بنى ثعلبة- أن لهم ما ليهود بنى عوف، إلّا من ظلم و أثم، فإنه لا يوتغ إلّا نفسه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۵۹

و أهل بيته. و أن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، و أن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، و أن البر دون الإثم، و أن موالى ثعلبة كأنفسهم، و أن بطانة يهود كأنفسهم، و أنه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد (ص)، و أنه لا ينحجز على ثار جرح، و أنه من فتك فبنفسه فتك، و أهل بيته، إلّا من ظلم، و أن اللّه على أبرّ هذا، و إن على اليهود نفقتهم و على المسلمين نفقتهم، و أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، و أن بينهم النصح و النصيحة، و البرّ دون الإثم؛ و أنه لم يأثم امرؤ بحليفه، و أن النصر للمظلوم، و أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، و أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

و إن الجار كالنفس غير مضار و لا آثم، و أنه لا تجار حرمة إلّا بإذن أهلها، و أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى اللّه عز و جل، و إلى محمد (ص)، و أن اللّه على أتقى ما فى هذه الصحيفة و أبرّه، و إنه لا تجار قريش و لا من نصرها، و أن بينهم النصر على من دهم يثرب، و إذا دعوا إلى صلح يصالحونه و يلبسونه، فإنهم يصالحونه و يلبسونه، و أنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلّا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، و أن يهود الأوس مواليهم و أنفسهم، على ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، و أن البر دون الاثم، لا يكسب كاسب إلّا على نفسه، و أن اللّه على أصدق ما فى هذه الصحيفة و أبره.

و أنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. و أن من خرج آمن و من قعد آمن بالمدينة إلّا من ظلم و أثم، و أن اللّه جار لمن برّ و أتقى» ۷۱.

*** و بعد أن عرضنا نص الوثيقة أو الصحيفة، بإمكاننا تفحص بعض نصوصها و التعليق عليها، فقد أوضحت الوثيقة فى سطورها الأولى عن تكوين الأمة الإسلامية بقوله (ص): انهم أمة واحدة من دون الناس، و لم يقصر الرسول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۰

(ص) هذه الأمة على النفر الذى كان سباقا إلى الإسلام، بل جعلها عامة من أسلم و آمن و لو بعد حين، شريطة أن يكون مجاهدا ينفر فى سبيل اللّه و إعلاء كلمة الإسلام و الدفاع عن مبادئه؛ و نلاحظ أن التنظيم الإسلامى يختلف عن التنظيم القبلى من حيث أنه قائم على أساس العقيدة لا على أساس الدم، فهو لذلك يستند على مبادىء روحية أخلاقية، و تمتزج فيه السياسة بالأخلاق، و من الجدير بالذكر أن هذه الجماعة غير ثابتة أو محدودة بل هى قابلة للتوسع أو التقلص حسب من ينضم إليها من الناس، على أن كافة من فيها متساوون فى الحقوق و الواجبات.

و اعترف الرسول (ص) بالوحدات القبلية القائمة حينذاك، و أقر لها التماسك و حق الجوار و الدية المشتركة و بعض الواجبات المالية.

و اعتبر (ص) المهاجرين وحدة قائمة بذاتها و كذلك الأوس و التبيت، و القبائل التى هى من مجموعة الخزرج، بنو عوف و بنو ساعدة و بنو الحارث و بنو جشم و بنو النجار و بنو عمرو بن عوف، و يبدو أن قبائل الخزرج أكثر تأييدا للإسلام من الأوس فى الأيام الأولى من دخول الرسول (ص) إلى مدينة يثرب.

و أشارت الوثيقة إلى وحدة الأمة، فإن للسلم سلم الأمة الواحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال، فهنا إشارة إلى الوحدة فى كل شىء فى السلم و الحرب، و أن مسألة السلم و الحرب مركزية يشترك فيها الجميع، و لا يمكن أن يحارب بعض المتعاهدين و يمتنع الآخرون و تكون الخدمة العسكرية إلزامية و يشترك فيها الجميع، تغزو جنود و تستريح أخرى تعاقبا و لا تستقل به طائفة دون أخرى، «و أن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا»، و يجب على المسلمين أن يكون بعضهم أولياء بعض يتعاونون فى الحروب و يتشاطرون السراء و الضراء، و أن المؤمنين يبيىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل اللّه. و كل فرد صغيرا كان أم كبيرا أن يجير و يؤدى كما كان عليه من قبل و يسعى بذمتهم ادناهم و يحترم وعده و تتقيد به الأمة كلها، إن ذمة اللّه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۱

واحدة يجير عليهم أدناهم و أن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

و تتجلى فى هذا النص روح الأخوة و المساواة التى تسود الكتلة الإسلامية الجديدة، فلا فرق بين كبير و صغير، أو غنى و فقير، بل الجميع أخوة ينظمهم دين واحد، و لكل فرد أن يجير و يحمى، و لا ريب أن هذا تقليد كانت تطبقه القبائل العربية من قبل، و يتجلى فيه مدى احترام الفردية، و إقرار المجتمع لما تقرره، و من شأن هذا النص أن يشجع الكثير من الناس على الانضمام للإسلام، فيتاح للمسلم أن يحمى أنصاره و مؤيديه الذين قد يطلبون ذلك و هذا قد يجلبهم إليه. على أن هذه الإجارة لا تشمل كفار قريش «لا يجير مشرك مالا لقريش و لا نفسا، و لا يحول دونه على مؤمن». و لا تقتصر هذه الاحكام على المسلمين و أتباعهم، بل تمتد إلى اليهود أيضا فقد نص أنهم يشتركون فى صد الهجمات الموجهة إلى المدينة «و أن بينهم النصر على من دهم يثرب» و بذلك حتم عليهم الإشتراك فى الحروب الدفاعية تجاه المدينة، و هناك مادة أخرى تنص أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، و أن بينهم النصح و النصيحة و البرّ دون الإثم، و يبدو من النص أن الوثيقة تلزم اليهود بواجب الدفاع عن المدينة و لا تدعوهم إلى المشاركة مع المسلمين فى حروبهم الهجومية، و هذا ما أيدته الحوادث التاريخية فلم يخرج اليهود للحرب و لم يلزموا بمعاونة المسلمين فى بدر، أو أحد، أو الخندق، و لكنهم كانوا مطالبين بواجب الدفاع عن المدينة- يثرب- ضد أى هجوم يقع عليها.

و جاء فى الوثيقة أن الرسول (ص) منع اليهود الخروج من المدينة بغير إذنه و نرجح أن هذا كان من مستلزمات توفير الأمن و الإحاطة بكل النشاطات اليهودية، و يبدو أن الرسول (ص) كان يتوجس منهم خيفة و يتوقع غدرا كما أنه كان يتشكك فى إخلاصهم، فحرّم عليهم الخروج من المدينة بغير إذنه كى يراقب حركاتهم و يقف على أسرارهم، و كان (ص) لا يمانع فى خروج أى يهودى لغرض التجارة أو أى عمل آخر شريطة أن يوضح للنبى (ص)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۲

و جهته و غرضه و كم يكفيه من الوقت أى متى يتوقع عودته إلى يثرب و من يصطحب، و بعد أن يعود ذلك الشخص عليه إخبار الرسول (ص) بذلك كما كان الرسول (ص) لا ينفك يتطلع إلى أخبار اليهود و الوقوف على أسرارهم و أهدافهم عن طريق عيون رقيبة كانت تعمل بإخلاص و حذر خدمة للإسلام و حفاظا على المبادىء النبيلة.

و قد نظمت الوثيقة الإلتزامات المالية الناجمة من الحروب التى قد يشترك فيها الفريقان، «ان اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين» فإذا ضم الجيش معسكرين، معسكر للمسلمين و آخر لليهود، كان على كل معسكر أن يتكفل بنفقاته، فيبتاع الأسلحة و يطعم الجند من ماله الخاص، «و أن على اليهود نفقتهم و على المسلمين نفقتهم» و بذلك لا يظن اليهود بأن نفقتهم واجبة على المسلمين إذا ما اضطروا لقتال عدوهم، أو يظن المسلمون بأن نفقتهم واجبة على اليهود بما خرجوا معهم لقتال عدوهم، و فى ذلك يقول أبو عبيد: فهذه النفقة فى الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه، و إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذى شرط عليهم من النفقة. و لو لا هذا لم يكن لهم فى غنائم المسلمين سهم، و إنما كان هذا الكتاب قبل أن يظهر الإسلام و يقوى، و قبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب ۷۲.

و قد أعتبرت مدينة يثرب حرما لأهل هذه الصحيفة. «و أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة» و معنى هذا التقرير بالسلم داخل يثرب و منع الحرب فى داخلها، و هذا النص يعطينا فكرة عن أحد أسباب نشوء الحرم، على أن مثل هذا الحرم قائم لأسباب سياسية، و لم تحدد حدود الحرم بالضبط و هو محدود التنفيذ على أهل الصحيفة، و هم أهل المدينة فحسب، فلا يشمل غيرهم من الناس، و الواقع أن المسلمين كانوا حتى آنذاك محدودين بهذه المنطقة، فمنطقتهم أصبحت حرما، لا يجوز لهم الإعتداء على أحد فيها، و هكذا أبطلت الحروب الداخلية رسميا، و لكن لم يبين ما حكم أهل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۳

الصحيفة؟ و ما هو حكمهم إذا لم يعترفوا بهذا الحرم، و أنهم إذا أرادوا غزو المدينة فلهؤلاء أن يدافعوا عن أنفسهم، و لم تعين النصوص حدود هذا الحرم و لا نطاقه.

و نلاحظ فى الوثيقة بنودا متعددة تخص العدالة، و تنظيم القضاء، و إدارته، حتى يمكن اعتبار تنظيم العدالة إحدى الغايتين الرئيسيتين اللتين استهدفتهما الوثيقة، و قد ركزت السلطة القضائية بيد النبى، سواء فى الخلافات بين المسلمين، أو اليهود، «و أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى اللّه و إلى محمد رسول اللّه». ففى هذه المادة أوجد السلطة القضائية مركزية تكون مرجع الجميع، و هى نقطة مهمة كانت تفتقر إليها المدينة، و كان من المتوقع أن يكون لها تأثير فى استتباب الأمن و النظام. هذا و نلاحظ أن الوثيقة لم تنص أن لهذه السلطة القضائية قوة تنفيذية تلزم الناس على طاعة قراراتها، و لكن مما لا شك فيه أن المسلمين كانوا جميعا يخضعون لقرارات النبى و ينفذونها تلقائيا، و أن مخالفة الرسول تعنى مخالفة النصوص القرآنية، قال تعالى: «وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ».*

و مما لا شك فيه أن الرسول محمدا (ص) أعطى لليهود حق ممارسة قوانينهم الشخصية، أما فى أمور الحرب و السلم فقد كان القضاء بيد الرسول (ص) و هو يحكم به. و أعطى لليهود حرية دينية تشملهم و تشمل مواليهم، و حصر مسؤولية الاجرام فيمن قام بالحرم و فى أهل بيته و لا تمتد إلى عشيرته، «و ان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم و للمسلمين دينهم، مواليهم و أنفسهم إلّا من ظلم و أثم فإنه لا يوتغ إلّا نفسه و أهل بيته» و كرر ذلك ليهود بنى النجار و ليهود بنى الحارث و ليهود بنى ساعدة و ليهود بنى جشم و ليهود بنى الأوس و ليهود بنى ثعلبة، بأن لهم ما ليهود بنى عوف، إلّا من ظلم و أثم فإنه لا يوتغ إلّا نفسه و أهل بيته. و يقصد الرسول (ص) بالظلم، ما قد يقوم به اليهود من محاولات لايجاد الفتن و صد الناس عن الدخول فى الإسلام، و غير ذلك من الأمور التى تسبب صدعا لصفوف المسلمين و ضررا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۴

فى تقدم الدعوة الإسلامية، و قوله (ص) للظالم منهم إن ظلمه لن يكون إلّا ظلما لنفسه، إنما هو تهديد لهم، و إظهار لقوة المسلمين و شدة بأسهم، و تحذير لهم مما قد تسوّله لهم أنفسهم أو تزينه لهم شياطينهم، و من الجدير بالذكر أن الرسول (ص) كرر هذا المعنى فى الوثيقة أكثر من مرة، و كأنه كان يحس أن لن يتم بين اليهود و المسلمين وفاق، و أن اليهود سينزعون إلى العداوة و الشقاق و الدس و الكيد و النفاق، و أنهم سينقضون العهد و الميثاق، فأراد أن يلتمس العذر أمام اللّه و الناس و الضمير إن هو نكل بهم بعد ظلمهم و خروجهم على العهد الذى بينه و بينهم فقد أنذرهم كثيرا و قد أعذر من أنذر، و لا شك أن هذا الإنذار و التهديد إنما أراد به الرسول (ص) أن تستقر الحال فى المدينة فلا يكون هناك نزاع داخلى بين المسلمين و اليهود، و هو الأمر الذى تستغله قريش و يؤدى إلى عرقلة جهود النبى (ص) فى نشر الفكرة الإسلامية خارج مدينة يثرب، و لم يلبث الرسول. أن أعقب الترهيب ترغيبا و الشدة لينا، فأمر أن لا يقوم المسلمون ضد اليهود إلّا إذا عادوا الإسلام.

لقد أقرت الوثيقة مبدأ المساواة بين المسلمين أمام العدالة فالأحكام تسرى عليهم جميعا، لا تمييز بين أحد، و هم يد واحدة على كل من بغى أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المسلمين المؤمنين، و يجتهدون فى عقابه، و لا يجوز لأحد أن يوالى

المجرم، أو يدافع عنه أو يسعى فى تخليصه، و لو كان المجرم ولده، و من ارتكب جريمة قتل عمد، فعليه القصاص و القتل، و لكن يجوز لولى المقتول أن لا يصرّ على القصاص و يطلب الفصل أى قبول الدية (التعويض)، و على المؤمنين أن يؤيدوه ضد القاتل «من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، و أن المؤمنين عليه كافة و لا يحل لهم إلا قيام عليه»، على أنه لا يجوز قتل المؤمن فى كافر «و لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر».

و يتبين لنا من هذه النصوص التأكيد الزائد على الروح الإجتماعية و على وجوب اشتراك المسلمين جميعا و مساهمتهم فى صيانة الأمن و معاقبة العتدى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۵

و عدم حمايته، و هكذا تنبع السلطة التنفيذية من مجتمع المؤمنين وحدهم و لا يساهم بها غيرهم، فهم كتلة واحدة و السلطة التنفيذية منهم و ليست مفروضة عليهم، و يلاحظ أن هذه النصوص الجنائية أقرب إلى روح المفاهيم البدوية التى كانت سائدة و هى محدودة جدا، و ليست هناك نصوص تتعلق بالقوانين المدنية و التجارية، و لعل هذا يرجع إلى أن النص اهتم فى الوثيقة بالأمور التى تخص الصالح العام و بها ترتبط الأمور الجنائية، أما الأحوال الشخصية فكانت أقل أهمية فى ذلك الدور.

و قد أكدت الوثيقة أن المسلمين كتلة واحدة تتعاون فى تنفيذ البنود المتعلقة بالجنايات و هم يد واحدة على من بغى، و ليس لأحدهم أن ينصر محدثا حتى و لو كان ولد أحدهم، و على كل واحد منهم نصر المؤمنين و دعمهم، فالمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس، ينبغى عليهم مساعدة الضعيف منهم و الفقير و عدم تركه «و أن المؤمنين لا يتركون مفرحا أن يعطوه بالمعروف و القسط بين المؤمنين» فهم بذلك متكاتفون بعضهم موالى بعض دون الناس، و المفرح هو المثقل بالدين الكثير و العيال، فإن كان من أهل الأسير، أعانه المؤمنون حتى يشارك فى الفداء، و إذا كان من عاقلة المرء الذى جنى خطأ، عقلوا عنه حتى لا يزداد دينه بعجزه عن أداء حصته من الدية أو الفداء و حتى لا يعجز عن نفقات عياله إذا شارك فيها بما كان يدخر للانفاق عليهم، و المسلمون إذ يعطون المفرح فى فداء أو عقل، أو فى غير الفداء و العقل، إنما يحققون مبدأ التعاون الإجتماعى الذى تعتز به الإنسانية. و يحاربون الرق و الموت فى آن واحد، فقد كان العربى فى الجاهلية إذا عجز عن وفاء دينه فى الموعد المحدد زاد دينه و نما و أصبح كالعبد الخادم للدائن لا يكلفه أمرا إلّا فعله، و كان صاحب العيال يقتل أولاده مخافة الفقر و الفاقة، فيقبر فلذات أكباده فى غير اكتراث أو مبالاة، و قد حارب الإسلام ذلك كله، فبدأ بمقدماته. فهدمها و بأسبابه فقطعها، عندما أمر الرسول (ص) أصحابه المؤمنين بأن يعطوا المفرح و يعينوه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۶

و أكد الرسول (ص) فى الوثيقة مراعاة حق الجار «و أن الجار كالنفس غير مضار و لا آثم». و نلاحظ أن النص جاء بكلمة الجار دون تحديد، و من المرجح أن الرسول (ص) أراد أن تشمل كلمة الجار إلى جانب المؤمن:

اليهودى، و النصرانى، و لا شك أن جار المرء هو أقرب الناس إليه بعد عائلته و أهله، و أن دعوة الإسلام إلى رعاية الجار و الإهتمام به و حمايته أثر كبير فى بناء الكيان الإجتماعى و مظهر من مظاهر التعاون الذى رسم أبعاده الرسول محمد (ص).

و نصت الوثيقة: «أنه لا تجار قريش و لا من نصرها» و من الجدير بالذكر أن عادة الجوار من العادات الأصيلة عند العرب قبل الإسلام و كان يتغنى بها أشراف القوم و يتمجدون و يفخرون، و الرسول محمد (ص) و هو على جانب كبير من الفطنة و الذكاء، و هو الخبير العبقرى رأى أنه إن أبقى هذه العادة قائمة، لتؤدى إلى نتائج سيئة بالنسبة لمسيرة المسلمين و الدعوة الإسلامية، فلو أن قرشيا اشتد فى إيذائه و اضطهاده و قتله المسلمين، ثم استجار برجل من أهل المدينة لما استطاع المسلمون أن يتخلصوا منه و لا من عدوانه لهم، فلا عجب إذن إذا أمرهم أن لا- يجيروا قرشيا أو نصيرا لقريش، و نلاحظ أن الرسول (ص) لم يحدد هنا المجير، حتى تشمل الكلمة المؤمن و اليهودى و المشرك، فقد كان يخشى (ص) أن يلجأ القرشيون إلى أقاربهم و معارفهم من المهاجرين فيتذكر هؤلاء جوار

الجاهلية و تكون النتيجة غير التى يريدها الرسول.

هذا و قد احترم المسلمون المؤمنون الوثيقة التى نشرها الرسول (ص) و كانت لها نتائج كبيرة فى حياة المدينة- يثرب- و لكن اليهود لم يكونوا أوفياء لها، و قد انقلبوا و كان انقلابهم و بالا عليهم، أدى إلى إجلائهم من المدينة التى أصبحت تستقل بالمؤمنين المجاهدين.

و على هذا فإن بانتقال الرسول (ص) إلى يثرب بدأت حالة جديدة فى تلك المدينة، إذ أصبحت مركز الدعوة الإسلامية و نقطة الإنطلاق الإسلامى،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۷

و تغير اسمها و أصبحت تسمى مدينة الرسول و تسمى اليوم المدينة، و ذكر ياقوت الحموى تسعة و عشرين اسما لها، منها المدينة، و طيبة، و المحببة، و المحبوبة، و يثرب، و الناجية، و المباركة، و العاصمة، و الشافية. و ان الرسول (ص) بقى بها الى ان انتقل الى الرفيق الاعلى و اتخذ المسلمون السنة التى هاجر فيها الرسول من مكة إلى المدينة مبدأ للتاريخ عندهم، نسبة إلى هذا الحادث العظيم، و أصبح فى المدينة ثلاثة أصناف من السكان:

ا- المهاجرون، و هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، قبل و بعد هجرة الرسول (ص).

ب- الأنصار، و هم سكان المدينة- يثرب- الذين اعتنقوا الدين الإسلامى و هم من قبيلتى الأوس و الخزرج، و زعيم الأوس هو أسيد بن حضير و زعيم الخزرج سعد بن عبادة.

ج- اليهود و أشهر قبائلهم بنو قينقاع، و بنو النضير، و بنو قريظة.

و أصبح الرسول (ص) هو رأس الجماعة الإسلامية فى المدينة و قائدها و مرشدها؛ و لما فرغ الرسول من بناء المسجد، فكر فى أن يدعو للصلاة ببوق كالبوق الذى يدعو به اليهود لصلاتهم، لكنه كره البوق فأمر بالناقوس، فصنع ليضرب به للصلاة كما تفعل النصارى، على أنه بعد مدة عدل عن الناقوس أيضا إلى الأذان الذى يؤذن به المسلمون من مآذنهم فى أوقات صلواتهم.

و اتحد المسلمون و قويت كلمتهم، و انفسح المجال أمام محمد (ص) لنشر تعاليم الاسلام و بناء الكيان الإجتماعى القائم على الأخاء الإنسانى، و تهذيب النفوس و تربيتها تربية طيبة تخلق المواطنين الصالحين الذين سيقفون كالطود الشامخ أمام كل التحديات و سيعملون جاهدين من أجل إعلاء كلمة اللّه و إعلاء كلمة الإسلام إذا ما قاموا حقا بالتعاليم الإسلامية و طبقوا مبادئها عليهم و على الآخرين من المسلمين و غير المسلمين تنفيذا لهذه الوثيقة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۸

المراجع المشار اليها بالارقام

(۱)- ابن هشام: السيرة ج ۱ ص ۳۲۱.

(۲)- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ح ۲ ص ۵۲.

(۳)- ابن هشام: السيرة ج ۲ ص ۳۵۹.

(۴)- المرجع السابق ج ۲ ص ۳۳۳.

(۵)- ابن الأثير: الكامل ج ۲ ص ۵۲.

(۶)- ابن هشام: ج ۱ ص ۲۶۵.

(۷)- ابن سعد: الطبقات ج ۱ ص ۱۹۲.

(۸)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۱۶.

(۹)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۶۳.

(۱۰)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۲۲- ۴۲۴.

(۱۱)- المرجع السابق ج ۱ ص ۴۲۸.

(۱۲)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۶۶.

(۱۳)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۲۸.

(۱۴)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۳۱.

(۱۵) المرجع السابق ص ۴۳۱.

(۱۶)- المرجع السابق ص ۴۳۱.

(۱۷)- ابن سعد: ج ۱ ص ۲۰۴.

(۱۸)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۳۵.

(۱۹)- المرجع السابق ج ۱ ص ۴۳۷.

(۲۰)- المرجع السابق ج ۱ ص ۴۳۷.

(۲۱)- كانت الهجرة النبوية سنة ۶۲۲ م و العقبة الاولى قبل ذلك بنحو السنة.

(۲۲)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۰.

(۲۳)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۴۲.

(۲۴)- ابن سعد: ج ۱ ص ۲۰۷.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۶۹

(۲۵)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۸۰.

ابن سعد: ج ۱ ص ۲۱۲.

(۲۶)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۲.

(۲۷)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۸۶.

ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۳.

(۲۸)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۴.

(۲۹) ابن هشام: ج ۱ ص ۴۸۶.

(۳۰)- هيكل: حياة محمد: ص ۲۱۰.

(۳۱)- ياقوت: معجم البلدان ج ۱ ص ۳۵۷.

(۳۲)- ياقوت معجم البلدان ج ۴ ص ۴۲.

(۳۳)- المرجع السابق ج ۴ ص ۳۶۱.

(۳۴)- المرجع السابق ج ۴ ص ۴۱۶.

(۳۵)- المرجع السابق ج ۴ ص ۴۹۰.

(۳۶)- المرجع السابق ج ۴ ص ۸۸۹.

(۳۷)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۲.

(۳۸)- ابن حجر: الاصابة فى تمييز الصحابة ح ۳ ص ۲۸۸.

ابن عبد البر: الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ح ۳ ص ۲۹۶ هامش الإصابة.

(۳۹) ابن هشام: ج ۱ ص ۵۰۴.

(۴۰)- ابن حجر: الاصابة ح ۲ ص ۸۶.

ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۴.

(۴۱)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۷.

ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۴.

(۴۲)- آية/ ۱۰ سورة التوبة.

(۴۳)- ابن سعد/ الطبقات ج ۱ ص ۲۳۳.

(۴۴)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۴.

(۴۵)- ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۶.

(۴۶)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۵.

ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۶.

(۴۷)- ابن سعد: ج ۲ ص ۴.

ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۶.

(۴۷)- ابن سعد: ج ۲ ص ۴.

ابن الأثير: ج ۲ ص ۷۷.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۰

(۴۸)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۶.

(۴۹)- ابن سعد: ج ۲ ص ۴.

ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۶.

(۵۰)- ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۷.

(۵۱)- المرجع السابق ج ۱ ص ۴۹۷.

(۵۲)- ابن سعد: ج ۲ ص ۶.

ابن هشام: ج ۱ ص ۴۹۷.

(۵۳)- ابن سعد: ج ۲ ص ۵/ ۱۹.

(۵۴)- ابن النجار: الدرة الثمينة/ مخطوط ورقة ۲۳.

(۵۵)- السمهودى: وفاء الوفى/ ج ۱ ص ۳۶۶.

(۵۶)- ابن سعد: ج ۲ ص ۴.

(۵۷)- ابن سعد: ج ۲ ص ۵.

(۵۸)- السمهودى: ج ۱ ص ۲۳۹.

(۵۹)- المرجع السابق: ط ۱ ص ۲۳۹.

(۶۰)- العمرى/ مسالك الامصار ج ۱ ص ۱۲۵.

(۶۱)- السمهودى/ ج ۱ ص ۲۳۹.

(۶۲)- ابراهيم رفعت/ مرآة الحرمين ح ۱ ص ۴۶۱.

(۶۳)- السمهودى/ ج ۱ ص ۲۴۸.

(۶۴)- ابن النجار: الدرة الثمينة/ ورقة ۲۱.

(۶۵)- السمهودى/ ح ۱ ص ۲۴۱.

(۶۶)- ابن النجار: الدرة الثمينة/ ورقة ۲۱.

(۶۷)- السمهودى/ ج ۱ ص ۲۴۲.

(۶۸)- ابن هشام: ج ۱ ص ۵۰۵.

(۶۹)- آية ۷۵ سورة الانفال.

(۷۰)- ابن سعد/ ح ۲ ص ۳.

(۷۱)- ابن هشام: ۱۱ ص ۵۰۱- ۵۰۴.

(۷۲)- ابو عبيد/ الأموال ص ۲۰۶.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۱

المدينة المنورة فى المراجع الغربية

كتبه و ترجمه من مختلف المصادر الغربية جعفر الخياط الحائز على درجة استاذ علومC. S. M . من جامعة كليفورنيا و مدير التعليم الثانوى و المفتش الاختصاصى فى وزارة التربية العراقية و مدير التعليم المهنى العام سابقا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۳

مدينة الرسول فى المراجع الغربية

اشارة

تعد مدينة الرسول، أو المدينة المنورة، ثانى البلاد المقدسة فى الاسلام أو ثانى الحرمين الشريفين اللذين تتجه إليهما أنظار المسلمين فى مشارق الأرض و مغاربها، و تقصدهما الآلاف المؤلفة منهم فى كل عام لحج البيت فى أولهما و التبرك بقبر الرسول الأعظم القائم فى ثانيهما. و لا غرو فإن تاريخ هذه المدينة المقدسة لتتجسد فيه آمال المسلمين و أمانيهم، و ترتبط بصفحاته ذكرياتهم فى مختلف العصور و الأدوار. كيف لا، و قد نشأ الإسلام فيها و ترعرع و عاش فى ربوعها رجاله و أعلامه و قبرت أجداث الكثيرين منهم فى تربتها الزكية.

و من أجل هذا عنى بها علماء الغرب و مستشرقوه بقدر ما عنى بها المسلمون، و انجذب اليها سياحه و مغامروه، فى مختلف العصور، ليقفوا على سر العظمة التى اتصف بها الإسلام، و يهتدوا إلى المجهول الذى يحتل عقولهم فيضربوا أخماسا بأسداس عنه و يلفقوا أنواع التلفيقات فى كثير من الأحيان.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۴

و لذلك كتبت كتب كثيرة، و ألفت مؤلفات عدة، عن المدينة وحدها أو عنها مقرونة بمكة المكرمة.

الاسم و الموقع

و من أحسن ما كتب عن المدينة فى الانكليزية البحث الذى عقده الأستاذ إيف بوهل فى دائرة المعارف الإسلامية المختصرة و

الموسعة. فهو يقول ان المدينة المنورة بلدة من بلدان الجزيرة العربية، أقام فيها النبى محمد (ص) بعد الهجرة، و أصبحت عاصمة الأمبراطورية العربية فى أيام الخلفاء الأوائل.

و كان اسم هذه البلدة الحقيقى «يثرب» أو «ياثريبا» على ما يذكره بطليموس و ستيفان بيزانتينوس، أو «أيثريب» كما ورد فى ما اكتشف من الكتابات لمعينية التى يشير إليها م. هارتمان الألمانى .

لكن كلمة المدينة من جهة أخرى كلمة و صفة مشتقة من الأرامية التى تعنى فيها كلمة «مدينتا» حرفيا «المنطقة القضائية». و قد وردت فى الآيات المكية من القرآن الكريم اسما بصفة الجمع «المدائن»، بينما وردت المدينة فى السور المدنية إسم علم يطلق على البلدة التى أقام فيها النبى الكريم. أما الإسم القديم يثرب فلا يرد ذكره فى القرآن إلّا مرة واحدة قط و يبدو من هذه النقاط أن التفسير الإعتيادى لإسم المدينة- مدينة الرسول- هو اسم أطلق عليها بصورة متأخرة. و من المعتقد أن الإسم المستعار من الآرامية قد أصبح اسما إعتياديا جديدا للبلدة بسبب وجود عنصر يهودى قوى فى يثرب.

و ما أشبه هذا بكلمة «هجر» العربية الجنوبية التى كانت تطلق على عاصمة البحرين يومذاك. على أننا نجد من جهة أخرى أن قيس بن الحطيم أحد شعراء المدينة يستعمل كلمة يثرب بالكلية، بينما يستعمل الشاعران حسان بن ثابت و كعب بن مالك الاسمين معا كما هو الحال فيما ورد فى بعض أقوال لنبى محمد.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۵

و فى حاشية مستفيضة للرحالة البريطانى المعروف السر ريتشارد بورتون ، وردت فى إحدى صفحات رحلته إلى المدينة و مكة، أقوال كثيرة أخرى عن اسم المدينة. فهو يذكر أن هناك حديثا نبويا يفهم منه أن المدينة لها عشرة أسماء، غير أن الكتب المتيسرة تعد حوالى مئة اسم، و سوف نكتفى بإيراد البعض منها هنا. فمن أسمائها طبة، و طيبة و متطيبة، و هذه تشير إلى طيب موقع المدينة و مناخها، و إلى عبير القبر المطهر و الورد الأحمر الذى كان حسكا قبل أن يسقى بعرق جبين النبى عليه السلام، و إلى خلوها من المدنسات مثل وجود الكفار أو عبدة الأصنام. و قد أعلن محمد (ص) أن اللّه سبحانه و تعالى أمره بتغيير اسمها من يثرب أو أثرب إلى طبة. و كان اسمها- يثرب- إسما لإبن من أبناء نوح، على قول بعض المراجع، لكن مراجع أخرى تطلق هذا الإسم فى الأصل على مكان يقع فى غرب جبل أحد و ليس على المدينة نفسها و يجمع ب «أثاريب» أى البقاع التى يكثر فيها الماء و النخيل، و هذا دليل على أنها لم تكن تعود إلى شخص واحد بالكلية. و كيفما كان الأمر فإن الدلالة المشؤومة التى تدل عليها «يثرب» المشتقة من «ثراب» فى الأصل (و معناها الخراب) و استعمال العرب الوثنيين لها قد اجتمعا معا على جعل الإسم «الغلبة» مهملا و صار المسلم المتدين حذرا فى التأكد من تسميتها «المدينة». أما الاسم «برة» و «بارة» فيشير إلى خضوعها و طهارتها، كما يشير الإسم «حسونة» إلى جمالها، و «خيّرة» إلى طيبها وجودتها، و محبة و حبيبة و محبوبة إلى حظوتها عند النبى، بينما يدل إسم جابرة، و جبارة، و جبرة، على تأثيرها الحسن فى مصائر المؤمنين و تأثيراتهم السيئة على الكفار. و تسمى الشافية لتأثيرات الأرض الشافية الموجودة فى جوارها، و ناصرة، و عاصمة، لأن محمدا و أصحابه كانوا بها فى مأمن من غضب أعدائهم، و فاضحة، لأنها فضحت موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۶

الكفار و المنافقين. و تسمى كذلك المسلمة و المؤمنة و المباركة و المحبورة و المحروسة و المحفوظة إشارة إلى ما يزعم من أن ملكا من الملائكة يجلس فى كل شارع من شوارعها الرئيسة العشرة ليحرسها و يمنع «الدجّال» من الدخول إليها فالمعروف فى الأساطير أن الدجال سيظهر فى الشرق ذات يوم فيسيح فى الأرض، لكنه سوف يتعذر عليه الدخول إلى مكة، و حينما يصل إلى المدينة ينحرف عنها و يتجه إلى مهلكه فى دمشق. و تسمى المدينة فى التوراة «المقدسة» أو «المرحومة» تلميحا إلى رسالة محمد (ص). و قد تسمى كذلك المرزوقة دلالة على خيراتها، و المسكينة لأنها مستقلة عن خزائن الذهب و الفضة، و المقر، و المكينة، و الحرم، و أخيرا البلد، و المدينة.

أما ألقابها فمنها أرض اللّه، و أرض الهجرة، و أكّالة البلدان، و أكالة القرى، نظرا لتفوقها عليها برغم الاسم الذى يطلق على مكة، و هو «أم القرى»، و بيت رسول اللّه، و جزيرة العرب، و حرم رسول اللّه. و تلقب فى الكتب و المراسلات أحيانا ب «المشرفة»، و يكثر تلقيبها بالمنورة بنور الإيمان و عمود النور الذى يعتقد بأنه يخرج من الضريح المقدس.

و تقع المدينة على ما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية فى سهل من سهول الحجاز ينحدر إلى الشمال انحدارا خفيفا جدا، فيحده من الشمال و الشمال الغربى جبلا أحد، و عير، على بعد يقارب أربعة أميال من المدينة، و أنفان جبليان يخرجان من السلسلة التى تكوّن الحدود ما بين مرتفعات الجزيرة العربية و السواحل الواطئة التى تسمى تهامة. و يحد السهل من الجهتين الشرقية و الغربية الحرّات التى هى عبارة عن بقع كبيرة قاحلة مغطاة بحجر البازلت الأسود، لكن الحرّات الشرقية تقع على مسافة أبعد من البلدة فتترك بينها و بين المدينة مجالا لامتداد بقع خصبة من الأرض بحيث تكوّن حدود السهل الشرقية فى الحقيقة سلسلة من الجبال السوداء الواطئة. و يمتد السهل من الجنوب إلى أبعد مما يدركه البصر.

و تتميز هذه الجهة بوفرة المياه وفرة غير معتادة فى الجزيرة العربية. فأن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۷

جميع المياه تأتى من الجنوب، أو من منطقة الحرّات، فتتجه فى جريانها إلى الشمال حيث تتجمع فى زغابة فتنحرف و تجرى نحو الساحل فى وادى العظم. و لا- تمتلىء هذه المجارى بالماء فى العادة إلا بعد أن تهطل الأمطار فى تلك المنطقة، لكنها تغذى طبقة المياه الجوفية بحيث يكثر عدد الينابيع و العيون فيها. و تتكون بعد هطول الأمطار الغزيرة بحيرة واسعة الأرجاء فى فضاء المناخة المجاور للبلدة، و قد تكتسح سيول الماء بعض جهات البلدة فتغرقها و تهدد بعض الأبنية الكائنة فى القسم الجنوبى منها. و مما يذكر فى التاريخ أن طوفانا من هذا القبيل حصل فى أيام الخليفة عثمان فهدد البلدة بحيث أمر الخليفة بأنشاء سدة خاصة لحمايتها (البلاذرى).

و حدث أشد من هذا الطغيان كذلك فى سنتى ۶۶۰ و ۷۳۴ للهجرة حينما تصدع الحاجز البركانى الكبير بضغط الماء عليه.

و يكون الماء فى بعض الجهات كثير الملوحة بحيث لا يستساغ، و لذلك حاول عدد من الحكام المتعاقبين على المدينة مد قنوات خاصة لجرّ مياه صالحة للشرب من آبار عذبة المياه تقع فى مكان أبعد من جهة الجنوب؛ و لمجارى المياه و وديانها هذه أسماء مختلفة، فهناك فى الجهة الغربية العقيق و وادى بطحان و رنونا، و فى الجهة الشرقية وادى القناة و مهزور و المذانيب.

أما التربة فهى رملية مالحة، و طينية مزيجية ذات طبيعة كلسية، و تكون خصبة جدا فى كل مكان و لا سيما من جهة الجنوب. و لذلك تجود فيها زراعة النخيل إلى آخر حد، كما تجود زراعة البرتقال و الليمون و الرمان و الموز و الخوخ و المشمش و التين و الأعناب.

هذا و يكون شتاء المدينة باردا مرطبا، كما يكون صيفها حارا لكنه نادرا ما يكون حارا مرطبا.

و يقول الرحالة الحديثون ان الهواء فى المدينة عليل لطيف، لكنه غير صحى تماما، و كثيرا ما تنتابها الحميات بشكل و بائى فيقع فريسة لها القادمون الجدد على الأخص كما حصل للمهاجرين من أتباع النبى محمد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۸

(ص). و يقول الأستاذ بوهل ان الأمويين كانوا يسمونها «القذرة» مقابلة «للأسم المشرف الذى أطلقه عليها الرسول الأعظم و هو «الطيبة».

و يقارن وضع المدينة الذى حبته أياها الطبيعة مقارنة واضحة بوضع مكة المكرمة و موقعها الكائن فى واد صخرى «غير ذى زرع». فلم تكن المدينة منذ البداية بلدة كاملة بالمعنى الصحيح، بل كانت مجموعة من البيوت و الأكواخ محاطة بالبساتين و الحقول المزروعة، حيث كان ينصرف سكانها إلى الزراعة. و لذلك كان البدو يسمونهم «النبط» على سبيل الاحتقار، على أن هذه المنازل المتناثرة أخذت تتصل بالتدريج و ترتبط حتى تكون منها شىء يشبه البلدة، على أن هذا كان يقع فى شمال المدينة التى تكونت فيما بعد لأن

اسم يثرب على ما يقول السمهودى كان يقرن على الأخص بمكان يقع فى غرب قبر الحمزة، حيث نزل بنو الحارثة فى أول الأمر. و لم تكن البلدة التى نشأت بهذه الطريقة محوطة بسور لكن خطوط دفاعها كانت بساتين النخيل المكتظة و الجنائن المحيطة بالبيوت. و لما كانت هذه البساتين أقل اكتظاظا و كثافة من الجهتين الشمالية و الغربية فقد كانت هاتان الجهتان أشد تعرضا للهجمات المعادية.

كما كانت القلاع الصغيرة (أطم جمعها آطام) التى تبنى بأعداد غير يسيرة تقوم مقام السور، فقد كان بوسع السكان أن يتراجعوا إليها فى أوقات الضيق و الشدة.

التاريخ القديم

و جاء فى البحث الذى تعقده دائرة المعارف الإسلامية أيضا أنه لم يكن يوجد فى العهود المتأخرة أخبار يعتمد عليها عن أصل المدينة المنورة و تاريخها القديم. و قد حاول المؤرخون سد هذه الثغرة من عندهم فجعلوا، كما فعلوا بالنسبة لأماكن أخرى، جرهم و العمالقة يلعبون دورا فيها.

و لذلك لا نستطيع الاطمئنان إلى ما يروى من هذا التاريخ إلا ما يختص

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۷۹

منه بالفترة البادئة بقدوم اليهود إلى المدينة، لكن المؤرخين لا يعرفون شيئا عن الزمن الذى جاءوا فيه اليها بالضبط بحيث يجعلون لذلك علاقة بموسى فى بعض الأحيان، أو بسبى نبوخذ نصر لليهود فى أحيان أخرى، أو باستيلاء اليونان و الرومان على فلسطين فى بعض الأحايين. فقد كان اليهود، على ما يشير اليه التلمود فى عدة مناسبات، موجودين فى جزيرة العرب خلال القرون الميلادية الأولى، و يقصد بذلك شمالى الجزيرة العربية بالتأكيد. و يتضح وجودهم بكثرة فيها من وجود الجاليات اليهودية فى تيماء و حجر و وادى القرى و فدك و مقنا التى كانت جالية المدينة اليهودية على اتصال بها. و قد كانوا فى كل واحدة من هذه الواحات ينصرفون إلى فلاحة الأرض و يتفرغون لها، و من المحتمل أن تكون واحة من هذه الواحات قد تطورت إلى بلدة بواسطتهم. و يستدل على ذلك من اسم المدينة الآرامى نفسه، و هو يثرب. كما يستدل من بعض الأبيات التى نظمها الشاعر حسان بن ثابت على أنهم أنشأوا عددا من الحصون الصغيرة فى هذه البلدة. لكننا يمكن أن نستلخص من كونهم لم يكونوا أول من فعل ذلك أن سكان المدينة الأقدمين لم يكونوا بدوا خلصا. (و يذكر لامانس فيما كتبه عن الطائف أن هذه الحصون كانت تبنى على غرار حصون اليمن).

و قد لعبت قبيلة بنى قينقاع اليهودية دورا بارزا فى الهجرة، و سمى فى دور متأخر أحد الأسواق المهمة فى القسم الغربى من المدينة باسمها.

لكن قبيلتى بنى قريظة و بنى النضير أصبحتا بعد ذلك أهم القبائل اليهودية فى المدينة بالتدريج. و كان بنو قريظة يسكنون مع بهدل على وادى مهزور، كما كان بنو النضير ينزلون على وادى بطحان. و يقول كاتب البحث انه بينما تذكر الأغانى فى الجزء التاسع عشر أن بنى قريظة و بنى النضير موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۰

يعدون من اليهود الخلّص، يقول اليعقوبى انهم لم يكونوا يهودا أقحاحا و انما كانوا قبيلتين عربيتين متهودتين تنتميان إلى بنى جذام، و يؤكد على ذلك المؤرخ الألمانى نولدكه فيشهد بصحة الرواية. ثم يعلق كاتب البحث على هذا بقوله انه فى الوقت الذى قد يثبت فيه تأريخيا أن عددا غير يسير من العرب قد تهودوا يومذاك، فان هناك مع ذلك أسبابا قوية للاعتقاد بأن العنصر اليهودى فى المدينة لم ينشأ على هذه الشاكلة. فمن الأهمية بمكان أن بنى قريظة و بنى النضير كثيرا ما كان يطلق عليهم «الكاهنانية»، الأمر الذى يدل على أن اليهود كانوا على علم بسلسلة نسبهم و أنهم كانوا يؤكدون على أصلهم. و يلاحظ الشيء نفسه من أن السيدة صفية التى تزوجها النبى، و هى من بنى النضير، كانت تعرف بكونها من سلالة هارون. لكن القول الفصل فى هذا الشأن لما جاء فى سور القرآن المدينة التى يخاطب بها يهود المدينة أنفسهم. فأنها تسميهم «بنى إسرائيل»، و تذكرهم بأن اللّه قد فضلهم على الناس. و تحشرهم مع بنى أسرائيل

القدماء كما لو كانوا قد أسهموا فى الهجرة من مصر .

و قد أنزل اللّه الكتاب على موسى ليهديهم إلى السبيل السوى ، لكنهم خرجوا على القواعد التى وضعها ليسيروا على منوالها فى ميثاقه معهم.

و تدل هذه الإشارات بأوضح ما يمكن على أن النبى (ص) كان يعتبرهم متحررين من أصلاب بنى إسرائيل القدماء. و على هذا فلا بد من أنه كان هناك، علاوة على العرب المتهودين، أناس من اليهود الأقحاح، و من الواضح فى الحقيقة أنه لو لم يوجد من هؤلاء لما كان من الممكن أن يتهود أحد من العرب. و قد أشار فيلهاوزن بالإضافة إلى ذلك أشارة بارعة إلى أن اليهود الذين وجدوا بين العرب بلغتهم، و معرفتهم بالتوراة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۱

و بطراز حياتهم، و ولعهم بالسخرية الماكرة، و الفنون السرية و السحر و التعذيب، و بتخوفهم من الموت، يعطون انطباعا لا يمكن أن يفسر بكونهم كانوا عربا متهودين. لكننا يجب أن لا ننسى من جهة أخرى أن اليهود فى جزيرة العرب كانوا قد تأثروا كثيرا بمحيطهم، فكوّنوا شخصية خاصة بهم. فإننا نجد مثلا أنهم كانوا منقسمين إلى قبائل و أسر و متخلقين بالأخلاق الناجمة عن مثل هذا الوضع الذى يعد من الخصائص العربية. و لا نستطيع أن نرجع بأسماء هذه القبائل إلى أصول يهودية قديمة، و إنما هى أسماء عربية خالصة فى مظهرها، كما هى الحال كذلك فى اسماء الافراد التى نادرا ما توجد بينها اسماء يهودية مثل سموأل و سارة. و يلاحظ استعراب اليهود على الأخص فى قصائد الشعر المنسوبة إلى اليهود، و أكثرها كان من الممكن أن يكون من نظم البدو العرب .

الاوس و الخزرج

و بينما كان اليهود هم العنصر البارز فى أماكن مثل خيبر و فدك و ما أشبه، فقد تغير وضعهم فى المدينة بهجرة القبائل اليها التى يغزوها العرب إلى تصدع سد مأرب، و ما أدى اليه من هجرة القبائل العربية التى كانت تقطن القسم الجنوبى من الجزيرة العربية. فبهذه الطريقة جاءت قبائل قيلة، على ما كانت تسمى يومذاك، أو قبائل الأوس و الخزرج إلى المدينة. و ليست هناك تفصيلات مدونة عن كيفية مجىء هذه القبائل، لكنه يفهم من بعض ما يكتبه ابن خرداذبه و ياقوت أنهم ظلوا مدة طويلة من الزمن خاضعين لليهود و تابعين لهم، و أن هذا القسم من جزيرة العرب الشمالية كان فى ذلك الوقت خاضعا للحكم الفارسى. على أن عرب قيلة تمكنوا بعد ذلك من خلع النير اليهودى عنهم و إخضاع اليهود إلى موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۲

حكمهم. و تقول الروايات أن هذا تم حينما حاول ملك قوى من ملوك اليهود يدعى فيتون أن يمارس حقه الأقطاعى المزعوم فى اغتصاب إحدى البنات البواكر، فقتله رجل من الخزرج يسمى مالك بن العجلان، انقاذا لشرف أخته. أما ما أعقب ذلك فهناك روايتان مختلفتان، تنص إحداهما على أن ابن العجلان التجأ بعد صنيعه هذا إلى ملك من ملوك الغساسنة يدعى أبا جبيلة طالبا معونته، بينما تنص الثانية على أنه التجأ فى ذلك إلى تبع من تابعة الجزيرة الجنوبية يدعى أسعد أبا كرب.

و قد استولى أسياد يثرب الجدد على الحصون التى كان يشغلها اليهود، و شيدوا عددا آخر منها. و تعلموا كذلك فنون النبط منهم فأخذوا يغرسون النخيل و يتخذون الفلاحة مهنة لهم. و لما كان الخزارجة، الذين كان بنو النجار (أوتيم اللات) أبرز أسرة فيهم، أقوى القبائل يومذاك، فقد اضطلعوا بالقيادة و نزلوا فى القسم الأوسط من البلدة حيث توجد المدينة الحديثة فى يومنا هذا. و سكنت إلى الغرب و الجنوب منهم قبائل الخزرج الأخرى، بينما كانت تمتد منطقة بنى الحارث من جهة الشرق.

أما الأوس، الذين كانوا يتألفون من عدة أسر أيضا، فقد استقروا فى جنوب أخوانهم و شرقيهم. كما نزل النبيت فى الجهة الشمالية الشرقية بحيث كان يفصلهم عن أقاربهم بنو الحارث. على أن القبيلتين الرئيستين من قبائل اليهود، و هما بنو قريظة و بنو النضير، حافظتا على مقدار معين من الاستقلال و احتفظ أفرادها بأراضيهم فى ظل الأوس، بينما احتفظ بنو قينقاع بأراضيهم فى الجهة الجنوبية الغربية

مع أن صنعتهم الرئيسة كانت صياغة الذهب. و كان فى المدينة عدا قبائل قيلة المهاجرة و اليهود عدد من القبائل الأخرى التى كان قسم منها موجودا فى يثرب حينما جاءت قيلة اليها. و كانت هذه القبائل على اتصال وثيق باليهود، حتى تهود قسم منهم. و قد أدى استقرار الأمور على هذه الحالة إلى تمتع يثرب بفترة طويلة من السلم الذى أخذ يتعكر صفوه بالتدريج بتزايد الخصومة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۳

التى نشبت ما بين قبيلتى قيلة الكبيرتين، أى بين الأوس و الخزرج. فقد تخاصمت الأسر على انفراد فى بادىء الأمر و تقاتل أفرادها فيما بينهم، لكن الخصومة اشتد أوارها بالتدريج و امتد لهيبها بحيث صار يهدد وجود البلدة بأسرها. غير أن الاختلاف أمكن حله بالتحكيم، لكن الهدوء ما استقام طويلا حتى تجدد الاحتكاك بين الطرفين فأدى إلى استئناف النزاع و القتال الذى كان سبب القسم الأشد منه انتقام خاطب فى هذه المرة.

و يشير إلى هذا قيس بن الخطيم فى أشعاره، و هو من أسرة أوسية تنتمى إلى بنى النبيت. على أن القتال تطور فى جميع الأحوال فى غير صالح الأوسيين، و طرد بنو النبيت فى الأخير من ممتلكاتهم. فطلب الأوس و هم فى محنتهم هذه مساعدة القبيلتين اليهوديتين الرئيستين، فرفض اليهود التدخل بادىء ذى بدء غير أن الخزرج عمدوا إلى ذبح البعض من رهائن اليهود فأدى ذلك إلى إقدام اليهود على التحالف مع الأوس و أعلنوا استعدادهم للمساعدة. فأعقب هذا وقوع معارك طاحنة اشتركت فيها القبيلتان العظيمتان بكل قواهما، و سائر سكان يثرب، و حتى البدو المحيطون بالمدينة. غير أن موقعة بعاث التى استعد لها الفريقان خلال مدة طويلة من الزمن كانت هى الحاسمة فى النهاية. و قد بدا بادىء ذى بدء كما لو كان الأوس سيغلبون أيضا، لكن الآية انقلبت فى الأخير فأصيب الخزرج بانتكاسة شديدة. و مما يجدر ذكره هنا أن عبد اللّه بن أبى الخزرجى أبدى فى هذه المناسبة نفس التردد الذى أبداه بعد ذلك عندما أقدم على معارضة محمد (ص). فقد نزل إلى ميدان الحرب مع الآخرين لكنه لم يشترك فيها، و هرب فعلا يوم العرارة. هذا و قد استعادت موقعة بعاث التوازن بين القبيلتين الرئيستين، لكن القتال المستمر كان قد استنزف قوى البلدة بأجمعها و جعلت الروح العدائية التى كانت تفصح عن نفسها بين حين و آخر حياة الناس شيئا لا يطاق يوما بعد يوم، و عند ذاك حدث انقلاب خطير بين سكان المدينة، الذين كانت بهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۴

حاجة إلى زعيم كبير يمسك زمام الأمور بيد من حديد، حينما قيض لهم أن يتصلوا بالنبى محمد الذى لم يكن قد أصاب يومذاك إلا نجاحا يسيرا فى اجتذاب المكيين إلى اعتناق تعاليمه الدينية.

ديانة أهل المدينة قبل الإسلام

و كانت قبائل قيلة حينما هاجرت إلى يثرب تدين بعبادة الأوثان، شأنها فى ذلك شأن الأكثرية الساحقة من العرب و كانت الآلهة الكبرى التى يعبدونها «مناة» التى سميت أوس اللّه باسمها منذ البداية، لكنهم كانوا يوقّرون اللات كذلك من الآلهات الأخرى. و يقول بوهل فى دائرة المعارف هذه، خلال إلحاحه الممل فى البحث على تأثير اليهود فى المدينة و الإسلام، إن هذه القبائل كانت خلال معيشتها إلى جنب اليهود قد تأثرت بمعتقداتهم الدينية و تعاليمهم الأخلاقية. لكننا و يا للأسف لا نعلم إلا النزر اليسير عن وجهة نظرهم الروحية قبل قدوم النبى الأعظم إلى المدينة فإن قيسا شاعرهم يشير بطريقة بدوية فى الدرجة الأولى إلى المشاحنات التى كانت تحصل بين القبائل و الأسر فقط، و نادرا ما كان يتعرض بشىء إلى الشؤون الدينية. و هو يتطرق بين حين و آخر إلى ذكر الآلهة المحلية لكنه يشير إلى اللّه الذى كان يسميه الخالق، و يعد هذا نفسه دليلا كافيا على وجود التأثير اليهودى أو المسيحى (كذا). و إلى جانب هذا كله كانت هناك فئة من الناس قد ذهبت فى مفاهيمها إلى أبعد من ذلك خلال احتكاكها باليهود أو المسيحيين، حتى صار أفرادها يعرفون بالأحناف لأنهم كانوا يعترضون بجزم على عبادة الأوثان المعتادة، و يميلون إلى الزهد و التنسك. فقد كان أبو

الهيثم و أسعد بن زرارة مثلا يقرّون بالتوحيد قبل أن يتعرفوا بالنبى محمد (ص). و من نتائج العيش مع اليهود (كذا) فى المدينة، على رأى بوهل، أن فن الكتابة كان يعرف تمام المعرفة فيها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۵

و قد أصبح تأثير اليهود الروحى على سكان المدينة العرب عاملا مهما فى علاقاتهم بالنبى محمد (ص)، لأنه جعلهم يتقبلون تعاليمه الدينية بسهولة حينما تعرفوا عليها خلال ترددهم على مكّة، و بالطرق و الوسائل الأخرى.

المدينة فى عهد النبى الأعظم

و بعد أن تتطرق دائرة المعارف الإسلامية إلى تعرف النبى الأمين على نفر من أهل المدينة و اعتناقهم لمبادئه الدينية، و عقده و أياهم معاهدة لحمايته، كما يرد فى كتب التاريخ المعروفة، تذكر هجرة المسلمين السرية إلى المدينة، و هجرة النبى (ص) من بعدهم بالكيفية التى تذكرها الكتب التاريخية كلها كذلك.

و تقول دائرة المعارف هذه علاوة على ذلك (عند بحثها عن النبى) إن هجرته إلى المدينة قد اتخذها المسلمون بحق بداية لتاريخهم الهجرى المعروف، لأنها تعتبر المرحلة الأولى لحركة خطيرة جدا تمكنت فى مدة و جيزة من الزمن أن تصبح ذات أهمية كبرى فى تاريخ العالم. ثم تذكر أن الحسابات الاعتيادية تجعل وصول النبى إلى قبا فى ضواحى المدينة فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول الواقع فى السنة الأولى للهجرة بطبيعة الحال، أى فى يوم ۲۴ أيلول سنة ۶۲۲ للميلاد. و بعد أيام قلائل انتقل إلى موطنه الجديد، فألقت المهمة الجسيمة التى كانت تنتظره عبئها الأكبر على قابلياته التنظيمية و الديبلوماسية.

و قد جعل النبى صلوات اللّه و سلامه عليه إقامته الأولى فى دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى الخزرجى حتى استطاع تهيأة منزل خاص به. و ليس هناك شيء مطلقا يدل بوضوح على مواهبه، المبنية على عقيدته برسالته النبوية المقدسة، فى قيادة الرجال و إقناعهم بالرضوخ لإرادته، مثل نجاحه خلال مدة قصيرة جدا فى تهدئة الأمور فى المدينة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۶

و فرض نوع من النظام فيها، بعد أن كادت تمزقها الأحقاد و الضغائن.

و فى توحيد خليط متنافر من السكان يتألف من سكان يثرب العرب القدماء، و قبائل قيلة التى أصبحت مهيمنة فيها، و المهاجرين الجدد من مكة، و اليهود أو العرب المتهودين. و يقول بوهل إننا نستطيع أن نتبين ما فعله النبى (ص) فى هذا الشأن من «الكتاب الذى كتبه الرسول بين المهاجرين و الأنصار لموادعة اليهود» المثبت فى سيرة ابن هشام، و كان أول بيان يصدره فى المدينة. و نرى من الأفضل هنا أن نورد نص الكتاب نفسه بدلا من تلخيص ما تذكره عنه دائرة المعارف الإسلامية:

قال ابن اسحق: و كتب رسول اللّه (ص) كتابا بين المهاجرين و الأنصار وادع فيه اليهود و عاهدهم، و أقرهم على دينهم و أموالهم، و اشترط عليهم و شرط لهم.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا كتاب من النبى محمد (ص) بين المؤمنين و المسلمين من قريش و يثرب و من تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، و هم يفدون عانيهم بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، و كل طائفة تفدّى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة منها تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة منها تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۷

و كل طائفة منها تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة منها تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و بنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى و كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف و القسط بين المؤمنين، و أن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

و لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، و أن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، و أن أيديهم عليه جميعا و لو كان ولد أحدهم، و لا يقتل مؤمنا فى كافر، و لا ينصر كافرا على مؤمن، و أن ذمة اللّه واحدة: يجير عليهم أدناهمّ و أن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، و أنه من تبعنا من يهود فأن له النصر و الأسوة غير مظلومين و لا متناصر عليهم، و أن سلم المؤمنين واحدة: لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل اللّه إلا على سواء و عدل بينهم، و أن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، و أن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل اللّه، و أن المؤمنين المتقين على أحسن هدى و أقومه، و أنه لا يجير مشرك مالا لقريش، و لا نفسا، و لا يحول دونه على مؤمن و أنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، و أن المؤمنين عليه كافة، و لا يحل لهم إلا قيام عليه، و أنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة و آمن باللّه و اليوم الآخر ان ينصر محدثا و لا يؤويه، و أنه من نصره و آواه فإن عليه لعنة اللّه و غضبه يوم القيامة، و لا يؤخذ منه صرف و لا عدل، و أنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مردّه إلى اللّه عز و جل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۸

و إلى محمد (ص)، و أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، و أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم و للمسلمين دينهم مواليهم و أنفسهم، إلا من أظلم و أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه و أهل بيته، و أن ليهود بنى النجار ما ليهود بنى عوف، و أن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، و أن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، و ان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف، و أن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، و أن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من أظلم و أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه و أهل بيته، و أن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، و أن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف و أن البرّ دون الأثم و أن موالى ثعلبة كأنفسهم، و أن بطانة يهود كأنفسهم، و انه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد (ص)، و أنه لا ينحجز على ثار جرح، و أنه من فتك فبنفسه فتك و أهل بيته إلا من ظلم، و أن اللّه على أبر هذا، و أن على اليهود نفقتهم و على المسلمين نفقتهم و أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، و أن بينهم النصح و النصيحة و البرّ دون الأثم، و أنه لم يأثم امرؤ بحليفه، و أن النصر للمظلوم، و أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، و أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، و أن الجار كالنفس مضا و لا آثم، و أنه لا تجار حرمة إلا بأذن أهلها، و أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى اللّه عز و جل و محمد (ص)، و أن اللّه على أتقى ما فى هذه الصحيفة و أبرّه، و أنه لا تجار قريش و لا من نصرها، و أن بينهم النصر على من دهم يثرب، و إذا دعوا إلى صلح يصالحونه و يلبسونه، و أنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين: على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، و أن يهود الأوس مواليهم و أنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۸۹

و أنّ البرّ دون الأثم: لا يكسب كاسب إلا على نفسه، و أن اللّه على أصدق ما فى هذه الصحيفة و أبرّه، و أنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، و أنه من خرج آمن، و من قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم و أثم، و أن اللّه جار لمن برّ و اتقى، و محمد (ص)» انتهى .

لكن شروط هذا العهد سرعان ما أهملت، على ما يقول بوهل، نظرا لتطور الحوادث السريع فى المدينة، و من الطبيعى أن ذلك لم يكن مخالفا لما كان يريده النبى الذى ذهبت خططه إلى أبعد مما نص عليه فى الكتاب. و السبب الرئيسى فى فقدان الكتاب المذكور لأهميته هو خبث اليهود بالشروط الموضوعة و تحركهم للعمل ضده و الهزء بما جاء به. فقد أخذوا يحاولون إثارة الضغائن القديمة بين الأوس و الخزرج و يدسون عليه فى كل فرصة أو مناسبة.

على أن النبى ردّ على ذلك بالعمل المتواصل فى توحيد أتباعه ليستطيعوا الوقوف ضد خصومه الأصليين فى مكة. و يتطرق بحث دائرة المعارف الإسلامية بعد ذلك إلى موقعة بدر و أحد و الخندق، و يقول كاتبه عند ذكر موقعة الخندق ان ابن جبير شاهد فى القرن الثانى عشر بقايا الخندق المذكور فى المدينة، و ان قريشا هم الذين كانوا السبب فى انتصار المسلمين فيها لأنهم أبدوا كثيرا من الخور و الجهل بأصول الحرب. ثم يعقب على ذلك بقوله ان مركز النبى قوى كثيرا بعد هذه الموقعة فى المدينة، حتى تسى له أن يقضى على خصومه فى الداخل من اليهود و المنافقين. و قد استطاع أن يكيل الصاع صاعين لليهود، و يعاملهم بشدة و قسوة فى مختلف المراحل. فقد أخرج بنى القينقاع من المدينة بعد انتصاره المدوّى فى وقعة بدر، و أخرج بنى النضير منها بعد غزوة أحد التى لم يكن النصر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۰

حليفه فيها. أما بنو قريظة فقد ذبحوا ذبحا لا رحمة فيه برغم توسط الأوس لهم. و بهذه الطريقة نجح النبى عليه السلام فى التخلص من الخطر الذى كان يتهدده من ناحية اليهود، لأن الذين بقوا منهم فى المدينة لم يعد لهم شأن يذكر فيها.

و لقد أصبحت الحرب فى حكم المنتهية مع قريش عندما عقد النبى معهم صلح الحديبية فى سنة ۶ للهجرة، لأن عبقرية الديبلوماسية استطاعت أن ترغم قريشا بها على الاعتراف بالمدينة و اعتبارها قوة تضاهى مكة فى أهميتها. لكن الانتهاء الرسمى لكفاحه عليه السلام مع قريش قد حصل عندما تم له فتح مكة من دون إراقة دماء فى العام الثامن للهجرة.

على أن هذا النصر على عظمته، و على ما كان فيه من ظفر و موفقية للنبى، قد سبب حدوث توتر جديد كتب له أن يكون شيئا مؤذيا للإسلام بعد وفاة النبى. و هنا يتطرق كاتب البحث إلى الاختلاف بين المهاجرين و الأنصار، و الدور الذى كان يلعبه عبد اللّه بن أبى فيه، و إلى قضية بناء مسجد ضرار و هدمه، و غير ذلك.

هذا و قد برّ النبى عليه السلام بوعده لأصحابه حينما عاهدهم على البقاء فى المدينة حتى النهاية، و عدم الانتقال إلى مكة بعد فتحها، فبقى فيها حتى توفى فى ۸ حزيران سنة ۶۳۲ للميلاد و دفن فيها. و يقول الدكتور بوهل ان الخليفتين أبا بكر و عمر قد دفنا، كما دفن النبى، فى بيت عائشة، بينما جيء بجثة عثمان محمولة «على خشبة» فى ظلمة الليل إلى المقبرة خلال عاصفة من التنديد و الرمى بالحجارة . و لم يفكر أحد خلال هذه المدة بتقوية خطوط دفاع العاصمة الإسلامية العتيدة، حتى و لا فى أيام الردة التى أعقبت وفاة النبى. و كان الخليفة الثالث قد أمر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۱

بهدم الحصون التى كانت موجودة فى المدينة، لكن آثارها بقيت شاخصة للعيان حتى أواخر القرن العاشر.

المدينة بعد مقتل عثمان

و مما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية عن هذا العهد أن خلافة الإمام على فى المدينة قد أحدثت فيها تبدلا تاما. فحينما نشبت الحرب الأهلية بينه و بين خصومه، و وقعت المواقع الحربية الحاسمة فى الأقاليم أدرك الإمام على عليه السلام أن الامبراطورية الواسعة لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تدار من زاوية بعيدة من زوايا العالم التى تقع فيها المدينة.

و بينما كان الخلفاء الأوائل يبقون فى العاصمة و يسوقون جيوش الفتح منها إلى مختلف الأنحاء، قاد الإمام على جيوشه بنفسه و غادر

المدينة فى سنة ۳۶- ۶۵۶ و لم يعد اليها منذ تلك السنة. فقد اتخذ الكوفة عاصمة له، و بقيت كذلك حتى حلت دمشق فى محلها حينما تولى معاوية.

فأصبحت المدينة، كما أصبحت مكة من قبلها، مدينة أقليمية ثانوية غير متأثرة بمجرى الأحوال فى العالم الخارجى. و يمكن الوقوف على رأى المتعبدين القدامى من الصحابة فى هذا التبدل الجوهرى من الحديث الذى دار بين الإمام على و بين عدد من وجوه الأنصار الذين ذهبوا ليقنعوه بالعدول عن مغادرة المدينة. فقد قال له عقبة بن عامر و كان بدريا «يا أمير المؤمنين إن الذى يفوتك من الصلوة فى مسجد رسول اللّه (ص) و السعى بين قبره و منبره أعظم مما ترجو من العراق، فإن كنت إنما تسير لحرب أهل الشام فقد أقام عمر فينا و كفاه سعد زحف القادسية، و أبو موسى زحف الأهواز، و ليس من هؤلاء رجل إلا و مثله معك و الرجال أشباه و الأيام دول» فقال على «ان الأموال و الرجال، بالعراق و لأهل الشام و ثبة أحب أن أكون قريبا منها ».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۲

المدينة فى عهد الأمويين و العباسيين

و لا شك أن المدينة بكل ما فيها من ذكريات دينية عزيزة على المسلمين، و بالجدث الطاهر المقبور فى تربتها، لا يمكن أن تصبح مدينة مهملة على الإطلاق. و إنما كان الأمر بالعكس، فقد أخذت قدسيتها تزداد فى أعين المسلمين كلما عظمت شخصية النبى الأعظم فى نظرهم لكن حياة البلدة نفسها ظلت تبعد شيئا فشيئا عن العالم الحقيقى الذى كانت تتكشف فيه حوادث التاريخ الفعلى. و صار يقصدها الراغبون فى البقاء بمعزل عن فوران الوقائع السياسية، مثل ما فعل الحسن بن على (ع) بعد تنازله عن حقه فى الخلافة. و قصدها الحسين كذلك من الكوفة، لكنه غادرها من جديد ليحاول محاولته اليائسة فى الحصول على حقوقه المهضومة. لكن المهم أن أحدا من أنصار المدينة لم يخرج معه إلى الكوفة. و حينما استشهد بذلك الشكل المؤلم المؤسف جيء بنسائه و ابنه إلى المدينة، حيث عاشوا بهدوء و سلام من دون أن يسهموا فى القتال. و قد أقام محمد بن الحنفية كذلك فى المدينة. على أن أقرباء النبى و أتباعه المخلصين لم يكونوا وحدهم هم الذين يفضلون العيش فى مدينته المقدسة، و إنما فعل ذلك أيضا البعض من الأمويين، أعدائه السابقين ، الذين كانت تجذبهم المدينة اليها بهدوئها الشامل و حياتها الرخية و بهذه الطريقة أصبحت المدينة موطنا لطبقة جديدة من السكان تتألف من إناس يريدون التمتع بالثروة العظيمة التى جاءت اليهم بها حروب الفتح المختلفة من دون إزعاج. و قد صارت الحياة فيها على جانب أكبر من الترف و الرخاء بالتدريج حتى غدت فى الأخير، و هى المدينة المقدسة، رديئة السمعة بحيث أن مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين سأل أحد المشتركين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۳

فى ثورة قامت فيها سنة ۱۲۷- ۷۴۵ كيف أن خمور المدينة و جواريها لم تقعده عن الالتحاق بها. و يعقب كاتب البحث هذا بعد ذلك بقوله ان مثل هذه القصص عن المدينة تذكرنا بالوصف الذى أورده الرحالة دوطى فى رحلته إلى المدينة (سنة ۱۸۷۸) عن سكان المدينة فى أيامه.

فهو يقول «ان المقامرة و أنواع اللعب و إدمان شرب العرق و تعاطى المخدرات، كانت توجد فيها كلها ».

و كانت هناك طبقة أخرى من الناس تفضل السكنى فى المدينة و الاعتزال فيها، و هى طبقة الناس الذين لا يقيمون وزنا للأغراض و المباهج الدنيوية.

و كان هؤلاء يكرسون حياتهم للعيش بين أطلال الماضى المقدس للمدينة، و جمع الأحاديث النبوية لدراستها و تمحيصها، علاوة على تفسيرها و توضيح ما ترمى اليه، و مقدار مطابقتها للسنة و الأجماع فى المدينة.

و أبرز شخصية من بين هذه الطبقة مالك بن أنس (المتوفى سنة ۱۷۹ - ۷۹۵) صاحب الموطأ، الذى كان و هو مؤسس المذهب

المالكى يجمع الكثيرين من تلاميذه حوله و يفقههم فى أمور الدين. و قد كتب ابن زبالة أحد تلامذته أول كتاب فى تاريخ المدينة (۱۹۹- ۸۱۴) لكنه لم يصل الينا.

و قد كانت المدينة يحكمها فى هذه الفترة حكام يعينهم الخليفة من دمشق أو بغداد. على أنها لم تكن فى عزلة تامة عن التأثر بالحروب التى نشبت خلال القرون الأولى التى تقضت بعد وفاة النبى (ص). ففى أيام يزيد بن معاوية كان شعور أهل المدينة، و حتى الأمويين منهم،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۴

معاديا للخليفة حتى انحاز الكثيرون منهم إلى جانب خصمه عبد اللّه بن الزبير فى مكة. و قد منيت الحملة التى جردها يزيد عليها بقيادة حاكمها عمرو بن سعيد بالفشل. و فى سنة ۶۳- ۶۸۲- ۸۳ ثار أهل المدينة على الخليفة ثورة علنية و عينوا عبد اللّه بن حنظلة قائدا عليهم، ثم شيدوا لها سورا و حفروا خندقا فى الجهة الشمالية منها. لكن يزيدا ساق اليها جيشا يقوده مسلم بن عقبة. فاتخذ هذا مقرا له فى الحرة الكائنة فى شمال شرقى البلدة. و عند ذاك وقعت موقعة الحرة المعروفة التى انتهت باندحار أهل المدينة، بتأثير الخيانة التى بدت من بنى حارثة. و هنا يشكك كاتب البحث بالرواية الثابتة عند المؤرخين المسلمين عن انتهاك حرمة المدينة و أهلها و هتك أعراضها، و سلب أموال الناس فيها، بأمر من يزيد.

و يستند إلى ما كتبه فلها وزن فى هذا الشأن . ثم يستأنف الكتابة و يقول ان الخوارج استطاعوا بقيادة قائدهم أبى حمزة من دحر أهل المدينة فى كبيد قبيل انتهاء الحكم الأموى. لكن أبا حمزة فوجىء بجيوش مروان فذبح فى المعركة.

و حينما تولى العباسيون الخلافة بعد ذلك حاول أخوان علويان، محمد و ابراهيم، من أبناء عبد اللّه بن الحسن الحصول على حصتهما فى الحكم عن طريق القتال. فقد أطلق محمد على نفسه لقب المهدى و ظهر فى المدينة سنة ۱۴۵- ۷۶۲- ۶۳، حيث وجد عددا غير قليل من الأتباع و المؤازرين الذين كان من بينهم مالك بن أنس و أبو حنيفة. و حاول بطرق شتى تقليد النبى، فتمنطق بسيفه و حفر الخندق حول المدينة و فعل أشياء أخرى. لكن الخليفة ساق عليه جيشا يقدر بأربعة آلاف مقاتل بقيادة قريبه عيسى بن موسى، و حينما نصب القناطر فوق الخندق بمد عدد من الأبواب و دخل المدينة تخاذل معظم أتباع المهدى كما كان من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۵

المعتاد أن يحصل لدى أتباع العلويين. و عندما جدد كفاحه أمام الجيش الزاحف خر قتيلا فى المعركة. و بعد عشرين سنة ثار علوى آخر فى المدينة يدعى الحسين بن على ضد العباسيين، و بعد حصول تدمير غير يسير فى المدينة أخرج منها فقتل فى فخ بالقرب من مكة. و يقول بوهل، و هو يبدى لهجة مناوئة للعلويين فى بحثه: ان قتيل فخ هذا قد مجده الحزب العلوى تمجيدا غير يسير برغم الدمار الذى أنزلته حركته فى مدينة الرسول. و لا شك أن هذا هو الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (ع)، على ما جاء فى مقاتل الطالبيين.

و فى أيام الواثق الخليفة العباسى تكبدت المدينة خسائر فادحة من هجمات سليم و بنى هلال عليها. فخف لإنجادها بغا الكبير سنة ۲۳۰- ۸۴۴- ۴۵ و حبس البدو. لكنهم أفلحوا فى الإفلات من السجن حينما غادرها هذا القائد، فاكتشف أمرهم أهل المدينة و قضوا عليهم بأجمعهم و قد أبدى المدنيون محبتهم للخليفة الواثق بندبه و النوح عليه فى ليال متعاقبة بعد موته.

فى أيام الفاطميين و ما بعدهم

و جاء فى دائرة المعارف الإسلامية كذلك أن المدينة قد خمل ذكرها بعد هذا بحيث لم يعد يذكرها المؤرخون إلا فى النادر، و حتى عندما كانت تذكر فإن ما كان يكتب عنها لم يكن شيئا ذا بال فى الأعم الأغلب. و حينما تولى الفاطميون فى مصر، و صاروا يهددون المدينتين المقدستين فى الحجاز، شيد سور خاص حول المدينة فى النهاية. و قد فعل ذلك عضد الدولة البويهى سنة ۳۶۴-

۹۷۴- ۹۷۵، لكن هـذا السور لم يكن يحيط إلا بالقسم الأوسط من البلـدة. و قد أعاد تشـييد هذا السور فى ۵۴۰- ۱۱۴۵- ۴۶ وزير من وزراء زنكى. و لما كان عدد غير يسير من السكان أصبح يعيش فى خارج السور و هو فى هذه الحالة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۶

التى لا تحميهم من هجمات الأعراب فقد شـيد أتابك سورية نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ۵۵۷- ۱۱۶۲ سورا ثانيا يمتد امتدادا أوسع حول المدينـة، و يحتوى على عـدد من الأبـراج و الأبـواب الكبيرة. أمـا السور الحالى (كتب البحث فى أوائل القرن هـذا) الـذى يتراوح ارتفاعه بين ۳۵ و ۴۰ قدما فقد بناه السلطان سليمان القانونى بن السلطان سليم (۱۵۲۰- ۱۵۶۶) من حجر البازلت و الغرانيت، و حفر خندقا مناسـبا من حوله. و قد شق السـلطان نفسه قناة مغطاة و أوصـلها من الجهة الجنوبية إلى داخل البلدة. و أخيرا رفع السور إلى ارتفاع ثمانين قدما فى أيام السلطان عبد العزيز، و بقى على ارتفاعه هذا منذ ذلك اليوم.

فى عهد الاتراك العثمانيين

و بقيت المدينـة تعيش فى ظـل العهـد التركى عيشـة وادعـة هادئـة، لاـ تعبـأ إلاـ قليلا بالعالم الخارجى، و نادرا ما كان يأتى ذكرها فى حدث مهم. و قد ساعد على ذلك وضعها الدينى الخاص و كون الدخول اليها محرما على غير المسلمين. غير أن انقلابا جذريا حدث فيها فى أوائل القرن التاسع عشر. فقد استولى عليها الوهابيون فى ۱۸۰۴، و نهبوا خزائنها، ثم منعوا الحجاج عن زيارة القبر المطهر فيها. و قـد باءت محاولـة بـدرت منهم لتهـديم القبة بالفشل، لكن خزائن اللؤلؤ و الجواهر العظيمة التى كان زوار القبر المطهر قدموها هدية إلى الجـامع الكبير قـد تناهبتهـا الأيـدى الأثيمـة و اختفت من مكانها. و لم يسـتطع طوسون بن الخـديوى محمـد على باشا من استرداد المدينة من الوهابيين إلا فى سنة ۱۸۱۳، و فى معاهدة الصلح المعقودة فى ۱۸۱۵ اعترف عبد اللّه بن سعود بتابعية الأماكن المقدسة فى الحجاز إلى الأتراك. و قـد جاء هـذا الاسترداد بشـىء جديـد واحد على الأقل إلى تلك الأنحاء، و هو إنشاء سـكة حديد الحجاز بين دمشق و الشام و المدينة نفسها سنة ۱۹۰۸. و كان الغرض الرئيسى من إنشائها نقل الحجاج

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۷

إلى البلاد المقدسـة، لكنها كانت لها أهميـة عسـكرية خاصـة كـذلك، و من أجل هـذا تعرضت إلى تخريبات غير قليلة خلال الحرب العالمية الأولى.

و على أثر الصلح الذى عقد بانتهاء الحرب العالمية أخلت الجيوش التركية المدينة فى ۱۹۱۸.

و ظهر فى الوقت نفسه خصم جديـد للملـك حسين فى الحجـاز، و هو الملـك عبـد العزيز بن سـعود الـذى رفع الوهابيين إلى موقف السـيطرة من جديد. فإن حركة الحسـين الجريئة فى انتحال صـفة الخلافة لم تقابل بالتأييد ما بين أمراء العرب، فاضـطره سكان الحجاز إلى التنازل عنها.

و قـد اغتنم ابن سـعود هذه الفرصة و دخل فى تشـرين الأول ۱۹۲۴، بعـد أن أجبر عليا بن الحسـين على مغادرتها. و على هذا سـقطت المدينتان المقدسـتان فى أيدى الوهابيين و أصـبحتا تابعتين إلى المملكة السعودية منذ سنة ۱۹۳۲. و غـدا الوهابيون بمرور الزمن أكثر تساهلا فى السماح بزيارة الجامع الذى يقوم فيه الضريح المطهر و سائر البقع المقدسة، و منعوا التعبد فيها فقط.

وصف المدينة بشكلها الأخير

جاء فى دائرة المعارف الإسـلامية أن المدينـة برغم حظر الـدخول اليها على غير المسـلمين فإن كتابات الرحالة الحديثين على اختلاف أنواعهم تساعـدنا على تكوين صورة واضـحة عنها فى مخيلتنا، يمكن إيرادها هنا بصورة موجزة. فالسـهل الـذى تقع فيه المدينة يقسـم إلى قسم أعلى جنوبى و قسم أسـفل شـمالى، أى «العاليـة» و «السافلـة»، و قـد ورد هـذان الأسـمان حتى فى الكتابات القديمـة. و تمتد

العالية إلى قرية قبا الكائنة على بعد ثلاثة أميال من المدينة، كما تمتد السافلة إلى جبل أحد. و يضم السور القديم المدينة الأصلية فى داخله، كما يضم السور الجديد- المتهدم قسم غير يسير منه فى الوقت الحاضر- ضاحية العنبرية الغربية الواسعة و «برّ المناخة»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۸

الذى يبلغ عرضه حوالى أربع مئة ياردة ما بين السور و المدينة.

و يشار هنا إلى موضع «المصلى» التقليدى. و على طول الجانب الجنوبى من السور يمتد «درب الجنازة» الذى يؤدى إلى المقبرة العامة، و هى مقبرة البقيع، أو «بقيع الغرقد» فى القسم الشرقى من البلدة. و من بين الآلاف المدفونين هنا ابراهيم بن النبى، و زوجاته، و الكثيرون من أصحابه، و العباس، و محمد الباقر، و جعفر الصادق- و قد نسى الكاتب أن يذكر هنا أيضا الإمامين الحسن بن على، و على بن الحسين عليهم السلام و الفقيه مالك بن أنس، و غير هؤلاء كثيرون.

و يقوم فى الزاوية الشمالية الغربية من البلدة القصر المبنى على سورها.

و هناك عدة أبواب فى السور، بما فيها باب الجمعة فى الشرق، و باب العنبرية فى الغرب. و من ينبوع من الماء العذب يقع فى قرية قبا تمتد قناة خاصة إلى البلدة، و كان قد شقها أول مرة مروان حاكم المدينة. و كثيرا ما كان يهمل ترميم هذه القناة و تعميرها فى مختلف العهود، لكنها كانت ترمم بين حين و آخر كما تم على عهد عدد من سلاطين آل عثمان، و آخرهم عبد الحميد الذى رممها بعد أن هدمها الوهابيون.

و قد تعرضت المدينة إلى كثير من الأضرار بفعل السيول و الفيضان فى مختلف الأدوار. فقد تعذر على أهل المدينة فى سنة ۷۳۴ زيارة قبر الحمزة خلال مدة تناهز الستة أشهر بسبب الفيضان. أما شوارعها فهى نظيفة لكنها ضيقة فى الغالب، و لم يبلط منها سوى الشارع الرئيسى و تبنى البيوت بناء متقنا بالحجر، و عدد غير يسير منها يتكون من طابقين أيضا. و هناك عدة بيوت محاطة بحدائق و بساتين، لكن المحاطة ببساتين توجد فى العادة خارج السورين الشمالى و الجنوبى و لا سيما من جهة الجنوب، حيث تتناوب حقول الخضروات و بساتين الفاكهة مع بساتين النخيل و حقول القمح. و يزرع فى المدينة سبعون نوعا من أنواع التمور التى تعد من حاصلات البلاد الرئيسية كما كانت من قبل. على أن حركة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۱۹۹

الحجاج تعد أهم مورد مالى للسكان الذين يؤجرون مساكنهم إلى الغرباء و يزوّرونهم الأماكن المقدسة، كما يعلّمونهم الشعائر و الواجبات الدينية الخاصة بالزيارة. و يلعب «المزوّرون» فى المدينة نفس الدور الذى يقوم به المطوفون فى مكة. أما السكان فقد ذكر الرحالة بورتون (۱۸۵۳) أن نفوس المدينة كانت تبلغ ۱۶۰۰۰- ۱۸۰۰۰ نسمة مع أربع مئة رجل فى الحامية، لكن و يقل يجعل نفوسها فى سنة ۱۹۰۸ ثلاثين ألف نسمة عدا الجند و الحجاج الزوار، بينما يقول البتونى فى رحلته أن نفوسها تبلغ ستين الف نسمة بما فيهم عدد من الأجانب. و يقول الرحالة بورخارت (۱۸۱۵) أن الأسر المتحدرة من سلالات الأنصار الأصليين لا يزيد عددهم على العشر فى المدينة، و أن عددا غير يسير من السكان الشيعة يعيشون فى ضواحيها.

الحرم النبوى

و تتطرق دائرة المعارف الإسلامية إلى ذكر شىء غير قليل عن الحرم النبوى الشريف فى المدينة. فقد جاء فيها أن المدينة مع كونها لا يوجد فيها حرم مقدس يجله الناس منذ العهود الموغلة فى القدم مثل الكعبة، فإنها تباهى من جهة أخرى بالحرم المقدس الذى لا يثمن بثمن عند المسلمين فى كل مكان لأنه يضم بين جدرانه ضريح النبى الأعظم الذى يقصده الحجاج و الزوار من مشارق الأرض و مغاربها. حتى أن بعض الفقهاء يعتبرونه أقدم من الحرم الشريف فى مكة، لكن هذا الرأى لا تؤيده أكثرية المسلمين و لا تعد زيارة الحرم النبوى شيئا إجباريا من ناحية الفرائض الدينية مثل الحج إلى مكة، كما أنه يمكن أن يزار فى أى وقت من أوقات السنة. و

هناك إجماع على أن الرسول الأعظم كان قد دفن فى بيت عائشة، حيث قبر الخليفتان الأولان أيضا. يضاف إلى ذلك أن جميع الروايات القديمة تتفق على أن النبى عليه السلام كان قد بنى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۰

مسجدا بعد وصوله إلى المدينة فى الحال، ثم وسعه بعد فتح خيبر، كما تتفق على أن مساكن أزواجه كانت قريبة من المسجد بحيث يكون من المحتمل جدا أن يكون بيت عائشة و ضريحه صلوات اللّه و سلامه عليه قد أدمج بالمسجد بعد ذلك. و يستفاد من بعض الآيات أن هناك مسجدا آخر كان قد بنى فى المدينة فى أيام النبى (ص)، لكن كيتانى يناقش هذا و يستنتج من كثير من الأحاديث و الأقوال أن موقع المسجد الآخر هذا كان بيت النبى نفسه مع صحنه و عدد من المساكن الأخرى. و إذا كان هذا صحيحا حقا فلا يعلم أحد من هو الذى بنى هذا المسجد. لكنه من المحتمل أنه كان قد شيد بعد وفاة النبى بقليل، لأن تبجيل النبى و تقديره المتزايد ربما كان قد حدا بالمسلمين فى الحال إلى ربط مدفنه بشؤون التعبد و الدين. و لذلك يمكن أن يشار إلى هذا المسجد بكونه مسجد محمد الذى تذكره الروايات و الأحاديث.

و هو عبارة عن بناية بسيطة من الآجر فيها أعمدة من جذوع النخل و سقف من أغصان الشجر. و تقول الروايات كذلك أن عمر بن الخطاب كان قد وسعه، كما وسعه عثمان من بعده و جدد بناءه فشيّده من الحجر و الجص، و جعل سقفه من خشب الساج. و حينما تعيّن مروان عاملا فى المدن شيد فيه مقصورة من الحجر الملون، و لم يضف اليه شيء آخر حتى حل عهد الوليد الذى خول عامل المدينة عمر بن عبد العزيز الخليفة بعد ذلك- بتزيين المبنى إلى حد الفخامة. فاستعان عمر فى هذا الشأن ببنّائين إغريق، و أقباط، و المقول أن امبراطور بيزنطة يومذاك قد تبرع بألف مثقال ذهب و مقدار كبير من حجر الموزاييك لهذا الغرض. و قد أقيمت بهذه المناسبة أربع منارات فوق أركان الحرم، و غطيت السقوف بصفائح الرصاص. و بقى الجامع على حالته هذه من دون أن يطرأ عليه أى تبديل إلى أيام الخليفة المهدى. فبعد أن زار المدينة هذا الخليفة أعيد تشييد الجامع و وسعت مساحته فى سنة ۱۶۲- ۷۷۸- ۷۹ فأصبح طوله

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۱

ثلاث مئة ذراع و عرضه مئتى ذراع. و استدعى الأمر إعادة بنائه فى القرن التالى فتولى ذلك المتوكل فى ۲۴۷- ۸۶۱- ۶۲.

وصف الحرام

و يقول بوهل فى دائرة المعارف الإسلامية أن الجامع، أو الحرم الشريف، الذى جاء إلى الوجود على هذه الشاكلة قد وصفه عدد من المؤرخين و الكتاب العرب فى مختلف العهود مثل ابن عبد ربه (۳۲۸- ۹۴۰)، و المقدسى (۳۷۵- ۹۸۵)، و ابن جبير (۵۸۱- ۱۱۸۲)، و ياقوت كذلك. و لا يمكننا أن نورد هنا من وصف هؤلاء المؤلفين إلا أشياء قليلة. فقد كان الشكل الذى حوفظ عليه باستمرار عبارة عن صحن مفتوح يغطى أرضه الرمل أو الحصباء و تحيط به من جهاته الأربع صفوف من الأعمدة. و فى القسم الشرقى من البهو الجنوبى ذى الأعمدة يوجد قدس الأقداس، أى قبر النبى الأعظم، مع قبرى أبى بكر، و عمر و يصفه ياقوت بأنه مبنى عال يفصله عن سقف البهو ذى الأعمدة فراغ من فوقه فقط. أما بالنسبة لوضع القبور الثلاثة فقد كانت هناك آراء مختلفة فى أيامه. و تقول بعض الروايات أن قبر الزهراء البتول ابنة رسول اللّه يقع فى شمال القبور الثلاثة، بينما تنص روايات أخرى على أن قبرها المطهر موجود فى البقيع. و يحمل ذلك القسم من البهو ذى الأعمدة الواقع فى غرب هذه القبور المقدسة اسم «الروضة»، و هو الأسم الذى سمّاه به النبى عليه السلام. و المقول أن عدد الأعمدة فى البهو كان يبلغ مئتين و تسعين، و كانت الأعمدة فى الجهة الجنوبية منه مزينة بأساطين من الجص، بينما كانت الأعمدة الباقية من الرخام. يضاف إلى ذلك أن الجدران كانت مزينة بالرخام و الذهب و الموزاييك. و يمتد على طول حدود الروضة الجنوبية حاجز يقترن به عدد من الآثار المقدسة للغاية:

مثل بقايا جذع الشجرة التى كان يتكىء عليها النبى محمد (ص)، و منبره

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۲

على الأخص. و قد رغب معاوية، على ما تقول بعض الروايات، فى إزاحتها من مكانها لكن زلزلة عنيفة حصلت فى الحال، فعدل عن رأيه و رفعها بدلا من ذلك فى مبنى يعلو خمس درجات عن الأرض. و أراد الخليفة المهدى بعد ذلك أن يزيل هذا الملحق فأقنع بالتخلى عن رأيه لأن المسامير كانت قد دقت فى المنبر القديم نفسه. و للمنبر ثمانى درجات على ما ينص عليه الوصف، و كانت هناك قطعة من العاج فوق المقعد يستطيع الزوار لمسها. و كانت بقايا جذع الشجرة تقبل و تمسّد بالأيدى، و هذا تقليد لعادات العرب الدينية القديمة. و من نفائس الحرم الثمينة نسخة المدينة الأصلية من القرآن التى أعدها الخليفة عثمان. و للحرم الشريف تسعة عشر بابا، لم يكن يفتح منها غير أربع: اثنان فى الجهة الشرقية و اثنان فى الجهة الغربية. و كانت هناك ثلاث منارات، اثنتان منها فى الجهة الشمالية و واحدة فى الزاوية الجنوبية.

و مع أن الحرم الشريف قد سلم من هزّة بركانية وقعت فى سنة ۶۵۴- ۱۲۵۶ فقد اشتعلت فيه النار خلال السنة نفسها لإهمال صدر من بعض الخدم فدمّر جزء منه. و قد بقى الطلب الذى قدم للحصول على مساعدة خاصة لإعادة بنائه إلى خليفة بغداد من دون جواب لأن الأسرة العباسية الحاكمة كانت تترنح يومذاك قبيل سقوطها الذى تم بعد سنتين. و لم يرمم إلا السقف ترميما موقتا فى السنة التى أعقبت سنة الحريق، و لم ترفع حتى الأنقاض من بين القبور المقدسة، و إنما بقيت على وضعها مدة تزيد على قرنين.

هذا و كان عدد من سلاطين المماليك قد أبدى شيئا من الاهتمام بالحرم المطهر، و منهم بيبرس الأول الذى يقول مجير الدين (القاهرة ۱۲۸۳) انه وضع مشبكا حول قبر النبى و زين السقف من فوقه بينما بعث آخرون العمال و المواد للترميم، و لا سيما المنصور قلاوون فى ۶۷۸- ۱۲۷۹ الذى بعث من يعين موقع القبر و يبنى قبة من فوقه مغطاة بصفائح الرصاص.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۳

على أن الأشرف سيف الدين قابتباى (۱۴۶۸- ۱۴۹۵) كان أول من اهتم اهتماما جديا فعالا، فقوّض المنارة الرئيسية الكائنة فى الركن الجنوبى الشرقى و أعاد بناءها من جديد. و قد وقعت بالحرم الشريف نكبة عظيمة فى سنة ۸۸۶- ۱۴۸۱ حينما هبت عاصفة هو جاء فى المدينة سقطت فى أثنائها صاعقة عليه فدمرت قسما منه، و بذلك تلفت خزانة الكتب بما كان فيها من مخطوطات القرآن الثمينة. و يصف السمهودى الذى أضاع خزانة كتبه هو بالمناسبة أيضا الحريق الذى حصل وصفا مسهبا. على أن السلطان الهميم أوفد عددا كبيرا من العمال و الآلات و المواد فأعيد البناء إلى ما كان عليه فى ۸۸۹- ۱۴۸۴، ثم وسعت القبة التى كانت تعلو الضريح المطهر. و قد أهدى الحرم كذلك حاجز المقصورة المصنوع من النحاس الأصفر. و أهدى السلطان إلى المدينة نفسها بالمناسبة حمامات، و قناة للماء، و طاحونة ماء، مع عدد كبير من الكتب لتعويض ما احترق المدينة المنورة فى أواسط القرن التاسع عشر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۴

من كتب الخزانة الموجودة فى الحرم الشريف. على أن سوء الحظ لم يزايل المدينة المقدسة، ففى نهاية سنة ۸۹۸- ۱۴۹۲ أصيب الحرم الشريف بصاعقة مدمرة أخرى هدمت المنارة الرئيسية فيه فأعيد تشييدها. و قد اكتسب الحرم شكله الحالى بعد توسيعه من الجهة الشمالية من قبل السلطان عبد المجيد سنة ۱۲۷۰- ۱۸۵۳- ۵۴، و كان الرحالة بورتون قد شاهد العمل فيه يومذاك قبل أن ينتهى. و تتضمن الكتابات الكثيرة المكتوبة فوق الجدران سورا قرآنية مختلفة و أشعارا من نهج البردة.

و لا شك أن البقاع المجاورة لمدينة الرسول غنية بالقصص و الأخبار التى تقترن بذكره عليه السلام. و أهم هذه كلها جبل أحد و قبور أبطال لمسلمين الذين وقعوا شهداء للعقيدة و الدفاع عن بيضة الإسلام هناك.

و يضاهى ذلك فى القدسية قرية قبا التى نزل بها النبى محمد (ص) قبيل دخوله إلى المدينة عند هجرته اليها، و بقى فيها من يوم الاثنين إلى يوم الخميس. و تقع هذه القرية التى كان يشغلها يومذاك بنو عمرو بن عوف على بعد ميلين عن المدينة على ما يقول

الرحالة بورخارت. و هناك توجد البقعة التى بركت فيها ناقة النبى (المبرك)، كما يوجد المسجد الذى تشير اليه الآية القرآنية الكريمة و قد بنى من تبرعات الناس. و كان هذا المسجد و منارته البسيطة فى حالة خراب حينما شاهده الرحالة السويسرى بورخارت (۱۸۱۵)، لكنه شيد بعد ذلك بالحجر من جديد.

المدينة فى مراجع اخرى

و هناك مراجع كثيرة أخرى من المراجع الغربية تتطرق إلى ذكر المدينة المنورة، و الحقيقة أن جميع من يكتب عن نشأة الإسلام و تاريخه من الغربيين لا بد من أن يأتى على ذكرها بشكل أو آخر، و معظم ما يذكر لا يخرج عن الحقائق التاريخية المدونة فى جميع كتب التاريخ.

لكننا سوف نقتبس هنا بعض ما كتب من هذا القبيل لما له من وجهة نظر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۵

خاصة، أو لما فيه من إشارة إلى بعض النقاط التى لم يذكرها الغير.

فيقول المستر فانيس، المبشر الأمريكى الذى أقام سنين طويلة فى البصرة و اطلع على أحوال المسلمين و تاريخهم، فى كتابه الموسوم «تعرّف على العربى»: .. و على بعد مئتين و خمسين ميلا من شمالى مكة تقع المدينة، التى تأتى فى المرتبة الثانية فى قدسيتها، لأن النبى قد دفن فيها. و تعد زيارتها خلال موسم الحج شيئا مستحبا و ليس إجباريا. و هى مدينة يسكنها ثلاثون ألفا من السكان، و تحتوى على جامع كبير توجد فى داخله غرفة القبر المقدس التى يحرسها بدقة العبيد و الخصيان، و لا يمكن الدخول اليها. و قد دفن فيها النبى محمد (ص) نفسه، و ابنته فاطمة، و أبو بكر و عمر من خلفائه. و هناك بقعة خالية عرف محمد (ص) أنه قال انها يجب أن تبقى كذلك حتى يعود عيسى إلى الأرض فيموت و يدفن فيها. فإن القرآن ينص على أن عيسى صعد إلى السماء و لم يمت، و أن صلبه كان شيئا من تضليل النظر .. و يقول فانيس فى مناسبة أخرى (الص ۳۰) عن الآيات القرآنية الكريمة و نزولها أن تسعين من السور نزلت على النبى فى مكة خلال مدة كفاحه للمشركين من قريش، و هذه آيات نارية بليغة فى بيانها، تؤكد على وحدانية اللّه عز و جل و صفاته الحسنى و الواجبات الدينية و جزاء الآخرة. أما السور الأربع و العشرون الباقية فقد نزلت فى المدينة بعد أن هاجر النبى اليها، حيث أكمل رسالته و وصل إلى الأوج فى قيادته السياسية ..

و يقول جيرالد ديغورى فى كتابه «حكام مكة»: .. و قد قدر للاسلام فى المدينة أن يصبح دولة محاربة، و يستخدم سيف اللّه ببراعته و لم يكن هذا من رأى مؤسسه الأصلى، فقد كان و هو المكى المحجم موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۶

عن سفك الدماء يأمل، قبل أن يمنعه النبلاء من التبشير بدعوته، أن يستولى على مكة بالطرق و الوسائل السلمية. لكنه اضطر بعد أن هاجر إلى المدينة إلى إعداد الجيوش لصد هجمات المكيين التى كان يقودها قريب ثرى من أقربائه، و هو أبو سفيان الصراف .. و يتطرق ديغورى كذلك (الص ۸۱) إلى محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة و العبث بقبر الرسول بقيادة رينو، مما كنا قد فصلناه فى بحثنا عن مكة المكرمة، فى الجزء المختص بها من أجزاء هذه السلسلة من (العتبات المقدسة). فقد هاجم الصليبيون الحجاز من ساحل البحر الأحمر، و ظلوا يعيثون فسادا فيه حتى خفت اليهم الجيوش المصرية بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذى انتدبه الملك العادل، أخو صلاح الدين، لهذه المهمة و جهزه بأسطول نقل أجزاء سفنه من البحر الأبيض و شاهدها فى البحر الأحمر كما فعل الصليبيون من قبل. و فى الهوارة استطاع المسلمون تدمير السفن الصليبية تدميرا تاما، لكن بحارتها حاولوا الالتحاق بالرتل الصليبى الذى توغل فى طريقه إلى المدينة. و فى شعاب البادية الكائنة على بعد خمسة أيام من ساحل البحر و يوم واحد من المدينة هوجم الثلاث مئة محارب صليبى فقضى عليهم قضاء مبرما. و من المئة و السبعين محاربا الذين نجوا من الموت و أسرهم المسلمون، نحر البعض فى منى كما تنحر الأضاحى و قتل بعض آخر فى المدينة نفسها. أما الباقون فقد أخذوا بأسر مذل إلى مصر و طيف بهم فى

الشوارع قبل قتلهم على ملأ من الناس من قبل الدراويش.

و يورد ديغورى فى بحثه أيضا وصف الرحالة المغربى ابن جبير لأولئك الأسرى و الوضع الذى رآهم فيه.

ثم يشرح ديغورى استيلاء الوهابيين على مكة، و استسلام المدينة لهم فى ربيع ۱۸۰۴ (الص ۱۸۷). و ينتقل بعد ذلك (الص ۱۹۴) إلى تجريد الحملة المصرية بقيادة طوسون باشا بن الخديوى محمد على لإخراج الوهابيين من الحجاز سنة ۱۸۱۲. و هو يقول ان طوسون ارتأى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۷

ان يهاجم الوهابيين فى المدينة من ينبع فى ساحل البحر، الكائنة على بعد ستة أيام منها. و كانت المدينة أقوى المدن الحجازية بالتحصين. و لذلك بقى حامية مناسبة فى ينبع و تقدم فى اتجاه المدينة فى كانون الثانى ۱۸۱۲، بعد مناوشات بسيطة دخل قرية بدر الكائنة فى مدخل الجبال التى يجب ان يخترقها قبل أن يسلك الطريق الذاهب إلى المدينة. ثم قصد الصفرة اشتبك مع قبائل حرب التى كانت منحازة إلى الوهابيين، ثم إلى الجديدة مقر حرب الرئيس. و هنا اندحر طوسون بجيشه اللجب بكمين دبرته له قبائل حرب و الوهابيون بعد أن أبلى بلاء حسنا فى المعركة فعاد إلى ينبع.

و يقول ديغورى ان انتصار سعود أمير الوهابيين هذا وطّد مركزه بين العشائر العربية كلها حتى صار يجمع الخاوة من البدو القريبين من بغداد و دمشق و حلب كذلك.

و قد عاد سعود بعد هذا إلى الدرعية حاسبا أن المدينة يمكنها أن تقاوم الجيش الغازى مدة طويلة من الزمن، و أن الأتراك لا بد من أن يرجعوا من حيث أتوا. لكنه كان مخطئا فى ذلك جد الخطأ، فقد وجد طوسون باشا نفسه خلال تشرين الأول ۱۸۱۲ قادرا على أن يحاول محاولة ثانية لإنقاذ المدينة من براثن الوهابية. فنقل معسكره إلى بدر بعد أن دخل فى حلف مع البدو النازلين فى محيطها، ثم قاد أحمد بونابرت قسما كبيرا من جيشه و تقدم نحو المدينة بعد أن استولى على ممر الجديدة الذى شهد الاندحار السابق، حتى وصل إلى ضواحيها. و بعد مناوشات خفيفة مع الوهابيين دخل أحمد ضواحى المدينة نفسها و طرد منها الوهابيين الذين تراجعوا للتحصن فى القسم الأوسط منها، الذى كان على جانب كبير من المنعة. و فى خلال الحصار الذى استدام اسبوعين هاجم الوهابيون من الداخل الجيش المحاصر عدة مرات. و بعد أن نسفت فتحة كبيرة فى السور دخل الجيش التركى (أو المصرى) إلى المدينة و اشتبك فى معركة رهيبة قتل فيها حوالى ألف وهابى فى الشوارع و الطرقات، و نهبت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۸

البلدة نفسها، بينما لم يقتل من الأتراك سوى خمسين. و كان أول الداخلين إلى مدينة الرسول، على ما يقول ديغورى، رجل سكوتلاندى يدعى توماس كيث (الص ۱۹۹) كان قد تطوع فى الجيش المصرى باسم ابراهيم أغا. لكن ألفا و خمس مئة وهابى ظلوا محاصرين فى القلعة ثلاثة أسابيع، و لم تكن عند الأتراك مدفعية قوية يمكنها أن تهدّ أسسها الصخرية. إلا أن القائد أحمد بونابارت تعهد للوهابيين المحاصرين بالنجاة بأنفسهم إذا ما استسلموا، فتم الاستسلام و رحلوا عائدين إلى نجد. و قد جمع هذا القائد جماجم الوهابيين الذين قتلوا فى المدينة و أنشأ منها نصبا تذكاريا فى مبدأ الطريق الذى يخرج من المدينة إلى ينبع، ثم وضع الحرس للمحافظة عليه. لكن سكان المدينة استطاعوا مع ذلك أن يمحوا هذا الأثر بالتدريج.

و فى هذه الأثناء وصل الخديوى محمد على نفسه إلى الحجاز ليعد العدة للقضاء على الوهابيين فى عقر دارهم بعد أن يخرجهم منه. و بعد أن بقى مدة و جيزة فى مكة، و عين حسن باشا حاكما فيها، توجه إلى المدينة فوصلها على دون انتظار فى ۱۴ نيسان ۱۸۱۳ و فى حاشيته ثلاثون أو أربعون جنديا فقط يركبون الأبل. و لا شك أنه جاء ليتبرك بزيارة القبر المطهر، و يطلع على الوضع العسكرى و تفاصيله.

أما المستر كلوب، الذى أنشأ الجيش العربى فى المملكة الأردنية الهاشمية و عاش فيها كما هو معروف مدة من الزمن، فيبحث

بالتفصيل عن تاريخ المدينة المنورة و دورها فى نشأة الإسلام و ذلك فى كتابه البارع عن «فتوحات العرب الكبرى ». فهو يعمد إلى وصف مدينة الرسول نفسها (الص ۵۶) و يقول ان الوادى الذى تقع فيه المدينة كان يمتلىء ببساتين النخيل النضرة و حقول الزرع اليانعة، التى تهدىء أعين المسافرين الواصلين اليها أبدا و دوما بعد تعرضها لسطوع الشمس المعشية موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۰۹

فى البادية. و تنتشر فى ذلك الوادى الفسيح منازل عدد من المجموعات القبلية المختلفة التى تعيش كل منها فى قريتها المختصة بها المتألفة من الأبراج و البيوت الحصينة، المبنية بالطين و الحجر. و بعد المرور ما بين صخور الجبال الجرداء المحرقة كان هذا الوادى يبدو مريحا مطمئنا يشعر الرائى بالهدوء و الخصب، و بالقناعة و السكون.

ثم يقول عند اختيار النبى (ص) للأرض التى بنى فيها مسجده الأول فى المدينة ان بستانا مهجورة من بساتين النخيل الكائنة فى وسط الواحة اشتريت بعد أيام معدودة من وصوله بمبلغ من المال يعود لأبى بكر الصديق. و بدأ العمل بإنشاء مسجد و بيت لا يختلف كثيرا عن الكوخ ليسكن الرسول الأعظم فيه. فأخذ المهاجرون القادمون من مكة و أنصار المدينة يعملون و يكدون فى البناء و هم يغنون، و يقطعون اللبنات و الأحجار فيبنون بها الجدران، و على رأسهم محمد (ص) نفسه. و كان من جملة ما تغنوا به قولهم:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار و المهاجرة

و يحلل المستر غلوب غزوات النبى و معاركه تحليلا بارعا فى كثير من الأحيان. و من جملة ما يقول فى موقعة الخندق و التجاء المسلمين إلى حفره (الص ۸۴) أن الجمود العجيب فى التكنيك الحربى الذى كان يتبعه العرب يمكن أن يلاحظ من ارتباك قريش ارتباكا تاما حينما شاهدوا هذا التطور غير المنتظر، و اعتبروه بكل ازدراء شيئا غير مشرف و غير متفق مع عرف العرب. و لم يفكروا و هم يخيمون فى خارج قطاع المدينة بشن هجوم عام عليها، مع أن عددهم كان ثلاثة أضعاف المقاتلين المسلمين. و على ما هو معروف عند العرب من الاهتمام بالشجاعة الشخصية فى الحرب بدلا من التكتيك المنتظم، هاجم أربعة من خيالة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۰

قريش الخندق نفسه فاجتازوه بقفزة واحدة ليصبحوا فى وسط المدافعين الذين أخذوا ينازلونهم على انفراد. فانبرى على بن أبى طالب لهم كالمعتاد و قتل رئيسهم، و عند ذاك ولى الثلاثة الباقون الأدبار عبر الخندق ...

و باختفاء العدو و تراجعه فى طريق مكة، عاد محمد (ص) تعبا إلى بيته و شرع المسلمون بنزع السلاح عن أنفسهم. و على حين غرة ظهر جبرائيل لرسول اللّه .. و أشار عليه فى آية من آيات اللّه البينات أن لا يلقى السلاح، و أن يهاجم بنى قريظة الذين تآمروا عليه مع العدو. و عند ذاك دعا محمد (ص) المسلمين إلى حمل السلاح من جديد، و قادهم على بن أبى طالب و هم ينشرون راية الرسول الحربية إلى منازل بنى قريظة آخر قبيلة يهودية بقيت فى المدينة .. و كان وصول قوة كبيرة من مكة قد شجع بنى قريظة و أحيا فى نفوسهم الأمل فى الانتقام، فاتصلوا بقريش. لكن انسحاب قريش و تقهقرهم الفجائى جعل اليهود وجها لوجه أمام المسلمين الغاضبين .. و قد وافق محمد (ص) على إحالة أمرهم إلى سعد بن معاذ شيخ الأوس، و حليف اليهود الأسبق. و كان سعد من أوائل من اهتدى للإسلام من أهل المدينة، و قد حمل راية قبيلته فى موقعة بدر الكبرى.

و كان حينما أحيل اليه أمر البت فى جريمة بنى قريظة يكابد آلام الموت من سهم أصيب به فى أثناء الحصار. و ربما كان يعانى مرارة الخيبة كذلك فى موقفه ذاك بعد أن كان صديق اليهود من قبل. و لهذا أصدر قراره يقتل كل رجل من رجال بنى قريظة، و سبى النساء و الأطفال، مع نهب ما يملكون. فرحب النبى بالحكم و اعتبره حكما عادلا ثم أمر بتنفيذه .. و قبل التنفيذ عرض عليهم أن يعتنقوا الإسلام، فكان بوسعهم أن ينتقلوا من سوية المجرمين المحكوم عليهم إلى سوية المستولى عليهم بمجرد ترديد جملة بسيطة، لكن قليلا منهم فضل الاستفادة من هذه الفرصة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۱

الفتنة الكبرى فى المدينة

على أن من أهم ما يسهب به المستر غلوب من تاريخ المدينة المنوره فى صدر الإسلام، الفتنة الكبرى التى أدت إلى مقتل الخليفة عثمان (الص ۲۹۷- ۳۰۷). فهو يشيد بمنزلة عثمان و شهرته حينما تولى الخلافة، و يذكر خدماته للإسلام، و لا سيما ما عمله فى جمع القرآن و يقول ان القرآن الكريم كان قد كتب فى خلافة عمر، لكن عددا من المتون ظهرت للوجود بعد ذلك فأمر عثمان بإعداد متن واحد و بذل جهده فى جمع المتون الأخرى و إتلافها فى المدينة. ثم يقول ان الاستيلاء المتزايد الذى حصل فى أيام عثمان لم يكن موجها اليه شخصيا بقدر ما كان موجها إلى الحكام الذين عينهم فى الأمصار. و حينما اتهم بمحاباة الأقارب أجاب بأن اللّه عز و جل نفسه أمر بأن يكون «الأقربون أولى بالمعروف»، و ذهب إلى أبعد من ذلك فانتقد الشيخين لأنهما لم يراعيا الأقارب فى حكمهما .. و لا شك أن تجرد الكثيرين عن التقوى من مرشحى عثمان للحكم و تركهم التمسك بأمور الدين بصورة علنية، و كونهم كانوا هم و آباؤهم من أشد أعداء الرسول و مناوئيه، قد استفز الكثيرين من المسلمين المتدينين الأقحاح فى المدينة و مكة. فقد كان الصحابة لا يزالون كثيرين فى عددهم، و لا سيما من حارب منهم فى موقعتى بدر و أحد، أو من شهد صلح الحديبية. و لا ريب أن جميع هؤلاء كان يسوؤهم جدا أن يتولى الحكم فى الإسلام أعداء النبى .. ثم يتطرق إلى معاملة عثمان لعبد اللّه بن مسعود و أبى ذر الغفارى، و يخرج من ذلك إلى القولى بأن الخليفة عثمان مع كونه كان مستعدا لعزل الكثيرين من الحكام و القواد لأدنى بادرة استياء تبدر من المسلمين تجاههم، فإنه لم تكن هناك قوة تستطيع التأثير عليه لكى يعزل مرشحيه الأمويين.

و يتطرق بعد هذا إلى انتشار الفتنة فى الكوفة و استياء الناس فيها من تصرف حاكمهم الأموى سعيد بن العاص الذى قال فى خطبة له ذات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۲

يوم أن «السواد بستان قريش». كما يتطرق إلى نفى مالك الأشتر من الكوفة إلى الشام، و ما كان له من تأثير فى الثورة على هذا الحكم الفاسد الجائر. ثم يقول ان قادة الإسلام فى المدينة لم يدخروا وسعا فى تقديم النصح و المشورة إلى الخليفة، و مطالبته بالاستماع إلى ظلامات الناس و المبادرة إلى القضاء على أسبابها أو بالعمل على إطفاء الفتنة المتسعة بالقوة.

و يبدو أنهم قد يئسوا فى الأخير من تردده، على حد تعبير ديغورى، فتركوه إلى مصيره. فقد انسحب من الميدان مجلس الشورى الذى انتخبه نفسه، و هم على بن عم النبى، و الزبير الذى تسلق أسوار حصن بابيلون، و طلحة بالإضافة إلى السيدة عائشة زوجة النبى. لكن عمرو بن العاص، فاتح مصر الذى عز له عثمان عن ولاية مصر ليعين أخاه فى الرضاعة بدلا منه (عبد اللّه بن أبى سرح)، كان منشغلا يومذاك بزرع بذور الفتنة و التذمر فى المدينة كذلك.

و حينما حج الخليفة إلى مكة سنة ۶۵۵، انتهز فرصة الحج و جمع ولاة الأمصار ليأخذ رأيهم فى تدنى الحالة و استياء الناس فى كل مكان.

فأشار عليه ابن أبى سرح «جابى الضرائب» فى مصر بأن يستخدم المال المتكدس فى خزائنه لأن الناس تعشق المادة، و قال له معاوية إن الذنب ذنب الحكام أنفسهم، لكن والى البصرة الشاب عبد اللّه بن عامر أشار عليه بأن يسوق الجيوش للجهاد و الفتح لتبتعد عن الفتنة، و لا يتيسر الوقت الكافى للناس بالتفكير فيها.

و بينما كان الولاة مجتمعين فى مكة وضع الثوار فى الكوفة و البصرة و الفسطاط خطتهم على ما يقول غلوب، و نضجت ثورتهم، و فى أوائل سنة ۶۵۶ بدأوا بزحفهم على عاصمة الخلافة، و خيم كل فريق منهم على حدة فى خارج المدينة. ثم بعثوا بنفر منهم لمفاوضة الإمام على و الزبير و طلحة، لكن قادة الرأى العام المسلم هؤلاء أنّبوا الثوار على شغبهم و أعمالهم الاستفزازية. على أن عليا زار فى الوقت نفسه الخليفة عثمان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۳

و طلب اليه عزل عبد اللّه بن أبى سرح من مصر، و بعثت السيدة عائشة اليه بالرأى نفسه أيضا. فوافق الخليفة الشيخ على ذلك و رجا مشيريه أن يرشحوا له واليا جديدا لمصر.

ثم يقول غلوب انه من المؤسف أن يسجل بالمناسبة أن محمدا بن أبى بكر كان أحد قادة الفتنة فى مصر. و أن الفرق بين هذا المحرك العنيف الطموح و والده الصارم الوديع فى الوقت نفسه. و أخص أصحاب الرسول، ليدل على الانحطاط الذى طرأ على سلوك الجيل الإسلامى الجديد الذى نشأ فى وسط الترف و الثراء. و قد طلب ممثلو الجيش المصرى تعيين هذا الشاب الطموح ليكون قائدا لهم فأذعن الخليفة للطلب. ثم يتطرق غلوب إلى التطور الذى حصل بعد ذلك فأدى إلى رجوع الثوار إلى المدينة بعد أن بدا للجميع أن العاصفة قد هدأت، و كان سبب الرجوع الرسالة التى عثر عليها بيد خادم الخليفة حول قتل محمد بن أبى بكر كما هو معروف ..

و يتابع قوله فيذكر أنه يبدو أن الإمام عليا عليه السلام كان يقوم بدور الوسيط بين الخليفة و الثوار لتهدئة الفتنة و حسم الأمور بالحسنى، و لذلك ذهب اليه و أخبره بحقيقة ما جاء به الثوار من جديد، لكن الخليفة أنكر بشدة معرفته بما حصل و وافق على مواجهة وفد من الثوار أنفسهم. فبيّن له هؤلاء بأن العبد الذى كان يحمل الرسالة كان من عبيده، و أن الرسالة كانت مختومة بختمه. فاعترف الخليفة بكل ذلك لكنه أقسم باللّه على أنه لم يكتب الرسالة، و لم يأمر بكتابتها، كما لم يأمر بإنفاذ العبد. و لا يخفى أن الخليفة كان محقا فى ذلك لأن الذى فعل كل شىء و ورطه بالأمر كان قريبه مروان بن الحكم الذى لم يكن يفارقه فى تلك الأيام .. و حينما لجأ الثوار إلى العنف و طالبوا الخليفة بالتنازل عن الخلافة وعدهم بالنظر فى ظلاماتهم لكنه رفض التنازل عن المنصب الذى رفعه اليه اللّه عز و جل. و عند ذاك اشتد أمر الثوار فانسحب الإمام على عائدا إلى بيته.

ثم تطورت الحالة إلى حد الخطورة، لأن الثوار استطاعوا السيطرة فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۴

هذه الأثناء على قلب المدينة المنورة نفسها، و حاصروا بيت الخليفة من كل جانب، كما امتلأ بهم مسجد الرسول ..

و مما يذكره غلوب فى هذا الشأن قوله ان معظم المؤرخين العرب يصدقون ما أقسم عليه عثمان و يبرئون ساحته من تهمة الرسالة و معرفته بها. كما أن كثيرا منهم يتهمون بها ابن عمه مروان بن الحكم الذى كان قد منحه حصة الحكومة من غنائم إفريقية الشمالية، لأنه كان يدخل عليه فى بيته على الدوام و كثيرا ما كان يتخذه أمينا لسره .. و على هذا فقد طالبه الثوار بتسليم مروان الذى كان مختبئا فى دار الخليفة نفسه لكن الخليفة أبى أن يسلمه اليهم. أما سائر الأمويين فقد أفزعهم وضع الثوار و أخافهم، فتخلوا عنه فى وقت الشدة هذا و اختفى بعضهم فى مخابىء مختلفة ثم فر بعضهم الآخر إلى دمشق ليحتموا بمعاوية.

و على هذه الشاكلة أدت الفتنة إلى ما هو معروف فى كتب التاريخ عن قتل عثمان، و اضطراب أحوال المسلمين من جراء ذلك بعد أن اغتنم معاوية الفرصة ليجر المغنم له و لبنى أمية. و مما يشير اليه غلوب فى هذه المناسبة أن الخليفة عثمان بعث يطلب الماء من الإمام على عليه السلام حينما حوصرت داره، فبعث اليه الإمام بثلاث قرب ملأى به و لم يستطع عبيد بنى هاشم إدخالها إلى الدار المحاصرة إلا بشق الأنفس. و أن محمد بن أبى بكر استنجد فى هذه الفتنة بعشيرته تيم حينما حوصرت دار الخليفة، و أن عليا عليه السلام و طلحة، و عددا آخر من الصحابة، بعثوا بأبنائهم ليحرسوا دار الخليفة و يذبون عنه الأذى .. و حينما اشتبك هؤلاء مع الثوار أصيب الإمام الحسن (ع) بعدة جروح حتى سالت منه الدماء فتغطى بها جسمه، و جرح كذلك محمد بن طلحة و مروان.

و بعد أن قتل الخليفة بهذا الشكل المؤسف خف إلى داره الإمام على و الزبير و طلحة و أسفوا جد الأسف لما حدث، و وبخوا الثوار على ما بدر منهم .. و يقول غلوب كذلك ان جثة الخليفة القتيل ظلت مطروحة ثلاثة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۵

أيام فى بيته من دون أن يجرأ أحد على نقلها لتدفن فى المقبرة. و فى مساء اليوم الثالث خرج موكب صغير من الدار المشؤومة فى ظلمة الليل المعتمة و هو يحمل جنازة الخليفة على الأكتاف، و كان الموكب يتألف من الإمام الحسن و الزبير بن العوام و بعض أقارب الخليفة و خدامه. و مع ذلك فقد علم الثوار بالأمر و أخذوا يرشقون الجنازة بالحجارة. و بهذا دفن أمير المؤمنين فى قطعة صغيرة من الأرض تقع فى جوار المقبرة العامة الكائنة فى خارج المدينة.

و آخر ما يذكره غلوب عن هذه الفتنة، أنه يحلل شخصية الخليفة الثالث و مقدار نجاحه فى الحكم ثم يقول انه كان يعيش عيشة مترفة و يتقبل الهدايا، مع أن ترفه البدائى كان شيئا لا يمكن أن يقارن بترف ملوك بيزنطة و المدائن بطبيعة الحال. و مع هذا فقد كان النبى عليه السلام و الشيخان من بعده يزهدون فى مباهج الدنيا و عرضها الزائل و يمشون حفاة بين الناس و عليهم اللباس الصوفى الخشن، حتى بعد أن كانوا قابضين على السلطة السياسية بأيديهم .. و قد كانت أيام عثمان أياما صعبة، و كانت استمرارية النصر الإسلامى المؤزر قد دبّ دبيب البطء فيها، و أخذت حرارة الحماسة الدينية المتطرفة تخف و تبرد. و لكن عثمان لو كان عمرا آخر لاستطاع أن يقف فى وجه العاصفة.

المدينة فى كتاب دونالدسون

و لقد أفرد الدكتور دونالدسون فى كتابه «عقيدة الشيعة» الذى سبقت الإشارة اليه مرات عديدة فى أجزاء هذه المجموعة السابقة فصلا خاصا عن المدينة المنورة بعنوان «مدينة الرسول و آل بيته». و يستهل هذا الفصل بقوله ان المدينة بلدة صغيرة يقدر اتساعها بنصف اتساع مكة موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۶

المكرمة، لكنها أخصب من مكة فى أرضها. ففيها مياه جارية و بساتين للنخيل تجود بأحسن أنواع التمور، و منها تمور البردى و العوجة التى لا يزرع أحسن منها فى سائر البلاد. و معظم سكانها سمر البشرة، و أكثرهم يشتغل بالتجارة.

ثم يورد دونالدسون أشياء كثيرة عن فضل المدن و قدسيتها، و ينقل روايات و أحاديث عدة فى هذا الشان عن «نزهة القلوب» للمستوفى.

و يقول بعد ذلك أن المستوفى الذى كتب كثيرا عن المدينة فى القرن الرابع عشر للميلاد لم يذكر شيئا عن الحالة المؤسفة التى كان عليها قبر النبى المطهر فى ذلك الوقت، و ما قبله بقرن واحد. فمنذ أن شبت النار فى الحرم النبوى الشريف سنة ۱۲۵۶ م فهدمت معظمه تقريبا بقيت الأنقاض على حالها ذاك مدة تزيد على القرنين. و فى الأخير عين السلطان المنصور قلاوون موقع القبر الشريف بقبة مغطاة بصفائح الرصاص، و كان ذلك فى السنة ۱۲۷۹ ميلادية. و فى ۱۴۸۱ انقضت على هذا البناء المتواضع صاعقة من السماء فأحرقت ما فيه، و لا سيما خزانة الكتب و ما كان فيها من مخطوطات ثمينة للقرآن الكريم. فأعيد بناء الحرم هذا على أحسن وجه سنة ۱۴۸۴ فوسعت القبة، و أقيم سياج من النحاس الأصفر حولها.

و فى عهد الأسرة الصفوية المالكة فى إيران (۱۵۰۲- ۱۷۳۶) حدثت حروب عديدة متطاولة بين إيران و تركية فأصبح من الصعب جدا على الحجاج الشيعة الحج إلى بيت اللّه الحرام و زيارة الحرم النبوى الشريف فى المدينة. ثم يقول دونالدسون (الص ۱۴۳) ان الشاه عباس و غيره من ملوك الصفويين هم الذين كانوا يضعون العراقيل فى هذا الشأن من أجل تشجيع المشاهد و المزارات الموجودة فى داخل الحدود الإيرانية، ليعملوا على الاحتفاظ بالمبالغ الكبيرة من المال التى كان زوار إيران و حجاجها قد تعودوا على صرفها فى الخارج.

و ما انتهى القرن الثامن عشر للميلاد حتى كان الأتراك قد استولوا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۷

على العراق و الحجاز استيلاء تاما، و أصبح السلطان التركى الخليفة المعترف به فى العالم الإسلامى كله عدا إيران. و عند ذاك

صارت المدن و العتبات المقدسة تدار على أسس مالية و اقتصادية، و عادت حركة الزيارة و الحج إلى الازدهار فأخذت الألوف المؤلفة من الناس تقصد العتبات المقدسة فى النجف و كربلا و بغداد و سامراء من إيران للتبرك بالأضرحة المطهرة، و ترتجى شفاعة الأئمة الثاوين فيها. و صار الذين يقصدون مكة للحج من هؤلاء يهتمون اهتماما خاصا بزيارة المدينة المنورة للصلاة فى الحرم النبوى الشريف الموجود فيها، و التبرك بزيارة قبر الزهراء البتول و قبور الأئمة المعصومين الحسن، و زين العابدين، و محمد الباقر، و جعفر الصادق.

و كانت حركة الحجاج و الزوار هذه تعود بالنفع الكبير على الحكومة التركية و سكان البلاد المقدسة، غير أن قدوم آلاف المسلمين من جميع أنحاء العالم سعيا فى طلب الشفاعة من نبيهم المتوفى و الأئمة من أبنائه كان يستثير حنق القبائل الوهابية القوية فى الحجاز و غيره، فاضطلعت بدور المصلح الدينى و أعلنت أن مثل هذا التعبد يعتبر شيئا محرما حتى إذا كان بالقرب من قبر النبى نفسه. فهاجمت المدينة فى سنة ۱۸۰۴، و نهبت ما فيها من خزائن و نفائس، ثم منعت زيارة قبر الرسول. لكنهم لم يتوفقوا فى تهديم القبة المقامة فوق القبر المطهر.

و حينما استعاد الأتراك سيطرتهم على البلاد المقدسة فى ۱۸۱۸ اتخذ السلطان عبد المجيد العثمانى التدابير اللازمة لإعادة تعمير الحرم النبوى الشريف فى المدينة. و كان هذا التعمير قائما على قدم و ساق ما بين سنتى ۱۸۴۸ و ۱۸۶۰، فكلف مبلغا يناهز السبع مئة ألف باون استرلينى، لكن المعتقد عند البعض أن هذا المبلغ تدخل فيه قيمة الجواهر التى أودعها السلطان فى الروضة المقدسة. و هذا هو شكل الحرم الذى ظل قائما حتى السنين الأخيرة، فوصفه الرحالة بورتون (۱۸۵۳) كما سيتضح مما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۸

سنورده بعد هذا، و ويقل (۱۹۰۸)، و البتونى (۱۹۱۰)، ورتر (۱۹۲۸) الذى سنشير اليه بعد هذا أيضا.

و بقيت مكة و المدينة تابعتين إلى الدولة التركية حتى سنة ۱۹۱۸، حين تنازلت عنهما إلى الشريف حسين ملك الحجاز بمقتضى شروط الصلح التى انتهت بموجبها الحرب العالمية الأولى. لكن الملك حسينا لم يستطع المحافظة على سيطرته فى البلاد، و ظهر الوهابيون على مسرح الحوادث من جديد فاستولوا على مكة و المدينة و يقول دونالدسون فخيم الحزن و الأسى على الكثير من البلاد الإسلامية خوفا من أن يؤدى ذلك إلى إقدام الوهابيين على العبث بمقدساتهم، و يحق لهذه البلاد أن تفزع لهذا الخبر لأن الوهابيين يعتقدون أن زيارة القبور تعتبر نوعا من أنواع الشرك. على أن استيلاءهم على المدينة لم يكن ينطوى على الخطر المأمول بالنسبة لقبر النبى نفسه. فقد كان علماء الدين الوهابيون تواقين إلى تهديم القبة، و إعادة بناء الحرم الشريف من دون إدخال القبر فيه، لكن ابن سعود استعمل دهاءه السياسى للحيلولة دون ذلك، لئلا يثير عليه عداء العالم الإسلامى كله. و بذلك سلم قبر الرسول الأعظم من العبث، لكن حماسة الوهابيين الدينية سمح لها بأن تمارس ما تريد من العنف فى تخريب الأضرحة و القبور الموجودة فى البقيع.

و خير من وصف البقيع بعد أن خربه الوهابيون و عاثوا فسادا فيه من الغربيين ايلدون رتر الذى زار البلاد الحجازية فى ۱۹۲۵. و سوف نورد وصفه هذا فيما بعد. ثم يتابع دونالدسون حديثه عن المدينة فى فصله الخاص و يقول ان هذا العبث بالأضرحة المقدسة يمكن أن نقف على عقيدة الشيعى المخلص فيه مما كتبه المستوفى عن مقبرة البقيع قبل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۱۹

الوهابيين بمدة غير يسيرة. فهو يقول ان مقبرة المدينة المسماة بالبقيع تقع فى الجهة الغربية من المدينة، و فيها يشاهد قبر ابراهيم نجل النبى الأوحد، و قبور بناته كذلك. و قد دفن الخليفة عثمان فيها أيضا. و دفن فيها كذلك أمير المؤمنين الحسن، و العباس عم النبى، و الأئمة المطهرون زين العابدين، و محمد الباقر، و جعفر الصادق سلام اللّه عليهم أجمعين. و يورد دونالدسون كذلك نصا عن البقيع من رحلة ابن جبير الرحالة المغربى المعروف. و اليك النص الأصلى الوارد فى الرحلة هذه بعنوان «ذكر المشاهد المكرمة التى ببقيع الغرقد و صفح جبل أحد »:

... فأول ما نـذكر من ذلك مسـجد حمزة رضـى اللّه عنه، و هو بقبلى الجبل المـذكور، و الجبل جوفىّ المدينة، و هو على مقدار ثلاثة أميال.

و على قبره رضـى اللّه عنه مسـجد مبن. و القبر برحبـة جوفى المسـجد، و الشـهداء رضـى اللّه عنهم بأزائه. و الغار الذى آوى اليه النبى (ص) بأزاء الشهداء أسفل الجبل. و حول الشهداء تربة حمراء، هى التربة التى تنسب إلى حمزة، و يتبرك الناس بها.

و بقيع الغرقـد شـرقى المدينـة، تخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع، و أول ما تلقى عن يسارك عنـد خروجك من الباب المـذكور مشـهد صـفية عمة النبى (ص)، أم الزبير بن العوام رضى اللّه عنه. و أمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدنى، و عليه قبة صغيرة مختصـرة البنـاء. و أمـامه قبر السـلالة الطـاهرة، ابراهيم ابن النبى (ص) و عليه قبـة بيضـاء. و على اليمين منها تربـة ابن لعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط، و هو المعروف بأبى شحمة، الذى جلده أبوه الحد فمرض و مات

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۰

و بأزائه قبر عقيل بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و عبد اللّه بن جعفر الطيار رضى اللّه عنه و بأزائهم روضة فيها أزواج النبى (ص).

و بأزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبى (ص). و تليها روضة العباس بن عبد المطلب و الحسن بن على رضى اللّه عنهما و هى قبـة مرتفعـة فى الهواء، على مقربـة من باب البقيع المـذكور، و عن يمين الخارج منه، و قبراهما مرتفعان عن الأرض، متسـعان مغشـيان بألواح ملصـقة أبدع الصاق، مرصـعة بصـفائح الصـفر و مكوكبة بمساميره على أبدع صفة و أجمل منظر و على هذا الشكل قبر ابراهيم ابن النـبى (ص). و يلى هـذه القبـة العباسـية بيت ينسب لفاطمـة بنت الرسول (ص)، و يعرف بـبيت الحزن، يقـال انه الـذى آوت اليه و الـتزمت فيه الحزن على مـوت أبيهـا المصـطفى (ص). و فى آخر البقيع قـبر عثمـان الشـهيد المظلـوم، ذى النـورين و عليه قبـة صـغيرة مختصرة. و على مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم على رضى اللّه عنهما. و مشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين و الأنصار رضى اللّه عنهم أجمعين.

و على قبر فاطمة المذكورة مكتوب «ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد» رضى اللّه عنها و عن بنيها.

و يبحـث دونالـدسون فى كتـابه (الص ۱۴۷) عن أهميـة زيـارة المدينـة من الناحيـة الدينيـة، فينقـل اخلال ذلك أقوالا كثيرة من كتب الشـيعة، و أخصـها كتاب «تحفة الزائرين» للملا محمد باقر المجلسى (۱۶۹۹ م) فيقول مثلا ان عـددا من الأئمة المعصومين الأثنى عشـر يروى عن النبى أنه قال «من زارنى حيا أو ميتا كنت له شـفيعا يوم القيامـة». و روى عنـد كـذلك أنه قال «من زارنى غفرت ذنوبه و لم يصب بالفقر و الفاقة».

و يتطرق دونالدسون كذلك (الص ۱۴۸) إلى كيفية زيارة الحرم الشـريف، و المراسيم التى يجب أن يقوم بها الحاج عند دخوله اليها. و قد رأيت من المناسب أن أورد هنا النص الذى جاء فى «مفاتيح الجنان»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۱

للشيخ عباس القمى (الص ۳۱۵) لأنه يطابق ما يذكره دونالدسون فى الغالب:

... فإذا وردت إن شاء اللّه تعالى مدينة النبى فاغتسل للزيارة، فإذا أردت دخول مسـجده فقف على الباب و استأذن بالاستئذان الأول، و ادخل من باب جبرائيل و قدم رجلك اليمنى عند الدخول، ثم قل:

اللّه أكبر مئة مرة ثم صل ركعتين تحية المسـجد، ثم امض إلى الحجرة الشـريفة فإذا بلغتها فاستلمها بيدك و قبلها، و قل السلام عليك يـا رسول اللّه .. ثم قف عنـد الأسـطوانة المقدمـة من جـانب القبر الأـيمن مستقبل القبلـة و منكبك الأيسـر إلى جانب القبر و منكبك الأيمن مما يلى المنبر فأنه موضع رأس النبى (ص) و قل أشهد أن لا اله إلا اللّه وحده لا شريك له ...

فإن كانت لك حاجـة فاجعل القبر الطاهر خلف كتفيك و اسـتقبل القبلـة و ارفع يـدك و سل حاجتك فإنه أحرى أن تقضـى إن شاء اللّه تعالى .. و قال الشـيخ فى المصـباح فإذا فرغت من الـدعاء عند القبر فأت المنبر و امسـحه بيدك و خذ برمانتيه و هما السـفلاوان و

امسح وجهك و عينيك به و قم عنده و احمد اللّه و أثن عليه و سل حاجتك فإن رسول اللّه (ص) قال: ما بين قبرى و منبرى روضة من رياض الجنة، و منبرى على باب من أبواب الجنة .. ثم تأتى مقام النبى (ص) فتصلى فيه ما بدا لك، و أكثر من الصلاة فى مسجد النبى (ص) فإن الصلاة فيه بألف صلاة .. و صل فى بيت فاطمة عليها السلام، و أت مقام جبرائيل و هو تحت الميزاب فإنه كان مقامه إذا استأذن على رسول اللّه .. ثم زر قبر فاطمة من عند الروضة، و قد اختلف فى موضع قبرها فقال قوم هى مدفونة فى الروضة أى ما بين القبر و المنبر و قال آخرون فى بيتها، و قالت فرقة ثالثة انها مدفونة بالبقيع، و الذى عليه أكثر أصحابنا أنها تزار عند الروضة و من زارها فى هذه الثلاثة مواضع كان أفضل ...

و يذكر دونالدسون (الص ۱۵۱) بالأضافة إلى ذلك أن هناك عمودا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۲

أدخل فى المسجد يقال انه يحتوى على جزء من النخلة التى كان يتكىء عليها النبى حينما كان يجلس للوعظ، قبل بناء المسجد .. و يقول دونالدسون و هناك تعليمات أخرى عن زيارة البقيع و أدعية تتلى على قبر فاطمة، و الحسن، و زين العابدين، و محمد الباقر، و جعفر الصادق عليهم السلام .. لكن الحاج الذى يزور البقيع اليوم لا- يجد أية قباب مذهبة و لا قبورا مزينة، فإن البقعة جميعها، و المكان الذى يثوى فيه مثل هذا العدد من آل بيت النبى مصطفى، قد أصبحت قفرا مهجررا ..

أئمة البقيع

و لا يخفى أن ذكر الأئمة المطهرين الذين دفنوا فى البقيع بالمدينة، أى الحسن، و زين العابدين، و الباقر، و الصادق عليهم السلام، يرد فى معظم المراجع الغربية التى تبحث فى تاريخ المسلمين و عقائدهم مثل دائرة المعارف الإسلامية و غيرها. لكن أهم من يكتب عنهم بشىء من التفصيل هو الدكتور دونالدسون فى كتابه عقيدة الشيعة. فهو يخصص فصلا واحدا من كتابه لكل أمام من الأئمة الاثنى عشر المعصومين، و منهم أئمة البقيع سلام اللّه عليهم. و مع أن ما يكتبه عنهم فيه الكثير من التجنى و الخبث الذى يؤمل صدوره من مبشر مسيحى مثل دونالدسون، إلا أنه يذكر أشياء تستحق الإشارة و التدوين.

و يستهل بحثه عن الأمام الحسن بقوله انه نودى به خليفة للمسلمين فى الكوفة بعد وفاة والده الأمام على بيومين، و كان ذلك فى شهر رمضان سنة أربعين للهجرة. فبعث برسله و وكلائه إلى السواد و الجبل، و قتل المجرم عبد الرحمن بن ملجم .. و بعد أن يناقش دونالدسون حق الحسن فى تولى الخلافة بعد أبيه يقول ان الإمام عليا سلّم إلى الحسن قبيل وفاته بحضور آل البيت و رجال الشيعة المعروفين، الكتب السرية و سلاحه.

ثم خاطبه يقول: يا بنى أمرنى رسول اللّه أن أوصى اليك و أن أدفع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۳

كتبى و سلاحى، كما أوصى إلى رسول اللّه (ص) و دفع كتبه و سلاحه إلى، و أمرنى أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين.

ثم أقبل على ابنه الحسين فقال: و أمرك رسول اللّه أن تدفعها إلى ابنك هذا، ثم أخذ بيد على بن الحسين ثم قال له و أمرك رسول اللّه أن تدفعها إلى ابنك محمد بن على و اقرأه من رسول اللّه (ص) و منى السلام ...

و يروى أن عليا دعا الحسن و سماه «ولى الأمر» و كذلك «ولى الدم»، أى أنه ترك له أمر الثأر لدمه و الاقتصاص من القاتل.

ثم يتطرق إلى التطورات التى حصلت بعد ذلك فأدت إلى تنازل الإمام الحسن عن الخلافة إلى معاوية، و ينقل فى ذلك عن الدينورى فى أخباره الطوال و عن اليعقوبى فى تاريخه المعروف. و يقول بعد هذا نقلا عن السيوطى ان تنازل الأمام كان مشروطا بعودة الخلافة له بعد معاوية و يتابع دونالدسون بحثه هذا فيذكر أن طول المدة التى تولى فيها الحسن الخلافة بعد أبيه غير أكيد. إذ

يقول المسعودى انها كانت ستة أشهر و ثلاثة أيام، و ان الحسن أول خليفة تخلى عن سلطته لغيره. غير أن المتفق عليه عند الشيعة أن خلافته كانت عشرة أعوام و ستة أشهر، و أن أربعة عشر شهرا منها مارس فيها شؤون الخلافة بالفعل، ثم فوض أمرها إلى معاوية لمدة تسع سنين و أربعة أشهر على سبيل الاضطرار و التقية و حقنا لدماء أتباعه و محافظة على أموالهم و أسرهم من جور معاوية و ظلمه. أما الفرق بين الأشهر الستة التى يذكرها المسعودى و الأربعة عشر شهرا المشار اليها فتفسر بالحادث الذى بايعت فيه المدينة المنورة الأمام الحسن فى خلافة والده الذى نازعه فيها معاوية بحيث جرد جيشا على المدينتين المقدستين بقيادة بسر لأخذ البيعة له، و كانت مكة قد بايعت الأمام عليا و بادرت المدينة إلى مبايعة ابنه الحسن. موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۴

و يذكر بعد ذلك أنه بينما كان الأمام على قد ولد فى الكعبة نفسها، فقد ولد ابنه الحسن فى المدينة أى فى بيت على و فاطمة عليهما السلام و هو البيت الوحيد الذى سمح جبرائيل بأن يكون له باب مطل على صحن المسجد النبوى الشريف. و يتعرض دونالدسون بعد هذا إلى حياة الأمام الخاصة (الص ۷۴) و سيرته فيذكر روايات و آراء تدل على جهله الفاضح بالتاريخ الأسلامى و تحامله الذى لا يستبعد صدوره من مبشر يتطفل على البحث فى مثل هذه المواضيع. و من المؤسف أن يضيق المجال لمناقشته هنا و تفنيد أوهامه و آرائه الخاطئة. ثم يختم فصله عن الأمام المجتبى بالأشارة إلى وفاته فيقول انه عليه السلام قد توفى مسموما بعد محاولات عدة بذلت من أجل ذلك. فقد حاول أعداؤه أن يدسوا له السم فى طعامه عن طريق خادم له يقدم الطعام فاكتشف أمره، و حاولت زوجته جعدة بنت الأشعث الكندى ثلاث محاولات متتالية أن تسمّه بعد أن أغراها مروان على ذلك باسم معاوية و وعدها بأن يزوجها يزيد بن معاوية إذا ما توفقت فى قتله. و كانت أول محاولة لها أنها دست له السم فى العسل فمرض على أثر ذلك مرضا شديدا لكنه تغلب على الجرعة غير القاتلة و حصر شكّه فيها. و لهذا صار يراقبها بحذر لكنها استطاعت أن تدسّ له السمّ الزعاف مرة ثانية فى بضع تمرات ناضجة فسقط مريضا تنتابه الآلام الفظيعة، غير أنه استطاع فى هذه المرة أيضا أن يتغلب على السم و تعود اليه صحته بالتدريج.

و من الغريب أن يذكر دونالدسون أن أعصاب الأمام عليه السلام قد انهدت فى هذه المرة، و شكا لأصحابه من أسقامه و آلامه، فقرر الرحيل إلى الموصل ليبتعد عن زوجته الخائنة. غير أنه وجد هناك رجلا أعمى ظل يتربص به الفرص ليدس له السم بطريقة أخرى أيضا. و لعل دسائس معاوية، الذى كان يهمه أن يقضى على الأمام ليتخلص من الشروط التى اشترطها عليه، ظلت تلاحقه إلى كل مكان يذهب اليه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۵

و لهذا لم يجد الحسن عليه السلام هدوء البال الذى كان يبتغيه فى الموصل فعاد إلى المدينة من جديد، و فيها قرر الابتعاد عن زوجته جعدة و بذل أقصى ما يمكن من الحذر فى مأكله و مشربه. لكن الخائنة استطاعت أن تتسلل إلى مخدعه فى ليلة من الليالى و هى تحمل سما قاتلا مزج بمسحوق الماس، و بينما كان يغط فى نومه وضعت السم فى إناء من الماء كان موضوعا بجنبه. و ما أن شرب جرعة منه فى اليوم الثانى حتى خر صريعا فى الحال و هو يلفظ قطعا من كبده إلى الخارج، حتى قضى نحبه ...

و تقول الرواية انه أوصى أن يدفن إلى جنب جده النبى صلوات اللّه و سلامه عليه، و إذا ما حالت دون ذلك الحوائل، أن يدفن إلى جنب أمه الزهراء فى البقيع فتم له ذلك.

و لما لم نجد ذكرا للمرجع الذى استند اليه دونالدسون فى الرواية الأخيرة وجدنا من المناسب أن ننقل هنا رواية المسعودى فى هذا الشأن.

فقد جاء فى الجزء الثانى (الص ۴۲۷) قوله حدثنا جعفر عن محمد أبيه، عن جده الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، قال: دخل الحسين على عمى الحسن بن على لما سقى السم، فقام لحاجة الأنسان ثم رجع، فقال: لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه، لقد لفظت طائفة من كبدى فرأيتنى أقلبه بعود فى يدى، فقال له الحسين:

يا أخى من سقاك؟ قال و ما تريد بذلك؟ فإن كان الذى أظنه فاللّه حسيبه، و إن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بى برىء، فلم يلبث

بعد ذلك إلا ثلاثا حتى توفى رضى اللّه عنه.

و ذكر أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى سقته السم، و قد كان معاوية دس اليها: انك ان احتلت فى قتل الحسن وجهت اليك بمئة ألف درهم، و زوّجتك من يزيد، فكان ذلك الذى بعثها على سمه، فلما مات و فى معاوية لها بالمال، و أرسل اليها: أنا نحب حياة يزيد،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۶

و لو لا ذلك لوفينا لك بتزويجه. و فى جعدة يقول النجاشى فى شعر طويل:

جعدة بكيه و لا تسأمىبعد بكاء المعول الثاكل

لم يسبل الستر على مثلهفى الأرض من حاف و من ناعل

كان إذا شبت له نارهيرفعها بالسند الغاتل

كيما يراها بائس مرملو فرد قوم ليس بالآهل

و قال آخر:

تأسّ فكم لك من سلوةتفرج عنك غليل الحزن

بموت النبى، و قتل الوصىو قتل الحسين و سمّ الحسن

و فى الفصل المخصص للأمام زين العابدين عليه السلام (الفصل ۹ الص ۱۰۱) يبدأ دونالدسون بالبحث عن انقسام الشيعة فى تولى الأمامة بعد الحسين إلى كيسانية يرجحون محمدا ابن الحنفية، و إمامية يتمسكون بوصية الأمام الشهيد لابنه على زين العابدين. ثم يذكر أن زين العابدين، الذى يسميه عليا الأصغر، كان أحد خمسة نجوا من القتل فى مجزرة كربلا الفظيعة من أسرة الحسين و هم: عمته زينب و أخوه عمر و أختاه، و هو نفسه. و كان عليه السلام لا يقل عمره عن ثلاث و عشرين سنة حينما استشهد والده فى حومة الشرف و المجد، و لم يسهم فى القتال لأنه كان مريضا و من أجل هذا أنقذ حياته عمر بن سعد. و يصفه الدينورى بأنه كان مراهقا يومذاك، و كان أخوه عمر لا- يتجاوز الرابعة من عمره. ثم يورد دونالدسون رواية الدينورى فى أخباره الطوال عن سبى الأسرة الحسينية و حمل الرؤوس إلى عبيد اللّه بن زياد، و إلى يزيد فى دمشق. و يقول ان الخمسة الذين نجوا من القتل الأثيم سمح لهم فى دمشق بأن يعودوا إلى موطنهم فى المدينة، و هناك رووا للناس أوجه النكبة التى حلت فى كربلا.

و كانت دعاية خطرة هيأت الجو للقيام فى وجه الأمويين و جورهم، بعد أن سفكوا دماء آل البيت الزكية .. و قد اغتنم هذه الفرصة عبد اللّه بن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۲۷

الزبير، و كان يومذاك، فى أوائل الستينات من عمره، و كان انتهازيا، طموحا بشكل أنانى، برغم ما كان عنده من قابلية للقيادة و التزعم ..

و يذكر أنه كان على خلاف الباقين قد شجع الأمام الحسين على الذهاب إلى الكوفة لغرض فى نفسه، لأنه عرف مقدما أن الحسين (ع) سيخونه أهل الكوفة و يقتلونه، و أن الجو سيخلو له بعد ذلك فتسنح الفرصة الكبيرة للثورة .. و حينما ثارت ثائرة أهل المدينة لسماعهم بتلك الأنباء المفجعة و الفظائع المخزية التى ارتكبها الأمويون جمعهم عبد اللّه بن الزبير فى المسجد الكبير، و أكد على خيانة أهل الكوفة حين خطب بهم، فأدى ذلك إلى مناداة أهل المدينة، و أهالى مكة من بعدهم، به خليفة عليهم.

و بهذا اتفقت المدينتان المقدستان على الثورة فى وجه يزيد، و تعين فى كل منهما رجل للقيادة. لكن عبد اللّه جعل مقرّه فى مكة وراح يهيج سكان الجزيرة العربية كلها ضد الأمويين. لكن مسلم بن عقبة جرد من دمشق فى الحال سنة ۶۳ ه على رأس حملة تأديبية ضد المدينة و مكة.

و يبدو أن هذه الحملة (واقعة الحرة) كانت على شكل غزوة سريعة لأن ابن الزبير لم يعرف اندحاره فيها، بينما تذكر التواريخ أن عددا من قادة الثورة قد قتلوا فيها و أن سكان المدينة قد تعرضوا لأسوأ أنواع العنف و الأباحة، و انتهكت قدسية الحرم النبوى الشريف. و بعد ثلاثة أيام من التهديم و سفك الدماء جلس مسلم بن عقبة فى ديوانه الرسمى ليتقبل طاعة الذين سلموا من القتل من أهالى المدينة ليزيد، و تقديم عبوديتهم له. و كان بين الذين جىء بهم اليه الأمام زين العابدين عليه السلام، لكنه احتفى به على ما يروى و أجلسه بقربه ثم قال له ان يزيد أوصاه به خيرا.

... و عند ذاك كان أهل الكوفة قد شعروا بالتقصير الذى بدر منهم تجاه الحسين الشهيد، فلم يرضوا بمروان الذى تولى بعد هلاك يزيد و لا بابن الزبير الذى كان معتصما فى مكة. فاجتمعوا بينهم و انتخبوا خمسة

منهم، و هؤلاء تداولوا مع سليمان بن صرد الخزاعى، و قرروا بأن أول ما يجب عليهم أن يفعلوه هو أن يتوبوا إلى اللّه عما بدر منهم فى خذل الأمام الحسين و القعود عن نصرته، فسموا ب «التوابين»، ثم اتفقوا على تطهير الأرض من قتلة أهل البيت، و تعيين الأمام زين العابدين خليفة للمسلمين ... و بعد أن تطورت الأحداث ظهر المختار بن أبى عبيد فى الكوفة مدعيا بأنه يمثل الأمام زين العابدين الذى كان ما يزال باقيا فى المدينة .. و حينما قضى ابن الزبير على المختار لم يتعرض للأمام عليه السلام لأنه كان على علم بعدم وجود صلة للمختار به. و كان الأمام قد تسلم معروضات خاصة منه قبل هذا لكنه ترفع عن الرد عليها، و كان يشجب أعماله على ملأ من الناس فى مسجد النبى.

ثم يتطرق دونالدسون (الص ۱۰۷) إلى قصة الأمام زين العابدين مع عمه محمد ابن الحنفية أيضا، فيقول ان قضية الاختلاف فى تولى الأمامة بين محمد ابن الحنفية و زين العابدين كانت من قضايا الساعة الحيوية خلال فترة الاضطراب التى رافقت حركة ابن الزبير و أعقبتها، و أدت إلى حصول اختلافات بين الشيعة و تكوّن فرقة جديدة منهم. فقد كانت الجهود التى بذلها الحزب الشيعى للحصول على السلطة الدنيوية فى الامبراطورية الإسلامية جهودا فاشلة مرة بعد أخرى، و كانت أول نتيجة لذلك أنهم حوّروا نظريتهم المختصة بالأمامة و صاروا يعتبرون الأئمة قادة روحيين فى الدرجة الأولى، و شفعاء عند اللّه يوم الدين.

و يقول دونالدسون ان ابن الحنفية ذهب بعد موت ابن الزبير إلى مكة مع ابن أخيه زين العابدين ليقررا أيهما الوارث الحقيقى للأمامة.

يدعى أنه أحق منه بها لأنه كان ابن على بن أبى طالب، لكن زين العابدين طلب منه أن يخاف اللّه و لا يأتى بهذه البدعة ثم اتفقا على التحكيم أمام الحجر الأسود فى بيت اللّه الحرام فكانت النتيجة فى صالح الأمام زين العابدين بطبيعة الحال. و لذلك عاد إلى المدينة و عاش فيها عيشة هادئة منعزلة، تفرغ فيها للعبادة و شؤون الدين، و بقى على هذا المنوال مدة تناهز العشرين عاما. و قد عرف بين الناس فى كل مكان بورعه و تعبده، و بحزنه المتواصل على والده عليه السلام، حتى سمّى بزين العابدين، و هو الأسم المسجل له فى الجنة. و يقال انه أحد خمسة أو ستة بكائين اشتهروا فى تاريخ العالم. و مما يؤثر عنه أنه كان يكبّر سبعين تكبيرة فى كل صلاة، و يقرأ القرآن كله من أوله إلى آخره. و كان مشتهرا علاوة على ذلك بحسن تجويده للقرآن وصوته العذب الحنون، و بانصرافه للصلاة آناء الليل و أطراف النهار حتى تخشبت بعض أعضائه من أثر السجود و سمى السجاد كذلك.

.. و لا بد من أنه كان على جانب عظيم من ضبط النفس و كظم الغيظ، فقد روى عنه أن خادما من خدامه أراق على رأسه و رقبته عليه السلام شيئا من الطعام الحار خطأ، فلم يؤنبه و إنما سرّحه و أعتقه باحسان. و مما يروى عن سخائه و كرمه أنه كان يخرج فى المدينة كل ليلة و هو يحمل أكياس القمح و الطحين ليوزعها على بيوت المحتاجين من دون أن يعرفوا هويته، حتى بلغ عدد الأسر التى كان يعينها على هذه الشاكلة ثلاث مئة أسرة. أما خلال النهار فكان يذبح فى كل يوم مئة رأس من الغنم، و يوزعها على الناس. لكن معظم وقته كان يقضيه و هو جالس للصلاة فوق قطعة بالية من الحصير من دون أن يأكل شيئا، لأنه كان يصوم فى الغالب أو

يأكل شيئا من خبز الشعير.

و كان يشبه فى مظهره جده الأمام عليا (ع). فقد كان طوله بطول جده، و كان شعره يميل إلى الحمرة فى لونه، كما كان أبيض الوجه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۰

و الرقبة عالى الصدر كبير البطن. و كان أول أمام يكتفى بأمرأة واحدة، و هى التى أنجب منها الأمام محمدا الباقر (ع) الذى خلفه فى الأمامة.

لكنه أعقب أربعة عشر ولدا غيره من إمائه أو جواريه .. و بعد أن يذكر دونالدسون (الص ۱۱۰) ما وقع للأمام زين العابدين مع هشام بن عبد الملك حينما جاء ليطوف حول الكعبة، و هى القصة التى نظم فيها الفرزدق الشاعر قصيدته المشهورة، يقول ان هشاما هذا أمر بأن يدبر قتله بالسم.

فتوفى سلام اللّه عليه سنة ۹۴ أو ۹۵ للهجرة، و هو فى السابعة و الخمسين من عمره فدفن فى بقيع الغرقد إلى جنب عمه الحسن عليهما السلام. و قد قضى عمره على الوجه التاريخى الآتى: فقد قضى سنتين فى أيام جده على، و عشر سنين من أيام عمه الحسن، و عشرا من إمامة أبيه الحسين، و خمسا و ثلاثين سنة اماما للمسلمين من بعدهم.

و فى الفصل العاشر من كتاب «عقيدة الشيعة» يذكر دونالدسون شيئا غير يسير عن حياة الأمام محمد الباقر عليه السلام، الذى عاش عمره كله فى المدينة المنورة. فهو يقول ان الأمام تولى بعد أبيه السجاد فى السنة الاخيرة من أيام الوليد بن عبد الملك. و كان المجتمع الأسلامى يومذاك قد تقدمت فيه شؤون الثقافة، و تعددت دور العلم. و كان الامام الجديد الذى عاش عيشة منعزلة هادئة فى المدينة، على غرار عيشة أبيه، يعتبر المرجع الأول للعقيدة الشيعية و قد ظل كذلك تسعة عشر عاما تقريبا.

على أن هناك اختلافا فى تاريخ وفاته بين المؤرخين، فيذكر اليعقوبى أن ذلك وقع فى سنة ۱۱۷ للهجرة، بينما يشير المسعودى إلى أنه توفى فى سنة ۱۲۵ أو ۱۲۶ ه.

و قد عرف الباقر بتضلعه فى العلم و تبحّره فيه، و كان يقدر تقديرا فائقا لعلمه هذا و نبل مولده و شرف محتده. و سمى بالباقر على هذا الأساس، لأنه تبقر فى العلم أى توسع، و هو باقر علوم الأولين و الآخرين. و كان قد ولد فى المدينة المنورة فى الثالث من شهر صفر سنة ۵۷ للهجرة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۱

و المقول أنه كان فى الثالثة أو الرابعة من عمره حينما استشهد جده الحسين.

و كانت أمه بنتا من بنات الأمام الحسن تسمى أم عبد اللّه. و كان هشام بن عبد الملك الأموى كثيرا ما يضايقه و يثير الشكوك من حوله. و قد حاججه ذات يوم فى إمامته، و كان من جملة ما أجابه عليه السلام أنه استهل الحديث بالآية الكريمة .. اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا .. ثم قال ان النبى قد كشف للامام على عن أسرار أخرى بعد أن نزل عليه الوحى بها. و من بين آل البيت جميعهم اصطفى الأمام عليا واحدا فقط فجعله موضع ثقته، و انتقل اليه ميراث العلم بالأسرار، فسأله هشام: إذا كان اللّه لم يجعل للنبى شريكا يشاركه فى أسراره، فكيف يدعى على بذلك؟ لكن الأمام الباقر قرأ عليه كثيرا من أقوال النبى و أحاديثه فى هذا الشأن مما يدل على منزلة الأمام على عنده و علاقته به. و حينما سمع هشام كل هذا صمت و لم يحر جوابا، ثم سمح للأمام الباقر و جماعته بالعودة إلى المدينة.

و حينما عزم زيد بن على زين العابدين أخو الأمام الباقر على الثورة ضد الأمويين ذهب اليه فى سنة ۱۲۱ أو ۱۲۲ للهجرة و أخذ رأيه فيما هو مقدم عليه، لكن الأمام الباقر حذر أخاه هذا من الاعتماد على أهل الكوفة و ذكره بما صنعوه بأهل البيت من قبل. على أن زيدا لم يعبأ كثيرا بالتحذير و أعلن الثورة فقتل و علقت جثته على صليب فى كناسة الكوفة، بينما طيف برأسه فى الأمصار. و يشير دونالدسون إلى ما يذكره الشهرستانى فى (الملل و النحل) من أن خلافا كان موجودا بين الأمام الباقر و أخيه زيد لأنه كان يتبع تعاليم

واصل بن عطاء المعتزلى. و كان زيد يتحدث بما ينسبه المعتزلى إلى الأمام على من خطأ فى قتل الخوارج، و بما يقوله المعتزلة من أن دوافعه عليه السلام لم تكن الدوافع التى كان يريدها أهل البيت فى هذا الشأن. و كان زيد يعتقد كذلك بأن الأمامة كانت مشروطة بقيام الأمام علنا للمطالبة بحقوقه. فرد عليه الباقر يقول:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۲

«إذن فأنت لا تعتقد بأمامة أبيك، لأنه لم يقم للمطالبة بحقوقه قط».

و هناك غموض يكتنف سبب وفاة الباقر و الوقت الذى حصلت فيه الوفاة. فيقول بعضهم ان ابراهيم بن الوليد دس له السم، لكن رواية أخرى تقول ان زيدا آخر من أبناء الحسن نازع الأمام على الميراث، و اتفقا على أن يحتكما عند القاضى. و حينما حكم القاضى فى صالح الأمام الباقر استأنف زيد القضية لدى هشام بن عبد الملك. و بتأثير من اتهامات زيد هذا بعث هشام بهدية ذهب إلى حاكم المدينة، و فى صحبتها تعليمات تشير عليه باستحصال الميراث من الباقر، أو المستندات التى يستند اليها فى أخذ الميراث. لكن الأمام الباقر سلم إلى حاكم المدينة صندوقا يحتوى على المستندات المزيفة التى يستند اليها زيد. و هذه أرسلت إلى هشام بن عبد الملك فى دمشق، و حينما اطلع عليها زيد أيقن بأنها مزيفة. و تقول رواية الشيعة ان هشاما أعطى إلى زيد سرجا مسموما، و احتال زيد فى أن يعطى هذا السرج إلى الأمام الباقر فاستعمله و تسرب السم إلى جسمه الطاهر، فقضى نحبه!! و تقول الرواية كذلك ان الحكمة الألهية شاءت أن تقص من زيد هذا فأصيب بمرض عضال فقد فيه عقله و مات .

و يورد دونالدسون ما يروى عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى الذى عاش إلى أيام الباقر، و نقل له حديث الرسول (ص) .. فقد روى جابر أن رسول اللّه قال له ذات يوم: يا جابر يوشك أن تلتحق بولد لى من ولد الحسين اسمه كأسمى يبقر العلم بقرا أى يفجره تفجيرا، فإذا رأيته فاقرأه عنى السلام. قال جابر رضى اللّه عنه فأخر اللّه تعالى مدتى حتى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۳

رأيت الباقر فأقرأته السلام عن جده رسول اللّه (ص) .. ثم يختم الفصل بما جاء من أقوال و معجزات تنسب إلى الأمام الباقر، و بمناقشة يلقى فيها ضوءا من الشك على اعتقاد الشيعة بوفاة الباقر مسموما بتدبير بنى أمية. و مع هذا فيقول فى النهاية ان التحركات التى نشطت ضد الأمويين كانت تزداد شيئا فشيئا فى تلك الأيام بحيث احتجب فى أهميتها الوقت المضبوط الذى انتهت فيه امامة الباقر، الأمام المسالم، و بدت فيه امامة ابنه الصادق، المسالم كذلك.

أمام الامام جعفر الصادق (ع) فيقول عنه دونالدسون (الص ۱۲۹) انه الأمام الذى يشار اليه على الدوام بكونه الحجة فى شؤون الحديث و الشرع الأسلامى. و قد عاش خمسة و ستين عاما (۸۳- ۱۴۸ ه)، و بذلك عمر أكثر من أى امام آخر من الأئمة المعصومين الأطهار. و يجمع الكتاب على أن أمه هى أم فروة ابنة القاسم بن محمد بن أبى بكر. و لم يذكر عن هيئته و أوصافه عليه السلام إلا أنه أبيض الوجه و الجسم، أسود الشعر، أقنى الأنف. كما لم يذكر عن حياته البيتية إلا القليل، فقد كان له عشرة أولاد سبعة منهم من زوجتيه الأصليتين و إحداهما تسمى فاطمة، أما الثلاثة الآخرون فمن إمائه و جواريه

و قد عاش الصادق عليه السلام بعيدا عن السياسة و أحوالها بعدا تاما.

فيذكر المسعودى أن ابراهيم الزعيم العباسى حينما قتله مروان الثانى خشى أبو سلمة أن تفشل الدعوة ضد الأمويين فحاول إقناع جعفر الصادق بأن يأتى اليه شخصيا، فيعلن حقه فى الأمامة، و يتقبل ولاء الخراسانيين له.

على أن الأمام دعا بمصباح و أحرق كتاب أبى سلمة فيه، ثم قال للرسول الذى حمل الكتاب اليه: أخبر سيدك بما رأيت .. و يذكر الشهرستانى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۴

أن معرفة الأمام الصادق بالشؤون الدينية و الثقافية كانت ممتازة، و كان على علم تام بالفلسفة، و بلغ مبلغا عظيما من التقوى، و ترفع

عن الشهوات بالمرة. و قد عاش مدة طويلة فى المدينة بحيث أفاد طائفته و أتباعه إفادة تامة، و نفع أصدقاءه بالعلوم الخفية. و زار بعد ذلك العراق، لكنه لم يظهر للملأ فيعلن امامته، و لم يبحث فى شؤون الخلافة مع أحد.

لأنه كان غارقا فى بحور العلم و المعرفة، من دون أن يروقه أى شىء آخر، فمن يرتفع إلى قمة الصدق لا يخشى التدنى. و بتعبير آخر: أن الذى يتفرغ للّه ينكمش عن البشر لكن من يعتصم بغير اللّه تقضى عليه الشهوات .. و كان الصادق يتصل بشجرة النبوة من جهة الأب بطبيعة الحال و بأبى بكر الصديق من جهة الأم. و يضيف دونالدسون على ذلك قوله انه قال ذات يوم: برئت ممن يذكر أبا بكر و عمر بسوء. و قد يكون موقفه هذا تجاه أهل أمه، أو قابليته فى تقدير المزايا الحسنة فى الخليفتين الأولين، مما ساعده على تحاشى سوء ظن الخلفاء الذين عاصروه به- أى هشام و الوليد و ابراهيم و مروان من الأمويين، و السفاح و المنصور من العباسيين .. و يذكر كذلك عن الكلينى بعض الكرامات و المعجزات، و عن مقابلاته لأبى جعفر المنصور الذى كان يخشاه و يسىء الظن به.

و يظهر مما يذكر عن النمط الذى كان يتبعه الأمام الصادق فى حياته العلمية و غيرها و هو قابع فى حديقته الجميلة فى المدينة، و السخاء الذى كان يبذله فى استقبال زواره فيها من جميع الطبقات، بأنه كان يعقد مجامع للمناقشة، أو يدير مدرسة فلسفية على نمط مدرسة سقراط. فأن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۵

عددا من تلامذته أسهموا اسهاما خطيرا بعد ذلك فى تطور الشريعة و العلوم الدّينية. و قد افتى اثنان من تلامذته بعد ذلك بسنوات، و هما أبو حنيفة و أنس بن مالك، مؤسسا المذهبين الأسلاميين المعترف بهما، إلى سكان المدينة نفسها أن القسم الذى أقسماه عند المنصور لا يمكن أن يعتبر شيئا ملزما لأنه أعطى بضغط و اكراه. و يروى أن تلميذا آخر من تلامذته، و هو واصل بن عطاء مؤسس طائفة المعتزلة، جاء اليه للمناقشة بنظريات أدت إلى طرده من صفوف الأمام الصادق. و كان جابر بن حيان الذى اشتهر بالكيمياء من تلاميذه كذلك.

و قد يكون أبو حنيفة أشد إثارة للاهتمام من تلامذته، و هو الذى كان يلقى محاضرات عامة فى الكوفة تستثير الكثير من العناية و الالتفات.

و كان يعتمد فى استنباط الأحكام على القياس و الرأى، و لذلك انتقده الفقهاء من خصومه فى مكة و المدينة. و لا شك أن أحكامه فى هذا الشأن كانت تتناول الشرع الأسلامى بوجه عام، و لم يكن ما يصدره من هذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۶

القبيل ذا صفة رسمية لأنه كان يرفض على الدوام الدخول فى خدمة الحكومة لتسنم مناصب القضاء. و بذلك استطاع أن يحافظ على مركزه فى أيام الأمويين و العباسيين معا. و من المحتمل جدا أنه كان يشايع العلويين بقوة، و يستاء من الكيفية التى كانوا يعاملون بها.

و يقول دونالدسون بعد ذلك انه من العجيب أن يكون هذان المشرعان المتعاصران قد استطاعا متابعة أعمالهما الشرعية، الأمام الصادق فى المدينة و أبو حنيفة فى الكوفة، مدة طويلة من الزمن فى مثل تلك الأزمنة المضطربة ..

و قد كان أبو حنيفة يقدر جد التقدير من قبل مشايعى الأمام الصادق لأنه كان ينتقد أبا جعفر المنصور و من على شاكلته من الطغاة الجائرين من بنى أمية أو بنى العباس. فقد صرح ذات يوم بأن مثل هؤلاء الرجال لو أقدموا فى يوم من الأيام على بناء مسجد من المساجد و كلفوه بمهمة عد الآجر السهلة من أجل ذلك لما فعل ما يريدون «لأنهم من الفساق، و الفساق غير جديرين بتزعم المسلمين». و حينما نقل قوله هذا إلى المنصور أمر بالقبض عليه و أودعه السجن حتى توفى فيه. و كانت مكابدته لمثل هذا العناء بسبب قوله ذاك هى التى جلبت له مودة الشيعة و تقديرهم. و يستند دونالدسون فى روايته هذه على ما رواه العلامة المجلسى فى «تذكرة الائمة» (الص ۱۳۰).

و يذكر مرجعنا بعد هذا أن رأى الأمام عليه السلام فى القدر أو القوة التى تسير الأنسان فى أعماله هو رأى وسط، إذ لا «جبر» و لا

«تفويض» بل أمر بين أمرين .. و يقول المؤرخ اليعقوبى انه كان من عادة الفقهاء الـذين ينقلون عنه أن يقولوا «أخبرنا الأمام الحجـة». و حينمـا نتـذكر أن مالك بن أنس (۹۴- ۱۷۴ ه) صـاحب كتاب «الموطأ» كان معاصـرا للأمام الصادق، أى قبل البخارى و مسـلم بمـدة تناهز القرن الواحد تقريبا، يكون من المهم جدا أن نجد أن الأمام الصادق يعتبر صاحب الفضل الأول فى القول الذى أصبح بعد ذلك أهم قاعدة يستند اليها المسلمون فى الحكم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۷

على صحة ما يروى من الأحاديث النبوية الشريفة، و هو «خذوا ما يتفق منها و كتاب اللّه، و دعوا ما يخالفه».

و بعـد أن يورد دونالـدسون الكثير من الأقوال و الروايات عن معجزات الأمام و حياته العلميـة و قواعـده الأخلاقيـة، يذكر نقلا عن ابن خلكان أنه عليه السلام كتب رسالة فى الكيمياء و كتب فى الكهانة و الجفر، و أن تلميذه جابر بن حيان كتب كتابا بألفى صفحة أدرج فيها أبحاث سـيده الأمام عن الكيمياء التى كانت تكون خمس مئـة رسالة .. و ينهى الفصل بقوله ان الأمام توفى فى السـنة العاشـرة من خلافة أبى جعفر المنصور (۷۶۵- ۱۴۸)، و هو التاريخ الذى يتفق عليه المؤرخون بأجمعهم، بعد أن عمر خمسا و ستين سـنة. و قد سم عليه السلام بايعاز من الخليفة المنصور الذى كان يحاذر من وجوده و هو من هو بمنزلته بين المسلمين.

و قد دفن فى مقبرة البقيع فى المدينة بالقرب من أبيه و جده. و بقيت على هذا الضريح المطهر لعدة قرون قطعة من المرمر كتب عليها: بسم اللّه الرحمن الرحيم، سبحان اللّه الذى يبقى الأمم، و يحيى العظام و هى رميم.

هنـا قبر فاطمـة بنت رسول اللّه سـيدة نسـاء العـالمين، هنا قبر الحسن بن على ابن أبى طالب، و هنا أيضا قبر على بن الحسـين، و هنا قبر محمد بن على كذلك، و هنا قبر جعفر بن محمد رضى اللّه عنهم أجمعين.

و تعليقـا على ذلك نورد ما جاء فى (الفصول المهمـة) لابن الصـباغ المالكى (الص ۲۱۲) فى هـذا الشأن: «.. و مات الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام سنة ۱۴۸ فى شوال و له من العمر ثمان و سـتون، أقام فيها مع جده على بن الحسـين اثنتى عشرة سنة و أياما و مع أبيه محمـد بن على بعـد وفاة جده ثلاث عشـرة سـنة، و بقى بعد موت أبيه أربعا و ثلاثين سـنة و هى مدة إمامته عليه السـلام. يقال انه مـات بـالسم فى أيام المنصور و قبره بالبقيع دفن فى القبر الـذى فيه أبوه و جـده و عم جـده، فلله دره من قبر ما أكرمه و أشـرفه، و أما أولاده فكانوا سبعة: ستة ذكور و بنت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۸

واحدة، و قيل كانوا أكثر من ذلك. و الذكور هم: موسـى الكاظم و اسماعيل، و محمد و على، و عبد اللّه، و اسحق، و البنت اسمها أم فروة رضوان اللّه عليهم».

الرحالة الغربيون فى المدينة

لقـد زار المدينـة المنورة عـدد غير يسـير من الغربيين فى مختلف العهود و الأدوار، و تسـنى لهم الـدخول إلى الحرم الشـريف، بعد أن ذهبوا اليه بصـفة مسلمين حقيقيين و غير حقيقيين. و كان عدد من هؤلاء من أبرع الكتاب و الباحثين، و لذلك استطاعوا أن يكتبوا عن المدينة مؤلفات قيمة و يصفوها وصفا شاملا له أهميته القصوى فى تاريخ المدينة و تدوين أحوالها.

و معظم هؤلاء كانوا قـد زاروا مكـة المكرمة كذلك و اشتركوا فى مناسك الحج فكتبوا أشـياء كثيرة عنها، و قد أشـرنا إلى ذلك كله بشىء من التفصيل فى الحلقة المختصة بمكة من الجزء الأول من سلسلة (العتبات المقدسة) هذه (الص ۲۵۰- ۳۳۶).

و أول أوربى زار المدينـة فى العصـور المتـأخرة، بعـد حجه فى مكـة بصـحبة مـوكب الحـج الشـامى، مغـامر إيطـالى يـدعى لـودفيكو فارتيما Ludvicuo Vartouannus من أهالى بولونى الأيطالية و كان قد أبحر من البندقية سـنة ۱۵۰۳ متوجها إلى الاسكندرية، و توجه من هناك إلى دمشق الشام حيث ارتبط بصداقـة مع ضابط من الضـباط المماليك. فقرر الـذهاب إلى المدينـة و مكة مع صديقه

هـذا فی ضـمن موکب الحج الشامی الذی خرج إلی البلاد المقدسة فی الیوم الثامن من نیسان، و قد تزیا فارتیما بزی جندی من جنود المماليك.

و یظهر من الرحلة التی دونها فارتیما أنه رجل أفّاق، متحامل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۳۹

علی النبی و الأسـلام، بعیـد عن الثقافـة و الاـتزان، ادعی أنه اتصـل بکثیر من المسـلمات فی رحلاـته، و دون ملاحظات فیها الکثیر من الخلط و الخرافات. فهو یقول انه وصل مع القافلة إلی جبل بالقرب من المدینة یسکنه قوم من الیهود یبلغ عددهم خمسة آلاف نسمة، و هؤلاء قصار القامة لا یزید الواحد منهم علی الخمسة أو الستة أشبار أو أقل من ذلك بکثیر.

و لهؤلاـء أصوات رقیقـة کأصوات النساء، و بشـرة تمیل إلی السواد، و هم؟؟؟ علی لحوم الماعز، و إذا وقع المسـلم بأیـدیهم یسـلخون جلده و هو حی!! و حینما وصل إلی المدینة التی یسـمیها «مدینة النبی» بقی فیها ثلاثة أیام. و هو یدعی أنه دخل الحرم الشـریف الذی یسـمیه المعبـد و یصـفه وصـفا موجزا. فیقول أنه مسـجد مقبب یدخل الیه من بابین کبیرین، و یحمل سـقفه حوالی أربع مئة عمود من الآجر الأبیض!!؛ و فیه عـدد کبیر من المصابیـح المعلقـة- الثریات- یناهز الثلاثة آلاف!!! و یشـیر إلی وجود عدد من الکتب الدینیة فی جهة من جهات المسـجد التی تحتوی علی تعالیم الدیانة الأسـلامیة و حیاة النبی و أصحابه. ثم یذکر شیئا عن القبر المطهر، و یقول انه توجد بقربه قبور أبی بکر و عثمان (کذا) و فاطمة.

و ممـا یقوله کـذلك ان الأمـام علیـا هو صـهر النبی أو زوج ابنته فاطمـة، و ان ابـا بکر و عمر همـا من قـادة جیوشه. موسوعـة العتبـات المقدسة ؛ ج۳ ؛ ص۲۳۹

فی سـنة ۱۶۷۸ حـج إلی الـدیار المقدسـة شـاب إنکلیزی یافع من أهالی أوکسـفورد یـدعی جوزیف بیتسgosePh Pitts ، خرج یبتغی المغامرة و الأسـفار و هو فی السادسـة عشـرة من عمره. و من أجل ذلك انخرط فی سـلك البحریـة فوقع أسـیرا بأیدی القرصان الجزائریین فی البحر المتوسط، فعاش خمس عشـرة سـنة عبـدا عنـد ضابط من ضـباط الخیالة فی الجیش الجزائری. و کان هذا قد ألح علی عبده باعتناق الأسـلام تکفیرا عن خطایاه هو، فضـغط کثیرا علی العبد حتی نطق بالشـهادة لکنه ظل یضمر النصرانیة فی قلبه خلال الوقت الذی قضاه فی بلاد الأسلام و المسلمین کله.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۰

فقـد أخـذه سـیده الجزائری إلی مکـة و المدینـة، و هناك أعتقه و أخلی سبیله، لکنه ظل متعلقا به و أخـذ یخدمه بأجور حتی عاد إلی الجزائر. و بعـد تقلبـات کثیرة هنـاك هرب من الجزائر و عـاد إلی بلاـده بواسـطة القنصـل الإـنکلیزی. و مما یـدل علی مقـدار تعصـبه للنصرانیة التی بقی علیها أنه ما کادت رجله تطأ الأرض فی میناء لیغهورن الأیطالی الذی هرب الیه حتی خر ساجدا و قبلها عدة مرات، و هو یشـکر اللّه علی عودته إلی دیار النصـرانیة. و یبدو أن جوزیف بیتس هذا کتب مذکرات تفصیلیة عن سفرته إلی الحج، و وصف مکة بالتفصیل، ثم کتب شیئا غیر یسیر عن المدینة المنورة کذلك.

فهو یقول عن المدینة انها بلدة صغیرة، فقیرة، و مع ذلك فهی مسورة بأسوار محکمة و فیها الجامع الکبیر، لکنه لا یبلغ «معبد» مکة فی ضخامته. و لذلك یعتقد أن هذا السور قد بنی ما بین سـنتی ۱۵۰۳ و ۱۶۸۰. و فی زاویة من زوایا الجامع بناء یشـغل خمسة عشر خطوة مربعة، فیه شـبابیك کبیرة مشـبکة بالنحاس الأصـفر. و فی داخله بعض المصابیح المعلقة و الأعلاق النفیسة. و لیس هناك ذلك العدد الکبیر من المصابیـح الـذی کتب بعضـهم یقول انها تبلغ ثلاثة آلاف فی عددها. و فی وسط هذا المکان یوجد قبر محمد و هنا یتجاوز علی النبی الأعظم و یسـمیه «دعیا». ثم یصف السـتائر و یشـیر إلی ما کان یتردد فی هذا الشأن من الخرافة التی تقول ان الجدث الطاهر یشاهد و هو فی تابوته معلقا بین السقف و الأرض. و یشیر إلی البقعة المعدة للمسیح عیسی بن مریم، ثم یقول ان المدینة تتزود بجمیع ما تحتاجه من الحبشة الکائنة فی الجهة المقابلة من البحر الأحمر.

هذا و قد زار المدينة عدد آخر من الأوربيين الرحالة بعد ذلك، و لا سيما خلال القرن التاسع عشر منذ بدايته حتى نهايته. و قد كانت حملة الخديوى محمد على باشا على الحجاز بأمر من الباب العالى فى استانبول،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۱

لإنقاذها من الوهابيين، سببا فى دخول عدد من الأوربيين مع الجيوش المصرية إلى الأراضى المقدسة، و زيارتهم للمدينة، كما فعل الرحالة بورخارت الذى سنأتى على ذكره بعد هذا، و كما حصل للجندى السكوتلاندى المغامر توماس كيث. فقد كان توماس كيث أغا من أغوات المماليك العاملين فى جيوش محمد على باسم ابراهيم أغا. و قد كتب لأبراهيم أغا هذا أن يشارك فى حملة طوسون بن محمد على التى سيقت على المدينة سنة ۱۸۱۲ فكان أول الداخلين اليها، ثم وجد نفسه يشغل أغرب وظيفة فى حياته لفترة قصيرة من الزمن و هى وظيفة حاكم عسكرى للمدينة المنورة على ما يقول هو غارث. و يلخص المستر هو غارث (الص ۱۸۶) هذا أسماء الأوربيين الذين زاروا الأراضى المقدسة فيما يأتى: .. أن قائمة الأوربيين الذين زاروا مكة هى قائمة طويلة فى الحقيقة. فمنهم الأيطاليون مثل قارتيما و فيناتى، و الألمان مثل قايلد و ستيزن و فون مالتزان، و الإنكليز مثل پيتس و بورتون و كين، و السويسريون مثل بورخارت، و الاسبان مثل باديا، و السويد مثل والين، و الهولنديون مثل هورغرونيه، و الفرنسيون مثل كوتر نلمونت. و إلى جانب هؤلاء هناك عدد من المحاربين و المغامرين، و قد سمع الرحالة نيبور بجرّاح فرنسى تمكن من الدخول إلى الأراضى المقدسة، و برجلين انكليزيين أيضا. و طرق سمع الرحالة دوطى أن عددا من الأفرنج دخلوا اليها كذلك، و صادف هو بالذات رجلا ايطاليا يسمى نفسه فرارى كان فى طريقه إلى مكة مع قافلة الحج الأيرانية. و وجد جوزيف پيتس رجلا ايرلانديا فى المدينة، كما يقول الرحالة مالتزان ان ليون روش القنصل الفرنسى فى تونس حج إلى مكة و زار المدينة، و كذلك فعل رجل من البحارة الانكليز. هذا فضلا عن عدد من الأوربيين المشارقة مثل اليونان. موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۲

.. و لما كان الخديوى محمد على يشك فى إخلاصه لأسلامه فقد كان متساهلا مثل ابنه فى هذا الشأن فسمح لعدد من الأوربيين بالدخول إلى الأراضى المقدسة و منهم بورخات. و لا بد من أن يقال هنا ان الذين زاروا المدينة كذلك من بين هؤلاء هم فارتيما و فايلد و بيتس، و ستيزن و بورخارت، و والين، و بورتون، و كين، و شاهد المدينة من الخارج الرحالة سادلير كذلك.

على أن أهم الرحالة الأوربيين هؤلاء و أغزرهم علما و ثقافة هو الرحالة السويسرى جون لويس بورخارت الذى حج إلى مكة المكرمة، و زار المدينة المنورة، سنة ۱۸۱۴ و شهد حملة محمد على على الوهابيين فى الحجاز، و السر ريتشارد بورتون الذى زار المدينة المنورة، و حج إلى مكة المكرمة، فى سنة ۱۸۵۳. و قد كتب كل منهما عن رحلته بصورة مفصلة، و أسهب فى ذكر كل شىء يمكن أن يخطر على البال تقريبا عن المدينتين المقدستين و ما يحيط بهما من البلاد الحجازية. و لذلك فقد ذكرنا شيئا كثيرا عنهما فى الجزء المختص بمكة من سلسلة العتبات المقدسة هذه (الص ۲۶۳- ۳۰۴).

جون لويس بورخارت فى المدينة

كان المستر بوخارت قد أسلم على ما يزعم عند قدومه إلى مصر فى عهد محمد على باشا، و سمى نفسه الشيخ ابراهيم. و قد تعرف بمحمد على و اتصل به كثيرا، ثم تبعه حينما ذهب إلى الحجاز للأشراف على الحملة التى جردت ضد الوهابيين. و هناك سهّل له محمد على حج البيت الحرام، و زيارة المدينة المنورة، برغم شكه فى اسلامه و ارتيابه فيه.

و قد توفق بورخارت فى كل هذا، و لم يكتشف أمره على ما يبدو،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۳

فضمّن رحلته المعروفة جميع ما شاهده و مرّ به من حوادث و تجارب.

فقد توجه إلى المدينة بعد أن انتهى من الحج فى مكة، و وصل اليها فى صباح يوم ۲۸ كانون الثانى ۱۹۱۵، بعد أن قطع المسافة اليها

بثلاثة عشر يوما. و من سوء حظه أنه وقع مريضا بمرض البرداء- الملاريا- حتى أصابه اليأس من نفسه و ظن أنه سيقضى نحبه فى المدينة فيقبر فيها.

لكنه مع ذلك استطاع أن يرى أشياء كثيرة من أحوال المدينة و ما فيها بحيث استطاع أن يكتب عدة فصول عنها فى الجزء الثانى من رحلته (الص ۱۳۸- ۲۹۲).

و هو يقول ان القافلة نزلت فى الساحة الكبرى الكائنة فى ضاحية المدينة، و وجد له منزلا مناسبا بواسطة المزوّر. و أخذ كالعادة لزيارة الحرم الشريف فلاحظ أن مراسيم الزيارة أقصر و أسهل من مراسيم الحج و مناسكه بطبيعة الحال. لكنه لاحظ أن المدينة كان قد احتلها طوسون باشا مؤخرا و طرد منها الوهابيين، فنفر عنها البدو و أصحاب الأبل الذين كانوا يأتون اليها بالأقوات و المؤن. فعز فيها الطعام، و لاحظ و خامة الجو فيها كذلك و طعم الماء المقيت.

و يأخذ بورخارت بوصف المدينة و موقعها الطبيعى، بوصف يشابه الوصف الوارد فى دائرة المعارف الاسلامية الذى اثبتناه فى بداية هذا البحث، لأنها كانت قد استندت اليه على ما يظهر. و يقول انه وجد أسوارها عامرة بحيث تعدها للدفاع على أحسن وجه بالنسبة لمقاييس تلك الجهات، و لذلك كانت المدينة المعقل الرئيسى فى الحجاز. و كان السور قد بنى حولها سنة ۳۶۰ للهجرة، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك فى أوقات مختلفة موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۴

أخصها سنة ۹۰۰ للهجرة، لكن الخندق كان قد مدد حولها سنة ۷۵۱.

على أن بناءه بشكله فى أوائل القرن التاسع عشر كان قد تم بأمر من السلطان سليمان القانونى فى نهاية القرن السادس عشر. و هناك أبواب ثلاثة جميلة فيه: الباب المصرى فى الجهة الجنوبية، و هو مع باب الفتوح فى القاهرة أجمل الأبواب التى شاهدها بورخارت فى المدن الشرقية، و الباب الشامى فى الجهة الشمالية، و باب الجمعة فى الجهة الشرقية.

و هناك باب يسمى «الباب الصغير» فى الجهة الجنوبية كان الوهابيون قد أغلقوه عندما احتلوا المدينة قبل سنوات. و فيما يقرب من الباب الشامى، فى جوار القلعة، هناك محراب فى السور كان جزءا من مصلى صغير على ما يقال يسمى مسجد السباق، و منه كان محاربو الصحابة يبدأون سباقاتهم فى الركض.

و يقول بورخارت انه شاهد المدينة مبنية بالحجر كلها، و تتألف بيوتها من طابقين بوجه عام و من سطوح منبسطة. و لما كانت غير مصبوغة بالأبيض، و نظرا لأن حجر البناء كان غامقا فى لونه فقد كان منظرها يبدو كئيبا. و على كل فقد كانت المدينة من أحسن المدن الشرقية فى بنائها، و هى تأتى بعد حلب فى نظره. و يعد الشارع الرئيسى فيها أعرض الشوارع أيضا، و هو الذى يؤدى من الباب المصرى إلى المسجد الكبير.

و توجد فيه معظم المخازن و الدكاكين. و يسمى الشارع الآخر شارع البلاط، و يمتد من المسجد إلى الباب الشامى، لكن عددا من البيوت الموجودة فيه كانت خربة. و يقول بورخارت ان مكة تعتبر بلدة عربية فى مظهرها أكثر من المدينة التى تعتبر أشبه بالمدن السورية.

أما الحارات فيورد أسماء المنحصر منها ما بين الشارعين المذكورين كالآتى: الساحة، كومة الحشفة، البلاط، الزقاق الطويل، الذى يقع زفيه بيت القاضى و عدد من الحدائق الجميلة، زقاق الذرة، سقيفة الشاخى، قاق البكر. و فى شمال شارع البلاط بامتداد شمالى من المسجد إلى باب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۵

الجمعة تقع محلة الحماتة، و زقاق الحبس، و زقاق انكينى، و زقاق الصماهدى، و حارة الميده، و حارة الشرشورة، و زقاق البدور، و حارة الأغوات حيث يعيش الخصيان الموكلون بالحرم الشريف. و تقع فى الجهة الممتدة من باب الجمعة على طول الأجزاء الجنوبية من المدينة إلى حد الباب المصرى و السوق الكبير محلة دوران، و الصالحية، و زقاق ياهو، و حارة أحمد حيدر، و حارة بنى حسين

حيث تنزل القبيلة المسماة بهذا الأسم، و حارة البسوغ، و حارة السقيفة، و حارة الرصاص، و زقاق الزرندى، و زقاق الكبريت، و زقاق الحجامين، و حارة سيدى مالك حيث بيت الفقيه المعروف مالك بن أنس، و حارة الخماشين.

و يقول بورخارت ان العرب بوجه عام لا يهتمون كثيرا بفخامة الأبنية و طراز البناء، و حتى روساؤهم يكتفون فى أبنيتهم بالضرورى منها فقط. و لذلك فليس فى المدينة أبنية كبيرة بارزة إلا القليل. فهناك الحرم النبوى الشريف المحتوى على قبر النبى العظيم، و مدرسة عامة جميلة تسمى المدرسة الحميدية فى شارع البلاط، و أخرى شبيهة بها قرب المسجد حيث يسكن شيخ الحرم، و مخزن كبير للحبوب يضم بين جدرانه ساحة كبيرة يقع فى الجزء الجنوبى من البلدة، و حمام غير بعيد عنه و هو الحمام العام الوحيد فى البلدة و قد شيده فى سنة ۹۷۳ ه محمد باشا وزير السلطان سليمان. أما القلعة فهى محاطة بأسوار قوية جدا و أبراج عالية منيعة عدة. و هى تسع حوالى ست مئة او ثمانمأة رجل، و فيها عدد من الغرف ذات العقود التى لا تخترقها القنابل. و هذه لو وضعت فيها حامية جيدة و جهزت بما تحتاج من المؤن لا تستطيع أية قوة عربية التغلب عليها لأنها مبنية فوق صخور صلبة لا يمكن أن تلغم بالألغام. على أنها لا تستطيع الصمود تجاه المدفعية الأوربية. و فيها بئر عميقة فيها ماء صالح للشرب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۶

الضواحى

تمتد ضواحى المدينة، على ما يذكر بورخارت، فى الجهة الغربية و الجنوبية منها فتغطى مساحة من الأرض تزيد على مساحة البلدة نفسها.

و تحجز الضواحى عن البلدة نفسها فسحة كبيرة تضيق من جهتها الجنوبية و تتسع من الجهة الغربية بين يدى الباب المصرى حيث تكوّن ساحة عامة تسمى المناخة .. و ليس هناك سور للضواحى المطلة على المناخة، لكن الجهتين الخارجيتين من الغرب و الجنوب يحيط بهما سور آخر يقل مناعة عن سور البلدة الأصلية. و هناك أربعة أبواب تؤدى إلى الخارج منها، و هى أبواب خشبية صغيرة غير متينة .. و فى الجهة الغربية من الضاحية مقابل باب القاهرة و المناخة تتألف الضاحية من شوارع منتظمة حسنة البناء تشبه دورها الدور الموجودة فى داخل المدينة. و يخترق هذا الجزء من الضاحية شارع واسع يسمى العنبريه، و تقوم على جانبيه أبنية و بيوت حسنة البناء، و فى حوالى هذه الجهات يعيش طوسون باشا فى دار خاص به، و يسكن بالقرب منه التاجر الثرى عبد الشكور.

و أهم الحارات الموجودة فى الضواحى هى حارة العنبرية، و حارة الواجهة، و حارة الساح، و حارة أبى عيسى، و حارة مصر، و حارة الطيار، و حارة نفيسة، و حارة الحمدية، و حارة الشهرية، و حارة الخيبرية، و حارة الجفر. و كثير من سكان البلدة الداخلية لهم بيوت صيفية فى هذه الحارات يقضون فيها شهرا من السنة يتفرغون فيه إلى جى حاصلات تمورهم.

و هناك مسجدان فى المناخة، أحدهما يسمى «مسجد على» و يقال انه قديم منذ صدر الأسلام، لكن بنايته القائمة كانت قد شيدت فى ۸۷۶.

و المقول ان النبى عليه السلام كثيرا ما كان يصلى فيه. و يسمى المسجد الآخر «جامع عمر» و قد ألحقت به مدرسة عامة كانت تستخدم بنايتها مخزنا للذخيرة و ملجأ للكثير من الجنود.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۷

الحرم النبوى الشريف

و بعد أن يصف بورخارت أشياء أخرى فى المدينة، و أهمها مشروع الماء فيها، يقول ان الجوهرة الغالية التى تجعل المدينة فى صف مكة من حيث الأهمية، لا بل و تفضلها عليها فى نظر بعض الناس مثل أتباع مالك ابن أنس، هو الجامع الأكبر الذى يضم فى داخله

قبر النبى محمد (ص).

و هو مثل جامع مكة يسمى «الحرم». و يقع هذا الجامع فى الطرف الشرقى من البلدة و ليس فى وسطها. أما أبعاده فهى أصغر من أبعاد الجامع فى مكة، إذ يبلغ طوله مائة و خمسا و ستين خطوة و يبلغ عرضه مائة و ثلاثين. لكنه مشيد على الطراز نفسه تقريبا، فهو يكوّن صحنا مكشوفا فى الوسط تحيط به صفوف من الأعمدة المغطاة من جميع الجهات، مع مبنى صغير فى وسط الصحن المربع. و تكون صفوف الأعمدة هذه أقل انتظاما من صفوف الأعمدة فى مكة حيث تكون على نفس العمق من جميع الجهات. كما تكون الأعمدة نفسها مختلفة فى حجومها، ففى الجهة الجنوبية التى يقع فيها قبر النبى المطهر، و تكوّن أقدس بقعة فى المبنى كله، تكون أبعاد الأعمدة أكبر من أبعادها فى سائر الجهات و يبلغ قطر الواحد منها قدمين و نصف .. و يتألف السقف فوق الأعمدة من عدد من القباب الصغيرة المصبوغة بالأبيض من الخارج، كما هى الحالة فى مكة. أما الجدران الداخلية فهى مصبوغة بالأبيض كذلك إلا من الجهة الجنوبية و قسم من الزاوية الجنوبية الشرقية المكسوة بقطع من الرخام إلى السقف تقريبا. و هناك على طول هذا الجدار عدة صفوف من الكتابات المكتوبة بأحرف كبيرة من الذهب، واحدة فوق الاخرى ..

و بعد أن يصف بورخارت سائر أجزاء الحرم و الضريح المطهر و ما يوجد حوله من القبور الأخرى يقول ان نفائس الحجاز كانت تحفظ فى السابق حول هذه القبور إما معلقة بحبال من حرير يمتد فى داخل المبنى، أو بمودعة فى صناديق خاصة موضوعة على الأرض. و يمكن أن يذكر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۸

من هذه على الأخص نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفى تعود إلى الخليفة عثمان بن عفان، و يقال انها لا تزال موجودة فى المدينة ..

ثم يتطرق إلى ذكر حصار الوهابيين للمدينة، و إلى أن شيئا كثيرا من هذه النفائس، و لا سيما الأوعية الذهب منها، استولى عليها رؤساء البلدة بحجة توزيعها على الفقراء لكنهم تقاسموها فيما بينهم بعد ذلك.

و حينما دخل الأمير سعود الوهابى إلى المدينة و استولى عليها دخل الحجرة النبوية نفسها و وصل إلى ما وراء الستائر فوضع يده على جميع النفائس التى وجدها هناك. و قد باع قسما منها إلى شريف مكة و حمل الباقى إلى الدرعية معه. و من الأعلاق النفسية التى أخذها، و هى أغلى من أى شىء آخر، النجمة البراقة المتلألئة المطعمة بالماس و اللؤلؤ التى كانت معلقة فوق القبر المقدس مباشرة، و قد كانت تسمى «الكوكب الدرى».

و قد كانت تودع فى هذا المكان جميع أنواع الأوعية و الأوانى الثمينة المطعمة بالجواهر، و الأقراط، و الأساور، و القلائد، و سائر النفائس التى كانت تهدى من جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية و يأتى بها الحجاج فى أثناء زيارتهم للمدينة. و لا شك أن ذلك كله كان يؤلف مجموعة ذات قيمة غير يسيرة، لكنها لا تكاد تقدر بثمن. فقد قدر الشريف غالب ما اشتراه من الأمير سعود بمائة الف دولار. و يقال ان رؤساء البلدة أخذوا من أوعية الذهب و أوانيه ما يقدرونه بمائة «هندردويت»- الهندردويت الواحد يساوى ۱۱۲ باونا أو ليبرة- أو ما يساوى ثمنه خمسين ألف دولار. كما يقال ان ما أخذه الأمير سعود معه يتألف غالبا من اللؤلؤ و المرجان، و ان قيمته تساوى ما باعه إلى الشريف غالب.

و ربما يبلغ مجموع كل ما وجد فى قيمته حوالى ثلاث مائة الف دولار.

و هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد بأن هدايا المسلمين التى تجمعت فى هذه البقعة عبر القرون و الأجيال كانت تبلغ أكثر من هذا بكثير. و من المحتمل جدا أن يكون حكام المدينة الذين كانوا مستقلين فى كثير من الأحيان، و سدنة الضريح المقدس أنفسهم، قد أخذوا الشىء الكثير مما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۴۹

كان يهدى بين حين و آخر كما فعل علماء مكة قبل ثلاث مائة سنة حينما سرقوا مصابيح الذهب العائدة للكعبة و أخذوها إلى الخارج بين طيات أردانهم على ما يقول المؤرخ قطب الدين. و قد أخذ طوسون باشا، عند مجيئه إلى المدينة، يفتش عن الأوانى الذهب التى بيعت فى المدينة فوجد قسما منها و ابتاعه من مالكيه بعشرة آلاف دولار، ثم أعاده إلى مكانه.

ثم يذكر بورخارت أن فوق «الحجرة» قبة جميلة عالية الذرى، ترتفع فوق القباب الأخرى التى تكوّن السطح الممتد من فوق الأعمدة، و ترى من مسافة بعيدة فى المدينة. و حالما تلوح للزائرين من بعيد يبدأون بالصلاة و قراءة الأدعية. و تغطى بالرصاص، كما يعلوها هى كرة غير صغيرة بالحجم و هلال كبير، و كلاهما يتوهج بذهبه. و قد صنعت الكرة و الهلال فى استانبول بأمر من السلطان سليمان القانونى. أما القبة و الحرم بأجمعه فقد بناه قايتباى سلطان مصر ما بين سنتى ۸۸۱ و ۸۹۲ ه.

و كان الوهابيون قد أغراهم بتهديم القبة الكبيرة الذهب اللماع، و تعاليمهم القاضية بتهديم القباب المقامة فوق القبور جميعها بما فيها قبة الرسول الأعظم. فحاولوا ذلك و ابتغوا رفع الكرة و الهلال، لكن متانة البناء، و وجود الغطاء الرصاص، جعل من الصعب عليهم تنفيذ ما يريدون.

ثم سقط اثنان منهم بعد أن تزحلقا من فوق السطح الأملس، فتركت المحاولة و عدّ ذلك من معجزات النبى.

و هناك على مقربة من ستائر الحجرة و فى داخل محيطها قبر «ستّنا فاطمة» مغطى بغطاء أسود من الحرير المطرز. و هناك بعض الاختلاف فى الرأى حول مدفن الزهراء البتول فى هذه البقعة أو فى مقبرة البقيع.

و لذلك يزورها الزوار فى هذين المكانين معا. و فى الجدار الشرقى للجامع فى مقابل هذا القبر تقريبا شباك صغير يدل على المكان الذى كان ينزل فيه جبرائيل على النبى محمد (ص)، و يسمى «مهبط جبرائيل» ...

و لا يعتقد بورخارت بأن الزينة التى وجدها فى جهة الروضة و حول الضريح

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۰

المطهر تناسب المقام المقدس، و لذلك يرى بأن أية كنيسة من الكنائس الكاثوليكية فى أوربا تبدو أفخم و أجمل عند المقارنة، و أن المسلمين غير ميالين إلى التضحية بأموالهم فى هذا الشأن مثل ما يفعله الكاثوليك، و حتى البروتستانت من النصارى.

و بعد أن يشرح بورخارت الكيفية التى يزور بها الزوار الحرم الشريف، يبدأ بوصف الصحن الأوسط فيقول ان مبنى صغيرا مقببا يقوم فى وسطه، و تحفظ فيه الأضوية و المصابيح العائدة للحرم. و يوجد بالقرب منه سياج خشبى غير مرتفع فى داخله نخلات تعتبر مقدسة لأنها على ما يقال كانت قد زرعتها الزهراء عليها السلام. و فى جانب النخلات بئر تسمى «بئر النبى»، لكن ماءها ماء عكر و لذلك لا يتمتع بشهرة قدسية .. و حينما يأتى على ذكر الأضاءة و الشموع يذكر أن زوجة الحذيوى محمد على باشا التى كانت يومذاك فى المدينة جاءت بكميات كبيرة من الشمع و أهدتها إلى الحرم الشريف، بعد أن كانت قد نقلت بعناية و صعوبة كبرى من ينبع إلى المدينة.

و للحرم الشريف أربعة أبواب كبيرة: باب السلام الذى كان يسمى باب مروان على ما يروى السمنودى، و يقع فى الزاوية الجنوبية الغربية، و هو الباب الرئيسى الذى يجبر الزائر على الدخول منه عند أول زيارته للحرم. و هذا الباب جميل ذو عقادة مقوسة، و أجمل بكثير من أى باب من أبواب الحرم الشريف فى مكة، مع أنها أصغر من عدد منها فى الحجم، و أجمل من أى باب من أبواب الجوامع التى رأيتها فى الشرق من قبل. فقد طعمت جوانبها بقطع من الرخام و الكاشى الملون بمختلف الألوان، و اكسبتها الكتابات البارزة بحروف من الذهب المكتوبة فوق القوس و على جوانبه مظهرا متألقا يبهر الأبصار. و هناك أيضا باب الرحمة الذى كان يسمى الباب العتيق من قبل، و يقع فى السور الغربى فتمر منه الحنائز إلى داخل الجامع حيث يصلى و يقرأ عليها، و باب الجبر الذى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۱

يسمى أيضا باب جبرائيل، و باب النسا فى السور الشرقى و هو أول باب فيما يقرب من قبر ستّنا فاطمة. و جميع هذه الأبواب تغلق بعد

الغروب بثلاث ساعات يوميا، و لا تفتح إلا قبل الفجر بساعة. لكن الذين يرغبون فى الصلاة داخل المسجد طول الليل يمكنهم أن يستحصلوا الرخصة لذلك من الأغا المكلف بالخفارة، الذى ينام بالقرب من الحجرة عادة.

أما فى أيام رمضان، فيبقى الحرم مفتوحا طوال الليل.

و تعهد مهمة أمن الجامع و غسل الحجرة و سائر أجزاء المبنى جميعها، و إنارة الحرم و ما أشبه، إلى خمسين أغا من الأغوات الخصيان الذين توجد منظمة خاصة لهم تشبه المنظمة الموجودة فى بيت اللّه الحرام فى مكة.

لكن هؤلاء تعطى لهم أهمية أكبر فى المدينة، فتجدهم يلبسون أحسن و يستعملون الشال الكشميرى و أفخر أقمشة الهند الحريرية. و حينما يمرون بالسوق يسارع الجميع إلى تقبيل أيديهم، و لذلك يمارسون نفوذا غير يسير فى شؤون البلدة الداخلية. و لهم مخصصات غير قليلة تبعث لهم من استانبول سنويا بصحبة موكب الحاج السورى. و يأخذون كذلك حصتهم من جميع ما يقدم إلى الحرم، و ينتظرون الهدايا من الحجاج الزوار الأغنياء، علاوة على الرسوم التى يتقاضونها من زوار الحجرة .. و يسمى رئيس هؤلاء الأغوات «شيخ الحرم»، و هو رئيس الجامع بأسره أيضا و الشخصية الأولى فى المدينة عادة، و على هذا فرتبته أعلى من رتبة رئيس الأغوات فى مكة. و هو فى الحقيقة خصى من الخصيان يبعث من استانبول، و ينتمى عادة إلى الباب العالى الذى يرسله فى كثير من الأحيان على سبيل النفى كما يحصل عند ارسال باشوات الحجاز إلى جدة. و قد كان شيخ الحرم الذى شاهده بورخارت يومذاك «قزلر أغاسى» فى عهد السلطان سليم .. و قد شوهد مرارا و هو يتقدم على طوسون باشا الذى كانت رتبته برتبة الباشا فى جدة، أى برتبة باشا ذى ثلاث «طوغات».

و لذلك تسنى لبورخارت أن يشاهد طوسون باشا و هو يقبل يد شيخ

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۲

الحرم فى داخل الجامع المقدس. و له ديوان يضاهى ديوان الباشا بتشكيلاته تقريبا .. و على هذا الأساس فقد احترمه حتى الوهابيون حينما استولوا على المدينة، و سمح له أميرهم سعود بأن ينسحب إلى ينبع هو و عدد من الخصيان مع أزواجهم و أمتعتهم و ممتلكاتهم النفسية .. و يلقب الخصيان عادة بالأغوات، كما يخاطب رئيسهم «بسيادتكم» كما يخاطب الباشا و شريف مكة .. و هناك بالأضافة إلى هؤلاء عدد آخر من الخدم فى الحرم الشريف من أبناء المدينة نفسها يطلق عليهم «الفراشون» ... و يشتغل كثير من هؤلاء فى الوقت نفسه مزوّرين أو قائمين بصلاة الغائب، أو مرشدين للزوار فى الأماكن المقدسة .. و يكون عدد الفراشين كبيرا جدا عادة.

و ينتقل بورخارت بعد ذلك إلى الكتابة عن أهمية الزراعة فى حياة أهل المدينة، و يذكر أن المدينة محاطة ببساتين النخيل التى تنتشر فيها البيوت. و يقول أن الحاصلات الرئيسية فيها القمح و الشعير و البرسيم و أنواع الفاكهة، بالأضافة إلى التمور التى تعد الحاصل الرئيسى فيها.

و يزرع الشعير بمساحات أكبر، و لذلك يعتبر خبز الشعير الغذاء الرئيسى لطبقات الناس الفقيرة. و هو يحصد هناك فى مارت، و حاصله من النوع الجيد .. و تكثر بساتين الفاكهة فى جهات قبا، و يزرع فيها الرمان و العنب الفاخر و الخوخ و الموز بالأضافة إلى الرقى و الخضروات مثل السبانغ و الشلغم و الكراث و البصل و الجزر و الفاصولية. و يشيع فى المدينة شجر (النبق).

و يتطرق أيضا إلى ذكر النخيل و فائدته فى صنع أشياء كثيرة من أجزائه المختلفة. ثم يقول انه سمع بأن المدينة فيها ما يزيد على المائة نوع من التمور، و أكثرها انتشارا و أرخصها «الجبلى»، و هنا أيضا «الحلوة» و «الحلية» و ثمارها صغيرة، و الصيحانى، و البرنى. و يذكر نوعا يقول انه نسبى اسمه تبقى ثماره خضراء اللون حتى بعد أن تنضج و تجف، و نوعا آخر أصفر مثل الزعفران، و هذان النوعان ينظمان فى خيوط تباع باسم «قلائد الشام».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۳

و ينهى الفصل عن المدينة بذكر المنطقة الحرام فيها، و يقول انها تحيط بالبلدة من جميع الجهات لمسافة اثنى عشر ميلا، و يدخل فى

ضمنها من الجهة الجنوبية جبل عير و الشمالية جبل ثور (و هو جبل صغير يقع وراء جبل أحد). و هذه يجب أن تعتبر منطقة مقدسة لا يذبح أو يقتل فيها أى شخص إلا الأعداء أو المعتدين عن طريق الدفاع عن النفس، أو الكفار الذين يدنسونها. كما يجب أن لا يقتل فيها الطيور و لا تقطع الأشجار. على أن هذا التحريم قد وضع جانبا فى الوقت الحاضر، على ما يقول بورخارت، أى بوجود القوات المصرية. فقد لاحظ أن الأشجار تقطع و الطيور تذبح و معارك دموية تقع فى البلدة و ما حولها، و مع أن غير المسلمين يحرم عليهم الدخول اليها فقد حدثت مناسبات خلال مدة وجوده فى المدينة استخدم فيها النصارى اليونانيون فى مهمات تعود لجيوش طوسون باشا المخيمة على رمية بندقية من المدينة نفسها.

أماكن الزيارة الأخرى

و يذكر بورخارت أنه فى اليوم الذى ينهى فيه الحاج الزائر زيارته للحرم و الضريح المقدس فى المدينة، يزور مدافن البلدة كذلك فى العادة حيث يثوى عدد من الصحابة و الأئمة و الشهداء. و تقع المقبرة هذه فى خارج سور البلدة فيما يقرب من باب الجمعة، و تسمى مقبرة البقيع.

و هى عبارة عن مربع كبير تبلغ سعته عدة مئات من الخطوات، محاط بجدار يتصل من الجهة الجنوبية بضاحية البلدة و ببساتين النخيل من الجهات الأخرى. و تبدو المقبرة حقيرة جدا لا تليق بقدسية الشخصيات المدفونة فيها. و قد تكون أقذر و أتعس من أية مقبرة موجودة فى المدن الشرقية الأخرى التى تضاهى المدينة فى حجمها. فهى تخلو من أى قبر مشيد تشييدا مناسبا، و تنتشر القبور فيها و هى أكوام غير منتظمة من التراب يحد كلا منها عدد من الأحجار الموضوعة فوقها. و يعزى تخريب المقبرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۴

إلى الوهابيين فيشير إلى بقايا القبب و المبانى الصغيرة التى عمدوا إلى تخريبها من فوق قبور العباس و بعض الأئمة و عثمان و ستّنا فاطمة و عمات النبى (ص). و الموقع بأجمعه عبارة عن أكوام من التراب المبعثر، و حفر عريضة، و مزابل .. و يذكر بورخارت (الص ۲۲۶) بالمناسبة أسماء الشخصيات الأسلامية التى قبرت فى البقيع، و قد أتينا على ذكرها من قبل. لكنه حينما يذكر قبر الأمام الحسن بن على عليهما السلام يتوهم أنه الأمام الحسين سيد الشهداء فيقول ان جسمه فقط دون الرأس قد دفن فيه، و يشير إلى أن الرأس قد أخذ إلى القاهرة و حفظ فى جامع خاص يدعى الحسنية .

ثم يصف زيارته إلى جبل أحد حيث وجد المسجد الذى شيد حول قبر الحمزة و غيره من شهداء أحد، مثل مصعب بن عمير و جعفر بن شماس و عبد اللّه بن جحش، و قد هدم الوهابيون القبة المشادة فوق القبر لكنهم لم يتعرضوا للقبر نفسه. و على مسافة من هذا المسجد وجد قبة صغيرة تشير إلى المكان الذى أصيب فيه الرسول عليه السلام فى موقعة أحد. و على مسافة قصيرة من هذه القبة وجد قبور اثنى عشر صحابيا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۵

من أصحاب الرسول الذين استشهدوا فى موقعة أحد أيضا، و قد خرب الوهابيون قبورهم و عبثوا بها. و يقول بورخارت ان سكان المدينة قد اعتادوا على الخروج مرة واحدة فى السنة إلى جبل أحد خلال شهر تموز، و هناك يبقون ثلاثة أيام متتالية يسرحون و يمرحون كأنهم فى عيد.

وزار بورخارت منطقة قبا أيضا، و أهم ما يذكره عنها أنها ملأى بالبساتين العامرة التى تزرع فيها جميع أنواع الفاكهة عدا التفاح و الكمثرى.

و تتزود المدينة بفواكهها من هذه المنطقة التى تنتج الليمون و البرتقال و الرمان و الموز و الأعناب و الخوخ و المشمش و التين، و تنمو أشجار هذه الفواكه ما بين أشجار النخيل و النبق و نباتات الخروع. و يقوم مسجد قبا التاريخى مع ثلاثين أو أربعين بيتا من حوله

فی وسط هذه البساتین.

و قد وجد المسجد صغیرا و بحالة خربة، و یلاحظ فیه «مبرک الناقة»، و البقعة التی صلی فیها النبی عند وصوله إلی (قبا) و التفت إلی مکة فتخیل ما کانت قریش تفعله فیها، و المکان الذی نزلت فیه الآیة المختصة صورة أخری للمدینة فی أواسط القرن التاسع عشر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۶

بسکان (قبا) و علی مسافة قصیرة من مسجد قبا شاهد مسجد علی، و بقربه بئر عمیقة تسمی «العین الزرقاء».

سکان المدینة

أما سکان المدینة المنورة و طبقات الناس فیها فیقول بورخارت عنها انهم مثل سکان مکة أکثریتهم من الغرباء الذین تجذبهم قدسیة البلد الیها من جمیع أنحاء العالم الأسلامی. و علی هذا فهناک فیها جالیات من کل بلد اسلامی تقریبا. و لا توجد فیها إلا أقلیة صغیرة من نسل الأنصار الذین کانوا یسکنون المدینة عندما هاجر النبی الیها سنة ۶۲۲ للمیلاد.

فهناک حوالی عشر أسر یمکنها إثبات نسبها و تحدّرها من الأوس و الخزرج، و هذه أسر فقیرة تعیش علی الفلاحة فی الضواحی و البساتین. علی أن عدد الشرفاء الحسنیین غیر قلیل فی المدینة، لکن معظمهم غیر مدنیین فی الأصل، و إنما کان آباؤهم قد نزحوا الیها من مکة خلال الحروب التی کان یشنها الشرفاء للاستیلاء علیها. و ینتمی معظم هؤلاء تقریبا إلی طبقة العلماء، أما الشرفاء المحاربون الذین یشبهون شرفاء مکة فقلیلون جدا.

و هناک أیضا قبیلة صغیرة من الشرفاء الحسینیة المتحدرین من نسل الحسین شقیق الأمام الحسن علیهما السلام. و یقال انهم کانوا أقویاء فی المدینة سابقا، و کانوا یأخذون لأنفسهم القسم الأکبر من واردات الحرم الشریف، فإنهم کانوا خلال القرن الثالث عشر سدنة القبر المطهر المحظوظین. لکنهم تضاءلوا بعد ذلک حتی أصبحوا الیوم یقتصرون علی عدد محدود من الأسر التی لا تزال من علیة القوم فی البلد و سکانه الأغنیاء.

و هم یشغلون حارة خاصة بهم، و یحصلون علی أرباح طائلة و لا سیما من الحجاج الأیرانیین الذین یفدون علی المدینة للزیارة. و یفهم مما کتب فی هذه الرحلة أن هؤلاء من شیعة المدینة الذین یمارسون عباداتهم علی الطریقة السنیة فی الظاهر، و مع هذا فیطلق علیهم «الرافضة».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۷

و المعروف فی کل مکان أن بقایا الأنصار القدماء، و عددا کبیرا من عرب المدینة الفلاحین الذین یفلحون البساتین و الحقول من حولها هم من «الرافضة» أی الشیعة کذلک. و یسمی هؤلاء النواخلة، لأنهم یعیشون بین النخیل، و هم کثیرون فی عددهم و شجعان فی الحروب ..

و لذلک قاوموا الوهابیین حینما احتلوا المدینة مقاومة عنیفة .. و نقول ان المعروف فی التاریخ، ولدی المطلعین من الناس، أن النواخلة من الفلاحین الذین کانوا یفلحون فی بساتین الأمام الحسن علیه السلام. و یقول بورخارت کذلک ان النواخلة لا یتزاوجون مع غیرهم إلا فی النادر، و معظمهم یجاهرون بالشیعیة حینما یکونون بین نخیلهم لکنهم یدعون بالسنیة حینما یکونون فی البلد. و قد استوطن بعضهم فی الضواحی فاحتکروا مهنة القصابة. و تعیش فی البادیة من جهة الشرق علی مسیرة ثلاثة أیام من المدینة قبیلة بدویة بکاملها یسمی أفرادها «بنی علی»، و هؤلاء کلهم من الشیعة أو من معتنقی المذهب الأیرانی علی حد تعبیر بورخارت الذی یستغرب کیف أن أقدس مدینتین فی الأسلام تحاط إحداهما بالزیدیة (أی مکة) و الأخری بالجعفریة (أی المدینة) و لا تبذل أیة محاولة لأجلائهم.

و من بین الأسر القدیمة فی المدینة أسر تتحدر بنسبها من نسل العباسیین کذلک، لکن شأنهم قد انحط الآن حتی أصبحوا فقراء. و یطلق علیهم «الخلیفة»، أی المنحدرون من نسل الخلفاء .. ثم یسهب بورخارت فی ذکر الجنسیات الأصلیة التی ینتمی الیها سکان

المدينة و يقول ان الجيل الثانى أو الثالث من السكان غير العرب يستعربون بالتدريج و يصبحون عربا حتى فى قسمات وجوههم. و يتطرق بعد ذلك إلى لباس المدنيين و أسلحتهم و أحوالهم المعاشية و الاقتصادية و تجارتهم و أطعمتهم، و عاداتهم و طباعهم.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۸

حكومة المدينة

و فى فصل خاص بحكومة المدينة يلخص بورخارت تاريخها منذ صدر الأسلام إلى يوم وصوله اليها تلخيصا مختصرا جدا لا نرى موجبا لنقله هنا لأنه منقول بصورة وافية و كافية للاطلاع فى صدر هذا الجزء الذى يتطرق إلى المدينة قديما. لكنه من الطريف أن نذكر هنا أن حكومة المدينة قد استولى عليها فى العشرين السنة الأخيرة، أى منذ أواخر القرن الثامن عشر، رجل يسمى حسنا بعد أن كان قد عين أغا فى القلعة، و لذلك سمى حسن القلعى. و كان هذا رجلا من عوام الناس متصفا بالدهاء و الحيلة و محبوا بقوة التحمل و الشدة، فوصل إلى رتبة ضابط فى الجيش. و كان و هو ذو قامة قصيرة جدا يمشى مشيا مضطربا لأنه كان شبه أعرج، برغم ما كان عنده من قوة فى البدن و رهبة فى الصوت. و بعد عدة سنوات من الكفاح الشاق استطاع هذا الرجل أن يصبح سيد المدينة غير المنازع، و كان فى خدمته فوج من الحرس المختلط المتألف من البدو و المغاربة و سكان المدينة، كما كان فى جانبه جميع رعاع المدينة و عوامها. فأخذ يستبد بالناس و يظلم الحجاج فيبتز أموالهم، و يصادر ممتلكاتهم، و يستولى على مخلفات المترفين منهم، كما صار يصادر «العدة» أو الأموال التى كانت تحول من استانبول إلى العتبة المقدسة فى كل سنة، حتى جمع ثروة جسيمة و أموالا طائلة.

و قد رويت عنه قصص غريبة تدل على وحشيته و نذالته، و منها أن أرملة ثرية جاءت من استانبول ذات يوم مع ابنتها لزيارة القبر المطهر فقبض عليها و أجبرها على التزوج منه. و ما مرّ يومان على الزواج حتى وجدت المرأة المسكينة ميتة فى بيته فاستولى على أموالها، و بعد مدة من الزمن أجبر ابنتها على الخضوع له و التزوج منه أيضا!! و مع أن أمره قد رفع إلى استانبول عدة مرات فإن السلطان لم يجد نفسه قادرا على طرده أو الاقتصاص منه.

و لم يكتف بذلك بل صار يتعرض بقوافل الحجاج و مواكبهم الرسمية فيبتز

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۵۹

منها الأموال و الرسوم حتى اضطر موكب الحج السورى إلى العودة قبل الوصول إلى المدينة فى سنة من السنين.

و حينما أخذ الوهابيون يهاجمون الحجاز فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، و يتوجهون نحو المدينة، ازداد حسن القلعى عتوا و عنفا و لم تعرف لتعسفه و جوره أية حدود فى السنوات الثلاث التى سبقت استيلاء الوهابيين على المدينة. و صارت المخازن و الدكاكين تسرق خلال الليل من قبل البدو العاملين فى خدمته. و لما وجد نفسه عاجزا عن الوقوف فى وجه الوهابيين و الصمود لهجماتهم استسلم لهم بشرط أن يبقى فى منصبه، فوعد بذلك و تم له ما أراد. فقد وضعت حامية وهابية فى القلعة، و أجبر آغا الحرم و الأتراك الذين كانوا موجودين فى المدينة على الانسحاب منها بعد ان لم يكونوا فيها سوى أشباح لا أثر لها. و هكذا بقى حسن القلعى حاكما على المدينة فى ظل الوهابيين. و عندئذ أخذ يتطرف فى تحمسه للمذهب الوهابى الجديد و يضغط على السكان فى سبيل اعتناقه بأقسى الوسائل و أعنف الطرق. و لم يكن سعود ليحترم المدينة كما كان يحترم مكة، و لذلك أعفى المكيين من الرسوم و الزكاة و شدد فى استيفائها من أهل المدينة بواسطة حسن القلعى.

و عندما زحفت الجيوش المصرية على المدينة تحمس حسن القلعى فى الدفاع عنها، و بعد أن اندحر طوسون باشا اندحاره الأول فى الجديدة ترك الحكم لحسن نفسه. غير أن طوسون أعاد الكرة فى الهجوم على المدينة بقوة أعظم، فوجد القلعى أن لا قبل له بهذه الجيوش و دخل فى مفاوضات سرية معها فوعد بابقائه فى منصبه عند استسلام المدينة لها. فانحاز للجيوش العثمانية حينما وصلت إلى أبواب المدينة، و استقبله أحمد بونابرت القائد العثمانى (المصرى) بكل تقدير و تكريم. ثم هوجمت البلدة فى الحال و استسلمت

القلعة للمهاجمين.

و بعد أن قضى على الوهابيين و استبعد خطرهم قبض على القلعى و زميله مذيان قائد الوهابيين و قيدا بالحديد و السلاسل ثم بعث بهما إلى القاهرة، و منها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۰

إلى استانبول حيث لقيا ما يستحقانه من الجزاء. و بذلك انقضت صفحة من أغرب صفحات التاريخ فى مدينة الرسول.

السر ريتشارد بورتون فى المدينة

لقد جاء السر ريتشارد بورتون الرحالة الانكليزى لزيارة مكة و المدينة بعد بوخارت بأربعين سنة تقريبا (۱۸۵۳)، و نجح نجاحا باهرا فى التستر بحيث استطاع المكوث مدة من الزمن فى المدينة و زيارة الحرم الشريف فيها، و سائر الأماكن ذات الذكريات المقدسة و زيارة مكة المكرمة و أداء فريضة الحج بكل مناسكها و شعائرها، من دون أن يكتشف أمره لأنه تظاهر بالإسلام و تسمى ب «عبد اللّه»، و انتحل الجنسية الأفغانية. و قد أوردنا تفصيل ذلك فى الجزء المختص بمكة المكرمة من سلسلة العتبات المقدسة هذه (الص ۲۹۴).

و يلاحظ من الرحلة التفصيلية الرائعة التى طبعت بجزئين كبيرين أن السر ريتشارد لم يترك شاردة و واردة إلّا ذكرها فى نصوص الرحلة أو شروحها و هوامشها الضافية. و مع ما فى هذه الرحلة من تحامل و أغلاط فى فهم الإسلام و شريعته، فإنها تعد شيئا ممتازا من ناحية البحث و التحقيق، و دراسة لها قيمتها التاريخية و الجغرافية. و سنحاول أن نورد فيما يأتى أهم ما يمكن اقتباسه منها، تاركين الباقى إلى ما كان قد ذكره بورخارت عن المدينة قبله، و ما سننقله عن رحلة أيلدون رتر المتأخرة (۱۹۲۵) لكونه أقرب إلى واقع المدينة الحالى، لا سيما ما يختص منها بوصف داخلية الحرم النبوى و ما أشبه.

فقد جاء بورتون إلى المدينة من ينبع المطلة على البحر الأحمر، و وصلها موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۱

فى الخامس و العشرين من تموز ۱۸۵۳. و هو يرسم صورة قلمية لها عند أول إطلالة عليها من مسافة قليلة بقوله: و قد بان أمامنا سهل فسيح تحده من الأمام أراضى نجد المتعادية، و يبين فى يساره ركام عبوس من الصخور هو جبل أحد المعروف، و كتلة كبيرة من الخضرة تستكن فى قاعدتها قبة بيضاء واحدة أو قبتان. و كانت تمتد إلى اليمين، من فوق نخيل قبا و بساتينها المتميزة بخضرتها الزمردية من بين وجه السهل الأسمر المعتم، شرائط عريضة من الضباب الليلاقى المتكاثف بالندى المتجمع هنا، و المتباعد هناك، بفعل الأشعة المنبعثة فى الصباح. و فى أسفل السهل، على بعد ميلين منا، كانت تربض المدينة المنورة، فتبدو كأنها مكان كبير متسع، لكننا ما دنونا و تبيناها على قرب حتى تبين لنا أن انطباعنا ذلك كان شيئا و هميا. و كان يخترق السهل ما بين الحرة و المدينة طريق ملتو يؤدى إلى مدخل مرتفع مستطيل الشكل يخترق السور الطينى المحيط بالضاحية، و هو مدخل «العنبرى». و تقوم إلى يساره قباب و منائر مبنى تركى جميل، هو التكية التى شيدها محمد على لاستقبال مسافرى الدراويش، كما يمتد إلى يمينه خط طويل واطىء من الأبنية البيضاء المزدانة بشبابيك مربعة بشعة .. و فيما بين النخيل القائم فى شمال المدينة من الخارج كانت تبين خربة سبيل قديم واسع بصورة رائعة، و فيما بين هذه الخربة و القلعة كانت تقوم بناية بارزة مبنية على طراز المقاصير التركية، و هى قصر الحاكم. و تبين فى زاوية سور البلدة الشمالية الغربية قلعة بيضاء طويلة مشيد قسم منها فوق كتلة بارزة من الصخر. و تكسب هذه البناية استحكاماتها محمد على باشا الخديو

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۲

و مزاغيلها مظهرا أوربيا حديثا يفارن مقارنة غريبة بتاريخها الشرقى الخالص.

و تقوم فى ضاحية «المناخة» القباب و المنائر الجديدة من فوق المساجد الخمسة لامعة بين الكتلة الداكنة المتكونة من البيوت و

الأرض المحيطة بها. و فيما وراء ذلك فى أقصى القسم الشرقى من المدينة تبين بصورة رائعة جوهرة المدينة أى الأبراج (لعله يقصد المنائر) العامرة الأربعة و القبة الخضراء اللامعة التى يثوى تحتها جدث النبى الطاهر. و يبدو محتجبا نصف احتجاب بهذه الكتلة من الأبنية و بيوت البلدة، من بعيد عدد من البقع البيضاء منطبع فوق سطح أخضر، يشير إلى القبور التى تزدان بها مقبرة البقيع الموقرة. و تبدأ من تلك النقطة إلى الجنوب كتلة النخيل و بساتينها التى عرفت فى الإسلام ب «أشجار المدينة». و تبرز من وراء هذا المنظر خلفية ملائمة تتكون من حقول الجفاء (البازالتى) الأسود الدال على أصل بركانى واضح، و المتكسر إلى كتل جسيمة ضخمة يتلوى نزلا من بينها بانحدار يسمح بنزول الإبل طريق يؤدى إلى السهل.

ابراهيم باشا ابن محمد على باشا

و يصف بورتون بعد ذلك ساعة الوصول و الاستقبال فيقول خلال هذا: ان العرب يبدون فى هذه المناسبات من العواطف أكثر مما تبديه سائر الأقوام الشرقية التى يعرفها، ففى طبيعتهم من الحنان و المحبة الشىء الكثير، و هم أكثر تعبيرا عن عواطفهم بكثير من الهنود .. و بعد أن مرّ الركب من باب العنبرى ساروا أرتالا- فى شارع عريض مغبر فاخترقوا حارة العنبرية، و هى الحارة الرئيسة فى ضاحية المناخة .. ثم عبروا جسرا يتكون من طاق حجرى واحد مشيد فوق مسيل يسمى «السيح»،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۳

و بعده بقليل وصلوا إلى «بر المناخة»، و هذا يؤدى باتجاه مستقيم إلى «الباب المصرى» للمدينة.

بين مكة و المدينة

و فى فصل خاص يفرده بورتون لزيارته قبر النبى (ص) يستهل الكتابة بالخوض فى موضوع المفاضلة بين مكة و المدينة. فيقول ان المسجد النبوى هو أحد الحرمين، و ثانى الأماكن المقدسة الثلاثة المعدة للعبادة، أما الإثنان الآخران فهما المسجد الحرام فى مكة الذى يعود بقدسيته إلى إبراهيم الخليل و المسجد الأقصى فى القدس الشريف. و يذكر فى حاشية له على هذا القول أن البعض يضيفون مكانا رابعا إلى هذه الأماكن الثلاثة، و هو «مسجد التقوى» فى قبا. و قد ورد فى الحديث عن النبى قوله «الصلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى أماكن أخرى، إلّا المسجد الحرام». و لذلك فمن واجب الزائر الذى يبقى فى المدينة أن يصلى هناك فى الأوقات الخمسة، و يقضى النهار بقراءة القرآن الكريم فيه، و الليل فى التأمل إن أمكن.

و يسمى الدخول إلى المسجد النبوى و تفقد الأماكن و البقع المقدسة فيه «الزيارة». و هناك فرق أساسى بين هذا الطقس و الحج إلى بيت اللّه الحرام.

فالحج فريضة واجبة يفرضها القرآن على كل مسلم مرة واحدة فى حياته، أما الزيارة فعمل مستحب. و الطواف الذى يتم فى بيت اللّه فى مكة يجب أن لا- يؤدى حول قبر الرسول مطلقا، و على الزائر أن لا- يزور القبر المطهر بلباس الا-حرام و لا يلمسه بيده أو يضغط بصدره عليه كما يفعل فى الكعبة، و لا يعفّر وجهه بالتراب المتراكم من حوله.

و يخال للمرء أن هذه النقاط تكفى للاتفاق على منزلة المسجد النبوى و مكانته الروحية، لكن الناس تختلف على الدوام، و لا سيما فى الشرق فيذهب المالكيون إلى أن المدينة أكثر تبجيلا من مكة نظرا لقدسيتها و المنافع الدينية المستمدة منها، و لوجود قبر النبى (ص) فيها. و يقرل البعض أن الرسول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۴

عليه السلام فضّل مكان هجرته على أى مكان آخر و باركه كما بارك إبراهيم مكة. يضاف إلى هذا أن الحديث المختص يستفاد منه أن جسم كل امرء يستمد من الأرض التى يدفن فيها، و لذلك فقد حظيت المدينة بشرف تقديم المادة لجسم الرسول الأعظم. و هناك آخرون مثل عمر بن الخطاب لم يكونوا متأكدين من أى شىء يفضلون. و لما كان الوهابيون من جهة أخرى لا يعترفون

بشفاعة الرسول يوم القيامة، و يعتبرون قبر الرسول قبرا مثل سائر القبور شيئا لا يعتد به، و وسيلة للعبادة الوثنية التى يمارسها بعض المسلمين الحمقى، فقد نهبوا المبنى المقدس بعنف ينطوى على التدنيس و منعوا الزوار القادمين من البلاد النائية عن الدخول إلى المدينة .

على أن المسلمين يجمعون على أفضلية بيت اللّه الحرام فى مكة على كل شىء فى العالم، و يعترفون بأن المدينة أكثر احتراما و تبجيلا من أى جزء من مكة، و جميع ما فى الأرض، عدا بيت اللّه. و لا شك أن هذا لا يعنى تفضيل سكان مكة على سكان المدينة أو بالعكس، لكن المكيين فى الوقت نفسه يدعون ادعاء مطلقا بأفضليتهم على أهل المدينة، و كذلك يفعل المدنيون (الص ۳۰۴- ۳۰۷ ج ۱).

مظهر الحرم النبوى

و حينما حاول بورتون الدخول إلى الحرم الشريف فى المدينة لم يجد له جبهة خارجية واضحة، و لا منظرا يليق بمسجد الرسول على ما يقول، و لذلك فهو كمبنى مقدس لا جمال فيه و لا جلال. و بعد أن دخل من «باب الرحمة» اندهش من منظره العادى و البهرجة الرخيصة المتجلية فيه، التى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۵

تعد شيئا غير لائق لمثل هذا المكان الذى يجله المسلمون فى مشارق الأرض و مغاربها و يقدسونه كل التقديس. و هو ليس مثل بيت اللّه الحرام المهيب البسيط، المعبر عن فكرة سامية واحدة. و يقول كذلك: اننى كلما أمعنت النظر فيه تبين لى أشبه بمتحف فن من الدرجة الثانية، أو دكان تحف قديم ممتلىء بالتزويقات غير الكمالية، و مزدان بفخامة الفقراء.

.. و المسجد متوازى الأضلاع يناهز الأربع مائة و عشرين قدما فى الطول و الثلاث ماية و أربعين فى العرض، و يتجه طوله من الشمال إلى الجنوب تقريبا. و هو مثل سائر المبانى الدينية الإسلامية المعتادة مبنى فيه ساحة وسطى مكشوفة تسمى الصحن، أو الحوش، أو الحصوة، أو الرملة، يحيط بها بهو له صفوف عديدة من الأعمدة على شاكلة الأديرة الإيطالية. و الأروقة فيه سقوف منبسطة، لكنها مقببة من فوق بقبب تشبه القبب الإسپانية نصف النارنجية، و تقسم إلى أربعة أقسام بممرات ضيقة تنخفض عن مستوى التبليط بثلاث أو أربع درجات. و يمتد على طول الجدار الشمالى القصير من داخله الرواق المجيدى المسمى باسم السلطان الحاكم (عبد المجيد)، كما يشغل الجدار الغربى الطويل رواق باب الرحمة، و الجدار الشرقى رواق باب النساء.

و يستمد الرواق الأخير اسمه هذا من قربه من قبر السيدة فاطمة (ع)، و يدخل النساء منه عندما يردن زيارة القبر المطهر.

و يحتضن الطول الداخلى للجدار الجنوبى القصير صف الأعمدة الرئيس المحيط بالروضة، أى الموضع المحتوى على جميع ما هو مقدس فى الحرم.

و هذه الأروقة الأربعة المقدسة من الخارج تحملها من الداخل أعمدة تختلف بعضها عن بعض فى الشكل و المادة. و قد بلط الرواق الجنوبى الذى يقوم فيه الضريح بقطع جميلة من الرخام الأبيض المشغول بشغل التطعيم، المغطى هنا و هناك بالحصر الخشنة التى فرش فوقها السجاد غير النظيف المتأكل بأرجل المؤمنين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۶

المنائر

يبلغ عدد المنائر فى الحرم الشريف خمسة، لكن منارة واحدة، هى الشكيلية التى تقوم فى الزاوية الشمالية الشرقية من المبنى قد هدمت و ما تزال تبنى بشكل جديد. و تقوم منارة باب السلام إلى جانب هذه الباب. و هى كأنها برج طويل جميل تعلوه كرة كبيرة أو

مخروط من النحاس الأصفر اللماع. كما تقوم منارة باب الرحمة فى منتصف الجدار الغربى، و هى أبسط فى شكلها من المنائر الأخرى، و لها حوضان يكون الأعلى منهما دائرى الشكل يعلوه سطح مخروطى كما هو مألوف فى تركية و مصر. و تقوم فى الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد المنارة السليمانية المسماة باسم بانيها السلطان سليمان القانونى. و هى برج متين البناء بالحجر، له ثلاثة أحواض يكون الحوضان الأسفلان منها مضلعى الشكل و الحوض الأعلى أسطوانى الشكل، و ينتهى كل منها بمنصة يدور حولها سياج حديد لحماية الذين يصعدون اليه.

و أخيرا، تقوم المنارة الرئيسية فى زاوية المسجد الجنوبية الشرقية، و المفروض فى هذا الموقع أن يكون الموقع الذى كان يقف فيه بلال مؤذن الرسول فيدعو المسلمين إلى الصلاة. و يقول بورتون انها سميت رئيسية لأنها مخصصة لرؤساء المؤذنين. و هى مثل المنارة السليمانية لها ثلاثة أحواض يكون الأولان منها مضلعين فى شكلهما و الثالث أسطوانى الشكل، و له مثل ما للأولين منصة مسيجة. و تنتهى كل من المنارتين الأخيرتين بشكل بيضوى صلب ينبت منه عدد من المثلثات الخشبية التى تعلق بها و بالمنصات مصابيح نفطية فى الأعياد و المناسبات، مثل مناسبة وصول موكب الحج الشامى- و هى محاولة هزيلة للأنارة يمكن أن تساعد على تفسير الخرافة المدنية التى تشير إلى عمود النور الذى يعلو قبر النبى (ص). و ليس هناك تناسق فى شكل هذه المناورات الأربع و حجمها، و لهذا تكاد تبدو لأول وهلة غريبة المنظر و فى غير محلها برغم ما فيها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۷

من جمال و جلال. و يقول بورتون انه بعد أن بقى فى المدينة عدة أيام صارت عيونه تألفها و لم يعد يجد صعوبة فى تقدير نسبها الضخمة و أشكالها السامقة (الص ۳۳۳ و ۳۳۴ ج ۱).

الأروقة و الأعمدة

و يسرى عدم التناسق الموجود فى المنائر إلى الأروقة المحيطة بالصحن المربع المكشوف فى الوسط أيضا. فعلى طول الجدار الشمالى سيكون عند الانتهاء من البناء الذى كان قائما على قدم و ساق صف جميل من الأعمدة الغرانيت التى بلطت الأرض فيما بينها بالرخام. و للرواق الشرقى ثلاثة صفوف من الأعمدة، و قد ثبتت الأربعة الغربية منها و الجنوبية، التى يقوم تحتها الضريح المطهر تثبيتا أعمق. لكن هذه الدعامات التى تدعم المبنى قد نحتت من مواد مختلفة، فبعضها رخام فاخر جميل، و بعضها الآخر حجر غير صقيل كسى و صبغ بآرابيسك مبتذل- أى ببقع و خطوط عريضة من اللونين القرمزى و الأسود مثل وجه المهرج اللندنى حينما يظهر فوق المسرح. يضاف إلى ذلك أن حجم الأعمدة مختلف أيضا، فتتألف الجنوبية منها من أساطين أضخم من الأساطين الموجودة فى سائر أنحاء المسجد، فنادرا ما تجد اسطوانتين لهما تاجان متشابهان، و كثير منها ليس له قواعد، كما أن بعضها قد قطع بجهل مؤلم بفن البناء.

و لذلك يقول بورتون انه لا يسعه أن يشمّل إعجابه بالمنارات الأعمدة هذه.

و من بين هذه الأعمدة التى لا تستحق الثناء، هناك ثلاثة لها شهرة فى تاريخ الإسلام و لذلك كتبت أسماؤها عليها بالدهان، و تتمتع خمسة أخرى بشرف التسميات المشهورة. فيسمى الأول «المخلق» لأنه لطخ بالخلوق فى مناسبة من المناسبات، و يقع هذا بالقرب من المحراب النبوى إلى يمين المكان الذى يصلى فيه الأمام، كما يدل على البقعة التى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۸

كان الرسول الأعظم عليه السلام قبل اختراع المنبر يتكىء فيها على «الأسطوانة الحنانة» و يلقى خطبة الجمعة. و العمود الآخر هو ثالث عمود من المنبر و ثالث من الحجرة، و يسمى «عمود عائشة» و كذلك «أسطوانة القرعة» لأن الرسول على ما تقول زوجته المفضلة صرح قائلا:

ان الناس حينما يعرفون قيمة هذا المكان سوف يستعينون بالقرعة للصلاة فيه. و يذكر فى بعض الكتب باسم «عمود المهاجرين»، كما

أن آخرين يسمونه «المخلق» كذلك.

و على بعد عشرين ذراعا من عمود عائشة، و عمودين من الحجرة، و أربعة أعمدة من المنبر يقع «عمود التوبة» أو عمود أبى لبابة. و قد سمى كذلك على أثر حادثة وقعت لأبى لبابة أحد الأنصار، اليهودى الأصل، أو الأوسى، الذى جاء يفاوض النبى عن بنى قريظة اليهود فأساء التصرف و ندم فقرر أن يشد نفسه بنخلة كانت فى هذه البقعة حتى يقبل اللّه و النبى توبته. أما الأعمدة التى تقل فى شهرتها فهى «أسطوانة السرير» التى كان من عادة النبى أن يجلس فى موقعها للتأمل فوق سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل. و تشير «أسطوانة على» إلى المكان الذى كان الأمام على يصلى فيه إلى جنب ابن عمه النبى. و فى موقع «أسطوانة الوفود» كان النبى (ص) يستقبل الوفود و الرسل و المبعوثين من البلاد الأخرى.

و تدل «أسطوانة التهجد» على المكان الذى كان النبى يمضى ليلة فيه مصليا متهجدا. و أخيرا «مقام جبرائيل» الذى لم يجد بورتون تفسيرا لأسمه الآخر «مربعة البعير».

و تطل الأروقة الأربعة فى مسجد المدينة على صحن أوسط مكشوف متوازى الأضلاع فى شكله. و الشيء الوحيد الذى يلفت النظر فيه سياج خشب مربع الشكل يحيط بتربة حسنة الأرواء تدعى «حديقة ستّنا فاطمة»، و توجد فيها اليوم (أى يوم زيارة بورتون فى ۱۸۵۳) اثنتا عشرة شجرة يهدى خصيان المسجد تمرها إلى السلطان و عظماء المسلمين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۶۹

و توجد بين النخلات بقايا لسدرة قديمة يباع ثمرها بأسعار عالية. أما البناية الصغيرة التى ذكرها بورخارت قبل أربعين سنة، و قال إنها توجد بالقرب من هذا الموقع، فقد هدمت قبل ثلاث أو أربع سنوات، و كانت تسمى «قبة الزيت» أو «قبة الشمع».

دفن النبى

و ينهى بورتون فصله الطويل الذى كرسه لوصف الحرم الشريف (الفصل السادس عشر ج ۱) بالتشكيك فى صحة المكان الذى دفن فيه النبى الأعظم، مستندا إلى أسباب تافهة. فهول يقول (الص ۳۳۹) انه برغم أن كل مسلم و مسلمة على وجه البسيطة، متعلما كان أو غير متعلم، يعتقد بجزم بأن رفات النبى محمد قد دفنت فى «الحجرة» بالمدينة، فأننى لا يسعنى إلّا أن أعتقد بأن المكان مشكوك فيه، مثل ما هو مشكوك بالقبر المقدس فى القدس الشريف.

و يجب أن نتذكر أن شغبا قد حصل حينما توفى النبى لأن الناس الذين كانوا يعتقدون بخلوده لم يصدقوا النبأ، و حتى عمر فعل ذلك و هدد بقتل من يصدقه.

يضاف إلى ذلك أن النبى ما صعدت روحه إلى بارئها فى السماء حتى حصل نزاع بين مهاجرى مكة و أنصار المدينة. و باحتدام هذا النزاع هدد البعض بحرق بيت على و فاطمة، الواقع على بعد أقدام معدودة من البقعة التى يوجد فيها جدث الرسول اليوم، ثم انتخب أبو بكر للخلافة فى مساء اليوم نفسه.

و يقدم بورتون فيما يأتى الأسباب التى تدعوه إلى الاعتقاد بمثل هذا الرأى العجيب!!.

فهو يقول ان قبر الرسول منذ أيامه الأولى لم يعرف شكله قط فى الاسلام، و لهذا السبب يكون شكل القبور محدبا فى بعض البلاد الاسلامية و مسطحا فى بلاد أخرى و لو كانت هناك سنة فى هذا الشأن لما كانت الحالة على ما هى عليه اليوم. كما ان الروايات، فالسمنهودى الذى يعد ثقة بين المؤرخين يناقض نفسه فى هذا الشأن. فتارة نجده يصف القبر المطهر، و تارة أخرى يقول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۰

بصراحة انه دخل الحجرة حينما كان يرممها قايتباى و رأى فى داخل الضريح ثلاثة لحود عميقة و لكن لم يجد أثرا للقبور. و لذلك فاما ان تكون وفات الرسول يكون الشيعة قد نقلوها الى مكان آخر حينما ظل القبر المقدس بعهدتهم قرونا عديدة. و أخيرا يقول

بورتون: انى لا يسعنى الا ان اعتبر قصة النور الذى يأخذ بالأبصار فيحيط بقبر الرسول، مما كان و ما زال يعتقد به المسلمون، تمويها ابتدعه المسؤولون لتغطية النقص المشار اليه. و لا اعتقد ان هذه الأسباب، و هذا الرأى، يستحق الرد عليها لأنها تتهادى أمام المنطق السليم .

شيء من تاريخ المدينة

و هناك فصل أفرده بورتون فى رحلته (الفصل السابع عشر ج ۱) لتاريخ المسجد النبوى لا نجد مبررا لا يراد شيء منه هنا نظرا لما جاء من هذا التاريخ فى صدر هذا البحث نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية. لكن بداية هذا الفصل تتطرق الى تاريخ المدينة القديم، و قد وجدنا من المناسب ايراده هنا لما فيه من طرافة و شيء من الفائدة بالرغم من كونه من الاخبار التى لا تتجانس مع التاريخ الاكاديمى العلمى فهو يقول ان ابن عباس أخبر العالم بان الثمانين شخصا الذين كانت تتكون منهم أسرة النبى نوح عند أول خروجه من الفلك نزلوا فى مكان يبعد عن بابل بعشر مراحل و اثنى عشر فرسخا، اى بمقدار ۳۶ الى ۴۸ ميلا- و هناك تناسلوا و تكاثروا ثم انتشروا فكونوا امبراطورية قوية، لكنهم انحرفوا عن عبادة اللّه العلى القدير فى الأخير على عهد نمرود بن كنعان بن حام. و بمعجزة من المعجزات تفرقوا أيدى سبا و انتشروا الى أقصى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۱

بقاع الأرض، ثم أخذوا يختلفون بتعدد لغتهم البدائية الى اثنتين و سبعين لهجة.

و قد أوحى الى قبيلة من هؤلاء تسمى أبناء سام بن نوح، أو العمالقة و العماليق، نسبة الى جدهم عملق بن أرفخشد بن سام بن نوح، بمعرفة اللغة العربية. فنزلت فى المدينة، و كانت أول من فلح الأرض و زرع النخيل فيها، و احتل هؤلاء الناس بمرور الزمن جميع الأراضى الواقعة ما بين بحرى الحجاز (البحر الأحمر) و عمان (الجزء الشمالى الغربى من المحيط الهندى) فأصبحوا أسلاف الجبابرة فى سورية و الفراعنة فى مصر. و كان عمر الانسان فى عهد هؤلاء العماليق طويلا بحيث لم يكن يرى خلال أربع مائة سنة أى تابوت و لم يسمع أى نوع من العويل فى مدنهم.

و يقول معظم المؤرخين ان آخر ملك من ملوك العمالقة، و هو أرقم بن الأرقم ذبحه جيش من أبناء اسرائيل أرسله موسى بعد «الخروج» أو هجرة اليهود و أمرهم بتطهير مكة و المدينة تطهيرا كاملا من سكانها الكفرة. فقضى على القبيلة كلها عدا امرأة واحدة و أطفال من الأسرة المالكة و فتى يافع منهم، لأن جماله الطاغى أقنع المحتلين باستبقائه الى ما بعد الرجوع الى رأى النبى فيه. و حينما عاد الجيش وجد موسى قد قضى نحبه، فأنّبهم الناس على مخالفة أمره الصريح. و لم يشأ أفراد الجيش ان يعيشوا مع الأمة التى استقبلتهم بمثل ذلك اللوم و التقريع، فعادوا الى الحجاز و استقروا فيه .

و يتفق المؤرخون المسلمون على ان بنى اسرائيل هم الذين حكموا بلاد العرب المقدسة بعد العمالقة، لكن المتبحرين فى التاريخ لا يتفقون على سبب هجرتهم الى هناك. فيقول بعضهم ان موسى حينما كان عائدا من الحج فى مكة وجد جماعة من اتباعه فى المدينة الدلائل التى يشير التوراة بواسطتها الى انه ستستمع الى خاتم النبيين و آخر المرسلين. فنزلوا فيها و انضم اليه كثير من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۲

البدو الموجودين حولها، و خضعوا لشريعة موسى. و يخبرنا ابن شيبة كذلك ان موسى و هارون حينما رحلا من مكة و اتجها نحو الشمال لم يدخلا الى المدينة خوفا من بعض اليهود الذين كانوا فيها، لكنهما نصبا خيامهما فوق جبل أحد. و حينما اوشك هارون على الوفاة حفر موسى قبرا له و خاطبه يقول «لقد أتتك الساعة يا أخى فوجه وجهك الى العالم الآخر». فتمدد فى القبر، و فاضت روحه فى الحال، و عند ذاك أهال موسى عليه التراب و توجه الى أرض الميعاد! .. و هنا يعلق بورتون و يقول انه شاهد قبة هارون فوق قمة أحد، لكنه يذكر كذلك ان قليلا من المراجع تعتقد بدفن هارون فى هذا المكان، لأن قبره موجود فوق جبل الطور فى شبه

جزيرة سيناء، و هو كثيرا ما يزار هناك.

و يزعم أبو هريرة ان بنى اسرائيل نزلوا فى المدينة بعد تفتيش طويل، لأنهم وجدوا فى كتبهم بعد أن طردوا من فلسطين على اثر احتلال بختنصر لها أن خاتم النبيين سيظهر فى بلدة من بلدان «عربية» تدعى «ذات نخل».

و قد احتل البعض من أبناء هارون المدينة، و نزلت القبائل الأخرى فى خيبر و ما جاورها و بنوا لهم أطما، أو حصونا مربعة مسطحة السطوح من الحجر للسكنى و الدفاع. و خلفوا لأجيالهم التالية ما يفهم منه أن محمدا يجب ان يستقبل استقبالا حسنا، لكن اللّه سبحانه و تعالى أغلظ قلوبهم فأدى ذلك الى هلاكهم.

فقد اداروا ظهورهم كالحمير الى رحمة اللّه، و كانت النتيجة ان استؤصلوا من الأرض.

و يذكر الطبرى فى تاريخه ان بختنصر بعد ان خرب أورشليم هاجم مصر و ذبح ملكها الذى كان قد آوى بقايا بنى اسرائيل، فوجد اللاجئون المطاردون طريقهم الى الحجاز و نزلوا بالقرب من يثرب، حيث أسسوا بلدانا عدة مثل خيبر، و فدك، و وادى الصبو، و وادى القرى، و قريظة، و كثير غيرها:

و لذلك يبدو باتفاق المؤرخين ان اليهود فى الزمن القديم اما ان يكونوا قد استوطنوا المدينة، أو حلوا محل العمالقة فيها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۳

و قد تخلى الاسرائيليون فى الأخير عن عبادة اللّه الواحد الأحد، الذى أثار قبائل الأوس و الخزرج العربية عليهم. و تمّت هذه القبائل بصلة الى أصل واحد، كما تزعم ان بلادها الأصلية هى بلاد اليمن. و تشرح ظروف هجرتهم الى المدينة على الوجه الآتى: فقد كان أحفاد يعرب بن قحطان بن شالك بن أرفخشد بن سام بن نوح، أقارب العمالقة، يعيشون عيشة مزدهرة فى بلاد سبأ، و كان نفوذهم يمتد الى رحلة شهرين عن سد مأرب بالقرب من عاصمة اليمن الحالية فيصل الى سورية. كما كانت تروى روايات لا تصدق عن ضيافتهم و خصب أراضيهم. فتبدلت قلوبهم كالمعتاد و انحرفت بتأثير الترف و الحياة المزدهرة التى كانوا يحيونها، و طلبوا من اللّه ان يريحهم من عناء الامبراطورية المترامية الأطراف و من واجبات الضيافة بتقليل ممتلكاتهم. فكانت نتيجة تضرعاتهم العاقة ما أصابهم من سيل العرم المعروف!!.

و كان رئيس أبناء قحطان بن سبأ، من أسر اليمن المالكة، رجلا يسمى عمرو بن ماء السماء، و يلقب «مزيقية» لأنه كان يمزق ثيابه بعد ان يلبسها مرة واحدة. و كانت لزوجته (تاركة) الحميرية معرفة تامة بالعرافة و الكهانة، فتكهنت بحوادث مميتة و أنذرت زوجها مقدما بذلك. و لما كان غير راغب بترك قبيلته من دون عذر أو مبرر، دبر مع ابنه بالتبنى ان يتشاجر معه و يلطمه على وجهه فى مأدبة كبيرة يحضرها رجال مملكته المرموقون. فاتخذ تلك الحادثة حجة لبيع أملاكه و هاجر الى الشمال يتبعه أبناؤه الثلاثة عشر، الذين كانوا كلهم من أمهم (تاركة) نفسها. و قد قدر للجماعة الصغيرة هذه، التى نجت من الطوفان فى اليمن على هذه الشاكلة أن يكون أحد أفرادها أبا للأنصار الذين نصروا رسول اللّه فى المدينة من بعد ذلك.

فقد انتشر أولاد عمرو جميعهم فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية، و اختار ابنه الاكبر سلبه بن عمرو الحجاز فنزل فى المدينة التى كانت يومذاك فى أيدى بنى اسرائيل العاقين، و أصبح أبا للأوس و الخزرج. و بمرور الزمن جعل اللّه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۴

سبحانه و تعالى من القادمين الجدد وسيلة للانتقام من اليهود المتمردين. إذ كانت قبيلتا بنى قريظة و بنى النضير تدعيان ببعض الحقوق الاقطاعية فى جميع مناسبات الزواج، و بعد ان تحمل أبناء الأوس و الخزرج هذه الاهانة مدة من الزمن التجأوا فى الأخير الى قريب من أقربائهم الذين كانوا قد نزلوا فى سورية عندما تفرقت الأسرة، و هو أبو جبيلة. فساق هذا جيشا الى المدينة و انتقم لشرف أقربائه فيها، و بذلك قضى على قوة اليهود الذين أصبحوا منذ ذلك اليوم موالى للعرب.

فعاشت قبائل الأوس و الخزرج بعد ان تحررت من عدوها المشترك عيشة هدوء و صفاء مدة من الزمن. ثم وقعت خلافات و ضغائن

بينهم بعد ذلك، و ظلوا يتقاتلون فيما بينهم حتى جاء النبى الأكرم الى المدينة فأصلح فيما بينهم.

على ان هذا لم يحدث الا بعد ان منى الخزرج باندحار شنيع على يد الأوس فى موقعة بواس حوالى سنة ۶۱۵ للميلاد.

و قد روى أيضا ان تبعا الأصغر سار نحو الشمال، قبل ان يحاصر أبو جبيلة المدينة بثلاثة قرون، بطلب من الأوس و الخزرج لتأديب اليهود. و بعد ان استولى على المدينة ترك أحد أبنائه حاكما فيها و زحف لاحتلال سورية و العراق.

غير انه أخبر فجأة ان أهالى المدينة قتلوا أميرهم الجديد غيلة فعاد تبع لتوه و أخذ بمهاجمتها. و حينما قتل حصانه من تحته فى أثناء الهجوم أقسم بأن لا يقوض خيامه ما لم يهدم المدينة على أهلها. و عند ذاك خرج له اثنان من كهنة اليهود و أحبارها، هما كعب و أسيد، و أخبراه بأنه ليس فى مقدور البشر ان يهدم هذه المدينة لأن اللّه سيحميها على ما تذكره كتبهم، و يجعلها ملجأ لنبيه من أبناء أسماعيل.

فتهود تبّع و أخذ أربع مائة من أحبار اليهود معه و ترك المدينة، و بعد ان حج الى الكعبة فى مكة و أنعم عليها بكسوة ممتازة، و شيد فى المدينة دارا للنبى المنتظر عاد الى عاصمة ملكه فى اليمن. و هناك ألغى عبادة الأصنام و عامل ضيوفه الأحبار بكل عناية و رعاية، ثم كتب على فراش الموت ما فحواه:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۵

«أشهد ان أحمد على حق، و هو نبى اللّه خالق الأرواح، و لو امتد عمرى الى أيامه لصرت وزيرا له و ابن عم». و بعد ان ختم الورقة سلمها الى الحبر الأكبر و أخذ عهدا منه بأن يسلم الكتاب الى النبى الأعظم اذا سنحت له الفرصة، و اذا طال الزمن و بعد اليوم الذى يظهر فيه فان الكتاب يجب ان يسلم من جيل الى آخر حتى يصل اليه. و قد عهد بالدار التى بنيت فى المدينة الى حبر كان من نسله أبو أيوب الأنصارى الذى كان أول شخص تجاوز عتبة بابه النبى عندما وصل الى المدينة فى هجرته. و كان عند أبى أيوب كتاب تبّع نفسه، و بذلك وصل الكتاب بعد ثلاثة أو أربعة قرون الى المرسل اليه .

ثم يبدأ بورتون بذكر علاقة النبى و المدينة و كيفية وقوع الهجرة المباركة اليها مما هو معروف فى التاريخ. لكنه يذكر أيضا فى حاشية له قوله أنه من الغريب ان يكون عبد اللّه أبو النبى قد مات فى المدينة و دفن فيها، و ان يكون قبر أمه آمنة فى الأبواء على طريق المدينة. و فيها أيضا تزوج هاشم جده الاكبر سلمى المتدلية التى كانت متزوجة قبله من أحيحة الذى ينتمى الى الأوس. فكان جده شيبة المسمى بعبد المطلب فى العادة ابنا لسلمى هذه، و قد نشأ فى المدينة أيضا.

تشكيلات الحرم

و يأتى بورتون على تشكيلات الحرم النبوى الادارية و العلمية. فيقول ان هذه التشكيلات قد تغيرت كثيرا منذ أيام الرحالة بورخارت (۱۸۱۴) الذى سبق ان أشرنا اليه، و كان ذلك بتأثير المولدين الأتراك و نفوذهم.

و على هذا الأساس لم يعد «شيخ الحرم» من الخصيان. و كان على أيام بورتون رجلا من پاشوات الأتراك يدعى عثمان، تعين من استانبول براتب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۶

قدره ثلاثون ألف قرش فى الشهر. و نائبه خصى أسود يسمى «رئيس الأغوات»، و يتقاضى خمسة آلاف قرش فى الشهر، و كان يومذاك يسمى (طيفور أغا) و هو عبد من عبيد (عصمة سلطانة) أخت السلطان محمود المتوفى. و يطلق على رئيس الخزانة «مدير الحرم» و هو يراقب (الخزنة دار) فى عمله و يتقاضى راتبا قدره ألف و خمس مائة قرش، كما يشتغل فى معيته مساعد يسمى «نقيبا»، و يتقاضى ألف قرش. و هناك شيوخ ثلاثة للخصيان يتقاضى الواحد منهم ما بين سبع مائة و ألف قرش فى الشهر. و يبلغ عدد الخصيان حوالى مائة و عشرين، و هؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طوائف: البوابون الذين يفتحون أبواب الحرم، و الخزنة الذين يكنسون الاقسام

النظيفة من الحرم، و الطائفة الأخيرة التى يعرف أفرادها بالبطالين، و هؤلاء يكنسون سائر أجزاء الحرم و يضربون الذين يجدونهم نائمين و يعملون كالشماسين فى الكنائس.

و يتراوح راتب الواحد منهم ما بين (۲۵۰) و (۵۰۰) قرش فى الشهر.

و تعتبر وظائفهم شرفية، و هم فى العادة متزوجون، و بعضهم متزوج من ثلاث زوجات أو أربع.

و هناك إلى جانب الخصيان عدد من الخدام الأحرار يطلق عليهم (الفراشون) و يكاد ينتمى جميع أفراد الطبقة الوسطى و الدنيا من سكان المدينة الى هذه الطائفة من الخدم، و هم يقسمون الى جماعات يتألف كل منها من ثلاثين، و يتبدلون كل أسبوع بعد ان يتقاضوا عن خدماتهم «غازى» واحد أو ما يعادل اثنين و عشرين قرشا. و ينحصر عملهم فى مسح الأرض و غيرها و ازالة التراب عنها، و فرش السجاد، و ملء المصابيح بالنفط بعد ان ينزلها الخصيان لهم من السقوف، و غير ذلك

و أخيرا هناك الطبقة الدنيا من الخدم المتألفة من «شيخ السقاقى» الذى يشتغل فى معيته أربعون الى خمسين رجلا يقومون بفرش الساحات و سقى الحدائق و تقديم الماء للزوار.

اما التشكيلات الدينية فهى على نطاق أوسع من التشكيلات الادارية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۷

الرحالة السر تشارلز بورتون باللباس العربى ۱۸۵۳

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۸

فهناك القاضى الذى يبعث كل سنة من استانبول، و بعد أن يقضى اثنى عشر شهرا فى المدينة ينتقل الى مكة ثم يعود الى بلاده بعد خدمة سنة أخرى فيها.

و يشتغل فى معيته ثلاثة (مفتين): المفتى الشافعى، و المفتى الحنفى، و المفتى المالكى. و كل من هؤلاء يتقاضى حوالى مائتين و خمسين قرشا فى الشهر.

اما الرؤساء، كما يسمى المؤذنون هنا، فهم كثيروا العدد. فهناك ثمانية و أربعون او تسعة و أربعون مؤذنا من الطبقة الدنيا، و يترأسهم ستة من المؤذنين الكبار.

و هؤلاء أيضا يرأسهم شيخ الرؤساء الذى يحق له فقط ان يؤذن من فوق «المنارة الرئيسية». و هذا الشيخ يتقاضى مائة و خمسين قرشا، اما الرؤساء فيتقاضى كل منهم مائة، المؤذنون الاعتياديون ستين. و هناك فى الحرم أيضا خمسة و أربعون خطيبا يعظون و يؤمون المصلين فى أيام الجمع لقاء مائة و عشرين قرشا فى الشهر، و هم تبع لرئيس الخطباء. و يدفع المبلغ نفسه إلى خمسة و سبعين إماما يقرأون الصلوات الخمس يوميا فى الحرم، و يترأسهم شيخ الأئمة.

و لم يستطع بورتون الحصول على معلومات مضبوطة حول المبلغ الذى تحوّل سنويا من استانبول و القاهرة الى المدينة. فالنقطة الوحيدة المتفق عليها بين الناس فى هذا الشأن ان معظم هؤلاء يحرمون من نصف مخصاصاتهم عادة و يبتزها غيرهم. فحينما تصل الصدقة و مبالغ الأوقاف الى المدينة تسلم الصرّة الى المفتين و رئيس الخطباء و كاتب القاضى. و هؤلاء تتكون منهم لجنة خاصة، و بعد أن يحصوا الأسر المستحقة يقسمون المبالغ فيما بينها بموجب العدد الذى تتكون منه الأسرة الواحدة و منزلة المستحق. و يقسم هؤلاء الى الدرجات التالية:

أ- العلماء و المدرسون الذين يعظون و يحاضرون و يعلمون البالغين من الناس فى الحرم.

ب- الأئمة و الخطباء.

ج- السادة من نسل النبى.

د- الفقهاء و الملالى.

ه- العوام بما فيهم أهالى المدينة و المجاورون.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۷۹

و قد استقى بورتون هذه المعلومات من عمر أفندى الذى ينتمى إلى الدرجة الثانية من هذا التصنيف. و قد أخبره بأن حصته تتراوح بين ثلاثة الى خمسة عشر ريالا فى السنة.

سكان المدينة

ذكرنا فيما سبق من هذا البحث ما كتبه الرحالة بورخارت عن سكان المدينة حينما زارها فى ۱۸۱۴، و سنورد هنا ما كتبه بورتون بعده بأربعين سنة فى الموضوع نفسه، منتقين منه ما لم يتطرق الى ذكره الرحالة الأول.

فيقول بورتون ان المدينة فيها عدد قليل من الأسر المتحدرة فى نسبها من أنصار النبى الأقدمين، و أنه سمع عن أربع منها:

۱- بيت الأنصارى، أو سلالة أبى أيوب الأنصارى النبيلة التى تفرعت شجرتها تفرعا كبيرا خلال مدة تناهز الألف و خمس مائة سنة. و مع ان هؤلاء يحملون مفاتيح مسجد قبا، و يخدمون أئمة فى الحرم الشريف، فانهم لم يعودوا من الأسر الثرية القوية.

۲- بيت أبى جود، و هؤلاء يزودون الحرم بعدد من الأئمة و المؤذنين.

لكن المعروف فى أواسط القرن الخامس عشر بأن الأسرة لم يبق منها سوى شخصين هما ولد و بنت. ثم يقول بورتون بالمناسبة ان الرحالة المغربى ابن جبير يروى انه شاهد فى المدينة مؤذنا من نسل بلال مؤذن الرسول يمارس المهنة التى تخصصت بها أسرته عبر القرون.

۳- بيت الشعب، و هذه أسرة كثيرة العدد اتخذ قسم من ابنائها الترحال مهنة لهم، و اتخذ الآخرون التجارة و الخدم فى الحرم الشريف.

۴- بيت الكرانى، الذين يشتغلون غالبا فى الأمور التجارية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۰

ثم يتطرق الى ذكر النخاولة الشيعة فيورد نقاطا و تهما ما أنزل اللّه بها من سلطان عنهم، و لعل ذلك من خيال المتعصبين الذين نقلوا له هذه الأخبار عن مثل هذه الطبقة من الناس التى كانت تشتغل فى صدر الاسلام فى الفلاحة عند الامام الحسن عليه السلام، كما ألمحنا فى السابق. و كذلك يتكلم عن بنى حسين و الخليفية مما أوردناه فى بحث الرحالة بورخارت. و يزيد على ذلك بذكر الصديقية من نسل أبى بكر، و بنى النجار الذين يقول عنهم انه لم يجد أحدا يزوده بأى خبر يختص بهم. و يحلل بعد ذلك أوضاع سكان المدينة من جميع الوجوه بفصل يستغرق ثمان و عشرين صفحة كاملة، و من المؤسف انه ليس من الممكن ايراد ذلك هنا.

البقيع

و قد زار بورتون مقبرة البقيع زيارة خاصة، فخرج مع جماعته من المدينة سالكا درب الجنازة اليها، الذى يحاذى السور الجنوبى .. و هو يقول عند الوصول اليها ان هناك خبرا يقول ان سبعين ألف قديس، و فى رواية مائة الف، سوف يبعثون يوم القيامة من البقيع. و ان عشرة آلاف صحابى، و عددا لا يحصى من السادة، قد دفنوا فى هذه المقبرة على مر السنين فاندرست على مر السنين فاندرست قبورهم لأن القبور فى الأزمنة القديمة لم تكن توضع عليها شواهد. و أول من سيبعث يوم النشور النبى الأعظم (ص)، و بعده أبو بكر، و بعده عمر، ثم أهل البقيع، ثم دفناء مقبرة «جنة المعلا» فى مكة المكرمة.

و كان أول شخص فى الاسلام دفن فى البقيع عثمان بن مظعون، لأنه أول من توفى فى المدينة من المهاجرين. ففى اليوم الثالث من شعبان سنة ۳ للهجرة قبل النبى جبين جثته و أمر بدفنها فى مدى الرؤية من مقره. و كان المكان فى تلك الأيام حقلا ينتشر فيه عدد من أشجار الغرقد، فقطعت الأشجار و سويت الأرض فدفن ابن مظعون فى وسطها. ثم وضع النبى بيديه الكريمتين حجرين شاهدين

كبيرين فوق رأس صاحبه و قدميه. و يقول بورتون فى حاشية له ان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۱

مروان بن الحكم رفع هذين الحجرين بعد ذلك حينما قرر عدم تمييز هذا القبر، لكن المسلمين استهجنوا هذا العمل من وكيل معاوية. و لعل ابن مظعون كان من خصوم الأمويين. هذا و قد أنشئت بمرور الزمن قبة فوق هذا القبر. ثم دفن الى جنبه ابراهيم الابن الثانى للنبى محمد، فأصبح البقيع من بعد ذلك مقبرة مشهورة.

و مدفن الأولياء هذا له شكل متطاول غير منتظم تحيط به جدران متصلة بالضاحية من زاويتها الجنوبية الغربية. و يحجزه درب الجنازة عن سور المدينة، كما يحده من الشمال طريق البادية الشرقى الذى يخرج من باب الجمعة. و تعتبر هذه المقبرة صغيرة اذا ما لوحظ أن جميع من يتوفاه اللّه فى المدينة من أهلها و من الغرباء يتأملون ان يدفنوا فيها الا الرافضة و الكفرة. و لذلك فلا بد لها من ان تضيق بجثث الموتى الذين لا يمكن ان تستوعبهم لو لا ان الطريقة التى يدفن بها المسلمون موتاهم تساعد على التفسخ و الاندراس .. و ليس فى داخل المقبرة أزهار و لا أشجار باسقة، و لا كل شىء مما يخفف كآبة المدافن المسيحية فى العادة، حتى ان الأبنية التى فيها تعد شيئا بسيطا للغاية او حقيرا فى الحقيقة.

و لقد هدم الأبنية و النصب القديمة التى كانت موجودة فيها الأمير سعود و أتباعه الوهابيون الذين شنوا حملة شعواء ضد ما لا بد من أنهم كانوا يعتبرونه شيئا باذخا من الأضرحة، لأنهم يعتقدون بأن خير القبور الدوارس. و كان منظر هذه المقبرة حينما زارها بورخارت من قبل (۱۸۱۴) عبارة عن «.. أكوام مبعثرة من التراب، و حفر واسعة، و أنواع من الزبل، من دون شاهدة واحدة على أى قبر. و يرجع الفضل لما بنى منها بعد ذلك الى السلطانين عبد الحميد و محمود ..».

و يقول بورتون كذلك: .. و قد دخلت المقبرة المقدسة مقدما رجلى اليمنى كما لو كنت أدخل الى المسجد، و حافى القدمين لأتحاشى اعتبارى من الرافضة.

فمع ان أهالى المدينة يدخلون اليها بأحذيتهم فانهم يغتاضون كثيرا حينما يرون الايرانيين يفعلون مثلهم. ثم بدأنا بقراءة الزيارة العامة المألوفة .. و أعقبناها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۲

بقراءة سورة الاخلاص و الشهادة، و بانتهائها رفعنا أيدينا و قرأنا الفاتحة قراءة خافتة و مسحنا أيدينا على وجوهنا و تحركنا.

و حينما سرنا فى ممر ضيق يؤدى من جهة البقيع الغربية الى الجهة الشرقية دخلنا مرقدا متواضعا أقيم فوق قبر الخليفة عثمان .. فعندما قتل أراد أصحابه ان يدفن فى «الحجرة»، لكن ثوار مصر قابلوا ذلك بعنف و أقسموا أن لا يدفن هناك و لا يصلى عليه، و انما سمحوا فقط بنقله بعد تهديد حبيبة أم المسلمين (و بنت أبى سفيان) لهم. و فى خلال الليلة التى أعقبت وفاته نقل عثمان الى البقيع من قبل أصحابه، لكنهم طردوا من هناك أيضا فاضطروا الى ايداع حملهم فى بستان تقع فى الجهة الشرقية الخارجية من مقبرة الأولياء هذه. و كانت تدعى «حصن كوكب» حتى أدمجها مروان بالبقيع. و قد وقفنا على مرقد عثمان هذا و تلونا الزيارة .. و بعد ذلك دفعنا الصدقات و أرضينا الخادم بعشرة قروش.

و بعد هذا سرنا خطوات قليلة الى الشمال و توجهنا نحو الشرق فزرنا أبا سعيد الخدرى صاحب النبى الذى يقع قبره فى خارج البقيع. و كان المكان الثالث الذى زرناه قبة تحتوى على قبر السيدة حليمة البدوية (السعدية) مرضعة النبى محمد .. و من هناك توجهنا الى الشمال فوقفنا أمام مبنى صغير يحتوى على أكوام بيضوية الشكل من الأحجار المتناثرة، و هى قبور شهداء البقيع الذين قتلهم مسلم قائد كبير الفاسقين يزيد. و يقول بورتون فى حاشية له هنا (الص ۳۷ ج ۲) ان الامام الشافعى يسمح لأتباعه بسب يزيد بن معاوية الذى جعلته قساوته مع آل البيت، و جرائمه و موبقاته، يهودا الأسخريوطى المسلم. و قد سمع بورتون مسلمين أحنافا يسبون يزيدا كذلك. أما الوقفة الخامسة فكانت بالقرب من وسط المقبرة على قبر ابراهيم ابن النبى الذى توفى و عمره ستة أشهر، أو سنتان على قول

البعض. و كان ابن مارية القبطية التى أهداها الى النبى (ص) جارح مقوقس الاسكندرية فى مصر. فقد أهال النبى التراب بيديه الكريمتين عليه، ورشه بالماء، ثم وضع الحجارات الصغيرة فوق ذلك و قرأ السلام الأخير

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۳

عليه. و لهذا السبب دفن الكثيرون من الرجال المقدسين فى هذا الجزء من المقبرة، لأن كل أحد كان يطمع فى ان يلحد فى الأرض التى شرفتها يدا النبى. و زرنا بعد هذا النافع ابن عمر المسمى نافعا القارى عادة، لأنه كان يجوّد القرآن، و الى جنبه مالك بن أنس ابن المدينة و رجلها الفذ. و كانت الوقفة الثامنة على قبر عقيل بن أبى طالب أخى الامام على. و هنا يعلق بورتون فى حاشية له و يقول ان عقيلا توفى دمشق على عهد معاوية، لكن البعض يذكر انه دفن هناك بينما يقول غيرهم ان جثمانه نقل الى المدينة بعد ذلك و دفن فى مكان كان يقوم فيه بيته من قبل و كان يسمى دار عقيل .. و قد زرنا بعد هذه البقعة التى دفنت فيها أزواج النبى جميعهن عدا خديجة التى دفنت فى مكة. و كان محمد (ص) قد تزوج خمس عشرة امرأة عاش منهن بعده تسع، و بعد أمهات المؤمنين قرأنا الفاتحة على قبور بنات محمد اللواتى يقال أنهن كن عشرا.

و بعد ان يصف بورتون (الص ۲۹ ج ۲) الشحاذين و أنواعهم و كيف يستقبلون الزوار يقول: .. و قبل ان نترك البقيع وقفنا وقفتنا الحادية عشرة فى القبة العباسية، أو قبة العباس عم النبى. و هنا يعلق فى الحاشية بقوله ان البعض يرون ان مراسيم الزيارة كانت و لا تزال تبدأ هنا، لكن ترتيب الزيارات يختلف و لا يتفق عليه اثنان، و كانت مسؤولية ما فعله تقع على ما فعله مزوّره الشيخ حميد، لأنه لم يشأ المجازفة بشىء من عنده .. ثم يستأنف وصف القبة و يقول:

و هذه القبة التى بناها الخلفاء العباسيون من قبل فى ۵۱۹ للهجرة أكبر و أجمل جميع القبب الأخرى، و تقع على يمين الداخل من باب المقبرة. و يدل على أهميتها تجمع الشحاذين بقربها، فقد جاءوا اليها و تكأكأوا عليها حينما و جدوا الايرانيين متجمعين فيها بكثرة و هم يبكون و يصلون. و بعد ان اجتزت العتبة بصعوبة طفت حول عدد من القبور كانت تشغل وسط المبنى من دون ان يكون بينها و بين الجدار الا ممر ضيق. و هى محاطة بسياج و مغطاة بعدة كساوى من القماش الأخضر المكتوب عليه بأحرف بيضاء. و تبدو هذه كأنها كومة مرتبكة، لكنها ربما بدت لى كذلك بسبب الازدحام المحيط بها. و توجد فى القسم الشرقى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۴

قبور الحسن بن على سبط النبى، و الامام زين العابدين بن الحسين، و ابنه محمد الباقر (الامام الخامس)، ثم ابنه الامام جعفر الصادق- و هؤلاء جميعا من نسل النبى و قد دفنوا فى نفس المرقد الذى دفن فيه العباس بن عبد المطلب عم النبى .. و بعد أن خرجنا و تخلصنا من أيدى الشحاذين الصغار وجّهنا وجهنا نحو الجدار الجنوبى الذى يوجد بقربه قبر ينسب الى السيدة فاطمة و قرأنا الدعاء المعروف.

و يقول بورتون فى حاشية مستفيضة (الص ۴۱ ج ۲):

.. و يبدو ان المؤرخين المسلمين يبتهجون بالغموض الذى يكتنف مدفن السيدة فاطمة الزهراء (ع) .. فبعضهم يذكر أنها دفنت فى الحرم الشريف و يستند فى ذلك الى الرواية التى تقول انها حينما علمت بدنو أجلها قامت فرحة مستبشرة فغسلت الغسل الكبير و لبست ملابسها النظيفة، ثم فرشت حصيرا على أرض بيتها الواقع بقرب قبر الرسول، و تمددت مستقبلة القبلة فوضعت يدها تحت خدها و قالت لمن حضر بقربها .. لقد تطهرت و لبست ثيابى الطاهرة، فلا تسمحوا لأحد بأن يكشف عن جسدى بل ادفنونى حيث أنا .. و حينما عاد على وجد زوجته قد توفيت، و نفذت رغبتها الأخيرة. و قد كان عمر بن عبد العزيز يعتقد بهذه الرواية فألحق الغرفة تلك بالمسجد، و لذلك فالاعتقاد العام فى الاسلام هو ان الزهراء البتول قد دفنت فى الحرم. اما اولئك الذين يعتقدون بأنها مدفونة فى البقيع فيستندون الى قول الامام الحسن: «.. فاذا لم يسمحوا بدفنى عند قبر جدى فادفنونى فى البقيع الى جنب أمى فاطمة ..» و هؤلاء يرون الخبر التالى فى هذا الشأن: .. فقد غسلها و كفنها على و أم سلمة، اما غيرهم فيقولون ن اسماء بنت عميس زوجة أبى بكر كانت بجنب فاطمة حينما اعترضت فى ساعتها الأخيرة على حملها للدفن كما يحمل الرجال. لكن أسماء وعدتها بأن تصنع لها نعشا أشبه

بمحفة العروس، من جريد النخل، على غرار ما رأته فى الحبشه، و عند ذاك ابتسمت فاطمة للمرة الأولى منذ ان توفى والدها و أخذت عهدا بأن لا يدخل عليها أحد طالما كان جثمانها الطاهر مسجى فى البيت. و لذلك لم تسمح أسماء لعائشة بالدخول حينما طرقت الباب عليها بعد ذلك، فذهبت شاكية الى أبيها و قالت له ان زوجة أبيها ستعمل محفة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۵

عرش خاصة تحمل بها جثة الزهرا الطاهرة الى مدفنها. فذهب أبو بكر الى الباب و سمع من زوجته ما كانت قد أوصت به فاطمة، فعاد راجعا الى بيته من دون اعتراض. و قد أخفيت وفاة ابنة النبى عن الكبير و الصغير برغبة منها، فدفنت خلال الليل من دون ان يشيع نعشها أو يصلى عليها أحد سوى زوجها الامام على و عدد قليل من أقربائها .. اما المكان الثالث الذى يقال انها دفنت فيه فهو مسجد صغير فى البقيع جنوبى قبة العباس بن عبد المطلب، و كان يسمى «بيت الحزن» لأنها قضت آخر أيامها فيه تندب فقد ابيها الغالى. و يبدو ان قبرها كان موجودا هنا من قبل، لكن الزوار يصلون عليها الآن فى مكانين:

اى فى الحرم و فى القبة العباسية .. و بعد ان غادرنا مقبرة البقيع تقدمنا شمالا تاركين باب المدينة الى يسارنا حتى أتينا على قبة صغيرة قريبة من الطريق، تحتوى على قبور عمات النبى و لا سيما صفية بنت عبد المطلب أخت الحمزة، و إحدى بطلات الاسلام فى أول عهده .. و نقول تعليقا على ما جاء عن دفن فاطمة الزهراء عليها السلام انه يفهم من هذه الروايات، و مما جاء فى «الامامة و السياسة» لابن قتيبة ان الزهراء توفيت و هى غير راضية عن ابى بكر، و لذلك لم تشأ ان يعلم بموتها هو أو غيره لئلا يصلى عليها و هو خليفة للمسلمين فدفنت فى بيتها الذى أدخل فى الحرم بعد ذلك. و على هذا فقد تكون الرواية المنسوبة الى الامام الحسن، التى يفهم منها انها مدفونة فى البقيع، غير صحيحة.

مساجد المدينة

يوجد فى المدينة، على ما يذكر بورتون (الص ۴۴ ج ۲) ما بين خمسين و خمسة و خمسين مسجدا، و بقعة مقدسة، لا يعرف معظمها اليوم حتى أهالى المدينة أنفسهم. و سأذكر أهمها فيما يأتى نقلا عن أفواه الناس.

فعلى بعد ثلاثة أميال من شمالى غربى المدينة، و فيما يقرب من وادى العقيق، يقع مسجد القبلتين. و يطلق البعض هذا الاسم على مسجد التقوى فى قبا، بينما يدعى البعض الآخر ان النبى (ص) بعد أن زار بيت امرأة عجوز

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۶

تدعى أم مبشر و أكل فيه ذهب ليصلى فى مسجد بنى سلمه. و ما صلى ركعة واحدة و هو متجه نحو بيت المقدس حتى أنذره الوحى فجأة فاتجه الى الجنوب، و أكمل الصلاة و هو يستقبل القبلة الجديدة. و قد علمت ان هذا المسجد لا يخرج عن كونه قبة حقيرة ليس له منارة و لا سور. و هناك أيضا مسجد بنى ظفر، أو مسجد البغلة، و قد سمى بالاسم الأخير لأن حجرا يوجد بالقرب من جهته الجنوبية تلاحظ فيه آثار بغلة النبى التى غرست حافرها فيه حينما وقف النبى (ص) بقربه و مال بذراعه عليها، و هى البغلة التى أهداها له المقوقس مع مارية القبطية و حمارها يعفور. و توجد فى هذا المسجد قطعة من المرمر كان النبى قد جلس عليها ذات يوم و استمع لتلاوة الذكر الحكيم، و يقول المؤرخون ان كثيرا من النساء اللواتى جلسن على هذه المرمرة أنعم اللّه عليهن بالأولاد. و يقع هذا المسجد شرقى البقيع.

و هناك فى واد بالقرب من قبا مسجد يسمى مسجد الجمعة، و هو المسجد الذى صلى فيه النبى (ص) و وعظ الناس فى أول جمعة بعد هجرته من مكة.

و يوجد ايضا مسجد يسمى مسجد الفضيخ، و قد سمى بهذا الاسم لأن أبا أيوب الأنصارى و جماعة آخرين كانوا جالسين فى موقعه ذات يوم و فى أيديهم كؤوس الشراب فسمعوا و هم فى تلك الحالة بنزول الآية التى تحرم الخمر، فما كان منهم الا ان أراقوا الشراب

فى الحال و امتنعوا عنه. و قد صلى النبى فى هذا الموضع ستة أيام حينما انشغل فى تأديب بنى النضير من اليهود. و يطلق على هذا المسجد ايضا مسجد الشمس لان أشعة الشمس الأولى تشرق عليه فى كل يوم. و فى شرقى مسجد الفضيخ يقع ما يسمى بمسجد قريظة، و هو مسجد شيد فى البقعة التى نزل منها النبى لمهاجمة بنى قريظة اليهود. و كان ذلك حينما عاد من موقعة الخندق و هو تعب، و جلس ليغسل يديه و وجهه، فظهر له جبرائيل فجأة على شكل فارس يلبس الدرع و قد علاه الغبار، و قال له «ان ملائكة اللّه ما زالوا شاكى السلاح أيها النبى، و تقضى مشيئة اللّه ان تعود قدماك الى الركاب، سأتقدمك لأمهد لك النصر على الكفار بنى قريظة».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۷

و تضيف الأسطورة الى ذلك ان الغبار الذى أثاره الضيف الملائكى شوهد من شوارع المدينة، لكن عيون الناس لم تقع عليه هو نفسه. فأمر النبى بدعوة تباعه الى الحرب، و سلم الراية الى على و هى علامة العرب فى تعيين القائد العام. فقضى على هذه القبيلة المناوئة، و كان هذا الحكم قد أصدره عليهم سعد بن معاذ شيخ الأوس الذى احتكموا اليه لأن قبيلته كانت حليفة لهم.

و هناك أيضا مسجد «مشربة أم ابراهيم»، و هو مشيد فى موقع كانت لمارية القبطية فيه حديقة. و هو بناية صغيرة تقع فى العوالى شمالى مسجد بنى قريظة و بالقرب من الحرة الشرقية. و تقع فى شمالى البقيع بناية صغيرة أخرى تدعى مسجد الأجابة، و سبب هذه التسمية ان النبى وقف ذات يوم ليصلى فى هذا المكان الذى كان يعود لطائفة من الأوس تسمى بنى معاوية. و قد قرأ دعاء طويلا بعد الصلاة ثم التفت الى أصحابه و قال: سألت اللّه ان يهبى ثلاثا، فأنعم على باثنتين منهما و رفض الثالثة .. اما اللتان استجاب لهما فهما ان لا يهلك المسلمين غرق و لا مجاعة، لكن التى لم يستجب لها فهى ان لا يهلكهم نزاع داخلى.

و يقع فى وادى السيح الذى يأتى من اتجاه قبا، على بعد حوالى نصف ميل من شرقى القبلتين، أربعة مساجد تسمى اعتياديا بمسجد الفتح. و يسمى أكبرها ايضا مسجد الفتح او مسجد الأحزاب اشارة الى ذكر الاحزاب الوارد فى القرآن الكريم، لأن النبى ظل يصلى فى مكان هذا المسجد ثلاثة أيام خلال موقعة الخندق، او موقعة الأحزاب التى يقال انها كانت آخر موقعة حارب فيها المسلمون قريشا و هم بقيادة أبى سفيان. و بعد هذه الأيام الثلاثة هبت ريح صرصر باردة يصحبها مطر نصف متجمد فأنزلت بالعدو خسائر فادحة.

و بذلك استجاب اللّه لدعاء الرسول، و لهذا يعتقد المسلمون المتدينون ان كل أدعاء يتلى فى هذا المكان لا بد من ان يستجاب .. و من جملة ما يؤيد ذلك ان الامام الشافعى كان يتلو الدعاء الخاص بهذا المكان حينما غضب عليه هارون الرشيد فنجا من سخطه. و يختلف فقهاء المسلمين اختلافا كثيرا فى تعيين موقع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۸

البقعة التى وقف فيها الرسول، لكن معظمهم يقول انها كانت فى موقع مسجد الأحزاب هذا هو أشد ارتفاعا بين المساجد الأربعة. و الى غرب هذا المسجد، و فى نقطة أوطأ منه، يقع مسجد سلمان الفارسى صاحب فكرة حفر الخندق ..

و فى أسفل مسجد سلمان يوجد مسجد على، كما ان البناية الصغرى التى تقوم فى جنوب الجبل هى مسجد أبى بكر. و يعزى الفضل فى تشييد هذه الجوامع الى الوليد الأموى، و قد رممت مرات عديدة فى أيام خلفائه.

و قد شيد مسجد الراية فى بداية الأمر الوليد فى المكان الذى كان الرسول عليه السلام قد نصب خيمته خلال أيام معركة الخندق. و يسميه البعض أيضا بمسجد الضباب اى باسم التل الذى يقوم عليه المسجد. و يفصل بين مسجد الراية و مسجد الفتح مرتفع من الأرض يسمى جبل سلع أو جبل الثواب.

و يعتبر هذا الموقع موقعا مهما لأنه يتسلط على منظر الحرم الذى يبين منه بوضوح. و على بعد ما يقرب من ميل و نصف من جنوب شرقى البقيع هناك قبة يطلق عليها «قوة الاسلام». و كان النبى قد غرس سعفة يابسة هنا فنمت و أزهرت ثم حملت ثمرا يانعا. يضاف الى ذلك ان النبى استطاع هنا، حينما لم يكن بوسع المسلمين الحج الى بيت اللّه الحرام فى سنة ما، أن يظهر للناس منظر الكعبة و عرفات و جميع متطلبات الحج الأخرى. و هنا يقول بورتون:

اننى يجب ان أنبه قرائى بأن لا يلوموا نبى الاسلام على هذه التلفيقات الصبيانية.

و يقع مسجد عنين فى جنوب قبة الحمزة، على تل يسمى جبل الرمة، و هو المكان الذى وقف فيه رماة السهام المسلحون فى معركة أحد. و يذهب البعض الى أن أمير الشهداء أصيب بجرحه المميت فى هذا المكان، بينما يذهب الآخر الى ان هذا الحادث وقع فى مكان مسجد العسكر أو مسجد الوادى.

و يقول بورتون فى حاشية له هنا ان المكان الذى خر فيه الحمزة صريعا قد شيدت عليه الآن «قبة المصرع».

و فيما عدا هذه أحصيت اسماء، أسماء فقط، اربعين مسجدا آخر، و ها انى أذكر المهمة منها: مسجد بنى عبد الأشهل، مسجد بنى حارثة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۸۹

مسجد بنى حارم، مسجد الفش، مسجد السوفية، مسجد بنى بياضة، مسجد بنى حطمة.

مشاهدات جون كين فى المدينة

و فى موسم الحج لسنة ۱۸۷۷- ۷۸ استطاع رجل انكليزى مغامر يدعى جون كين ان يدخل الحجاز و يحج البيت الحرام فى مكة، ثم يزور المدينة، بعد ان تظاهر باعتناق الاسلام و تسمى «محمد أمين» او الحاج محمد أمين.

بعد ذلك. و قد فعل كل هذا و هو فى ركاب أمير هندى مسلم و حاشيته، تعرف عليه فى جدة التى نزل فيها الى الحجاز لأول مرة. و حينما عاد الى بلاده كتب ما شاهده و مر به من تجربة فى كتاب خاص أسماه «ستة أشهر فى الحجاز» .

و اول ما يذكره عن الحج فى تلك السنة ان عدد الحجاج الذين نزلوا فى جدة ذلك الموسم يقدر ب (۷۱۸، ۴۲). و هو ينقل هذا عن تقرير للقنصل البريطانى فى جدة نشر فى جريدة التايمز اللندنية، فى عددها الصادر يوم ۲۶ تشرين الثانى ۱۸۷۸. فقد جاء فيها: يقول القنصل البريطانى فى جدة ان موسم سنة ۱۸۷۷- ۷۸ نزل فيه الى جدة (۷۱۸، ۴۲) حاجا، أى بزيادة (۴۰۰۰) حاج على عددهم فى السنة السابقة .. و قد قدر مجموع الحجاج الذين تجمعوا فى مكة يوم العيد الأكبر ما يزيد على (۰۰۰، ۱۸۰) نسمة.

و قبل ان ينضم الى موكب الأمير الهندى المسلم ذهب المستركين الى قنصل بريطانية فى جدة و أعطاه اسمه و عناوين اصدقائه فى انكلترة، ثم أخبره بما عزم عليه. لكن القنصل حاول ان يثنيه عن عزمه و ان يخوفه بما يمكن ان بتعرض اليه فى الطريق غير الآمنة، لكنه لم ينثن عن ذلك فباع ملابسه الافرنجية و اشترى ملابس عربية ليلبسها. و من طريف ما يذكره عن مشاهداته موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۰

فى مكة نفسهليئان: أولهما أنه سمع بوجود امرأة انكليزية تعيش فيها باسم «زهرة بكم» منذ سنين عديدة، و كانت قد جاءت الى مكة مع زوجها الهندى، بعد ان اغتصبها فى الهند، فتوفى فيها و اضطرت هى للبقاء و العيش فى مكة من كدّ يدها. فدبّر (كين) مواجهتها و استطلاع أمرها عدة مرات فكتب قصة مؤثرة عنها (الص ۳۵ و ۱۳۷ و ۳۰۰). و ثانيهما انه شاهد غرق المسجد الحرام فى اليوم الثامن الذى أعقب انتهاء الحج، على أثر زوبعة رعدية قوية و أمطار غزيرة هطلت خلال فترة طويلة فأنزلت المياه كأفواه القرب، و تسبب عن ذلك سيل عرم اكتسح الطرق و دخل المسجد الحرام، ثم أحاط بالكعبة المشرفة و تراكم فيها الى عمق سبع أقدام. و قد وصف كين كل هذا وصفا واضحا جد الوضوح (الص ۱۳۸- ۱۴۳).

اما المدينة المنورة فقد كتب عنها فصلين موجزين (الثالث عشر و الرابع عشر) يستهل الفصل الأول منهما بقوله ان المدينة عندما تشاهد من بعيد أول مرة يمكن ان تقارن باستانبول حينما ينظر اليها من بحر مرمرة، أو أية مدينة أخرى من المدن الجميلة فى العالم. و حينما تلوح للحاج التعب القادم اليها من مكة، بأسوارها البيضاء الطويلة، و منائرها العديدة المطلية بالذهب، و الشمس تشرق عليها فى الصباح، و بنطاق زرعها العريض الأخضر الذى يحيط بها فيحجزها عن جدب الصحراء المخيف المترامى الأطراف، تبدو كأنها جوهرة

متلألئة جديدة محاطة بفسيفساء من اللؤلؤ و الأوپال المطعم فى حاشية متألقة من الميناء الخضراء اللماعة .. و لذلك يقول كين ان المدينة كان يجب ان تسمى «المحظوظة» ايضا، لأنها تحتوى على جميع ما يمكن ان يريده

المسجد الحرام و قد غمره سيل الأمطار حتى صار بحيرة يسبحون فيها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۱

العقل الشرقى و يرتاح اليه من البيوت المنتظمة و الحقول النضرة و المياه الجارية و ما أشبه. و على هذا فحينما أشرفت قافلتهم على المدينة و بانت لهم معالمها من بعيد ضجت القافلة بأجمعها فرحة مسرورة و ابتهل المسافرون بالشكر و الدعاء، و حتى الابل العجماء المسكينة رفعت اعناقها الطويلة المتهدلة الى أعلى و بذلت قصارى ما عندها من جهد لتصل الى النهاية الدانية بأسرع ما يمكن، و قد وصلت القافلة بعد ان قطعت ميلين و نصف.

و يقول كين عن داخل المدينة انه وجد شوارعها نظيفة منتظمة جدا بالنسبة لما تكون عليه سائر المدن الشرقية. و وجد فيها جوا عاما من الازدهار و الرفاه الذى يلوح على المكان و السكان معا، الأمر الذى يعطى انطباعا حسنا للواصلين الجدد اليها. ثم يقول: و حتى الكلاب الموجودة فيها لم تكن نهمة شرسة مثل كلاب المدن الاسلامية الأخرى.

و قد زار الأمير الهندى الذى كان المستركين فى معيته عدد من تجار التمور الذين كانوا يحملون معهم نماذج من هذه الفاكهة. و قال له أحد هؤلاء ان خمسين نوعا من أنواع التمور تزرع فى المدينة، و أن أحسن أنواعها هو النوع المعروف باسم «الچلبى»، و هو نوع لا يمكن ان يجود بأحسن التمر الا فى المدينة نفسها. و ثمرته طويلة جدا و لذيذة، و لذلك اشترى الأمير نصف طن منه. اما النوع الآخر الذى يليه فهو نوع ثمرته صغيرة ذات فصمة أو نواة متضائلة جدا فى الحجم.

و يعود كين الى ذكر المدينة نفسها فيقول انه لا يمكن ان يوجد فى أنحاء الشرق كله مدينة صغيرة أكثر ازدهارا من المدينة المنورة. و يبلغ عدد نفوسها حوالى عشرين ألف نسمة ربما يكون ثلاثة أرباعهم من العرب، و الباقون أتراك و من جميع الأمم الاسلامية الأخرى تقريبا. و قد شيدت بيوتها من نفس المواد الانشائية التى شيدت بها بيوت مكة، لكن المدينة لا يرى الزائر فيها بيوتا مهدمة أو مهملة مثل ما يجد فى مكة. و بالحرارة الكافية الموجودة تجود ضواحى المدينة المروية بالمياه الوافية بانتاج أنواع لا حصر لها من الفواكه و الخضروات.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۲

فان قائمة ما يمكن ان يشترى يوميا من السوق يمكن ان تحتوى على البصل و الثوم و الجزر و الشوندر و الفجل و الفاصوليا و الخيار و العنب الفاخر. و يكاد ينمو فى المدينة جميع ما يمكن ان يتصوره الانسان تقريبا، علاوة على الحبوب المعتادة مثل الذرة و الحنطة و الشعير.

اما الفصل الثانى (الص ۲۲۷) فيفرده المستركين لوصف الحرم الشريف و ما شاهده فيه، و هو فصل صغير مختصر لا يمكن ان يقارن بفصول الكتب الأخرى عن الموضوع. و لما كنا قد وفينا وصف الحرم حقه فيما انتقيناه من المراجع المار ذكرها فسوف نقتصر هنا على ذكر بعض النبذ الواردة فى هذا المرجع .. فهو يذكر مثلا أن الأروقة المعمدة يبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثين قدما، و يبلغ عرضها أربعين قدما. و ان سطحها المقبب تحمله ثلاثة صفوف من الأعمدة المدورة، و ان التبليط يتألف من ألواح حجرية كبيرة صقيلة.

و يخصص الرواق الغربى للنساء فيصلّين فيه، و لذلك فهو معزول بمشبك خشبى.

و حينما انضم إلى صفوف المصلين فى داخل الحرم جلس فى صف بعيد عن المنبر حتى يحين الوقت لصلاة الظهر، و راح يلاحظ الجالسين من حوله فوجد أن أكثر من نصفهم من الهنود، أما النصف الباقى فكان من أهل المدينة مع عدد قليل من الأتراك و الأيرانيين. و فيما عدا بعض الهنود و العبيد كان الجميع يبدون بمنظر محترم نظيف، و يفضلون فى ذلك على المجتمع الذى شاهده فى مكة من قبل .. و من الغريب أن يقول المستر (كين) أن عرب المدينة يميلون إلى السمرة فى سيمائهم أكثر من اخوانهم المكيين

بينما يذكر السر ريتشارد بورتون قبله بخمس و ثلاثين سنة أن العكس هو الصحيح، و يقول علاوة على ذلك أن المدنيين أكثر تحفظا تجاه الأجانب من المكيين و أشد و قارا. و يخطىء حين يذكر الزهراء (ع) و دفنها فى الحرم الشريف فيقول انها كنّة النبى .. ثم ينهى الفصل بالقول ان المدينة تبدو بقدر ثلث مكة فى حجمها، لكن ضواحيها تمتد إلى مسافة ميل أو ميلين من كل جهة خارج السور إلا من جهة الجبل. و يأخذ بوصف السور و كيفية بنائه،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۳

و بمنزلة المدينة بين المدن المقدسة، و بأن الصلاة فيها تعادل ألف صلاة تصلى فى أى مكان آخر.

سكة حديد الحجاز

و يرد ذكر المدينة بعد هذا مقرونا بمشروع سكة حديد الحجاز التى تربط المدينة بدمشق، و قد بدأت الدولة العثمانية فى أيام السلطان عبد الحميد بالتفكير فيه و اخراجه إلى حيز التنفيذ فى بداية القرن العشرين، تنفيذا لأغراضها السياسية المقنّعة بالأغراض الدينية. و هو مشروع على جانب كبير من الأهمية، و قد قدر له ان يؤثر تأثيرا كبيرا فى تاريخ الحجاز و سائر البلاد العربية لأنه ربط البلاد المقدسة بالعالم الخارجى و أدخل اليها أساليب الحياة الحديثة و أفكارها.

و خير من يصف سكة حديد الحجاز و منشأها جورج أنطونيوس فى كتابه «يقظة العرب»، و جورج هذا رجل فلسطينى عربى من أم انكليزية اتصل كثيرا بالانكليز و حافظ على شعوره العربى الأصيل فألف مؤلفه الثمين هذا باللغة الانكليزية عن نهضة العرب الحديثة و يقظتهم فى هذا العصر.

و يبدأ قوله فى هذا الشان بالحديث عن سياسة السلطان عبد الحميد التى كانت تستهدف اجتذاب العالم الأسلامى اليه و تثبيت مركزه بين الدول بواسطته. و قد اعتمد فى ذلك على رجال عديدين كان من أبرزهم عزت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۴

باشا العابد الرجل العربى السورى .. فيقول جورج أنطونيوس أن عزت باشا العابد ، و هو عربى سورى، كان من المغامرين الذين استطاعوا أن ينالوا حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد و الدس، و قد قضى ثلاث عشرة سنة (حتى سقوطه عام ۱۹۰۸) فى خدمة السلطان بصفة سكرتير ثان. فاستطاع خلالها ان يصبح أقوى موظف فى الامبراطورية، و لا يزه فى الثروة و الخبث و النفوذ الا سيّده. و مع ان استانبول كانت فى العهد الحميدى تعج بالدهاة فقد كان دهاء عزت باشا خارقا و طاغيا، إذ جمع إلى المكر نشاطا و حركة و لكنه لم يخل فى أعماقه من البلادة التى كثيرا ما تختفى وراء فكر جاد. أما ميزته البارزة فكانت فى معرفة الصفات البشرية الدنيئة الكامنة فى خلق الناس معرفة صحيحة لا تخطىء. و هذا هو سر نجاحه العجيب لأنه بهذه المقدرة استطاع أن يفهم جبن سيّده و غروره مع ادراك حقيقى للحد الفاصل بين هاتين الصفتين، و احساس دقيق بمزاج السيد فى ظروفه المختلفة. و لكنه فى سره كان يحتقر عبد الحميد احتقارا تاما فسهل عليه التلاعب بعواطفه. و يعود اهتمامنا بسيرة عزت باشا هنا إلى سببين، أحدهما عام، و الآخر خاص: أما السبب العام فهو أنه أصبح المحور الذى تدور حوله سياسة عبد الحميد العربية، و السبب الخاص هو إنشاء سكة حديد الحجاز.

و لدينا ما يشير إلى أن فكرة مد خط سكة حديد إلى الحجاز كانت من بنات أفكار عزت باشا، و ان كان يصعب الجزم بذلك. و مهما يكن من الأمر فقد كان هو الأداة الفعالة الرئيسية فى تحقيق المشروع الذى يقضى بمد سكة الحديد من دمشق إلى المدينة فمكة، و كان الغرض الظاهر منها تسهيل الحج بينما كان السبب الحقيقى يتعلق بعوامل سياسية و عسكرية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۵

فقد عيّن السلطان لجنة برآسة عزت باشا و وجه نداء إلى العالم الأسلامى يوضح فيه الدوافع الدينية الحميدة التى استوحى منها الخليفة

فكرة مد الخط، و يطلب من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته. و قد لاقى النداء قبولا حسنا، ثم فرضت فى الوقت نفسه ضريبة جديدة فى جميع أنحاء المملكة نجبى بلصق طابع خاص، و طولب الموظفون العاملون فى الحجاز بالتبرع بنسبة معينة من رواتبهم. و بدأ تشييد الخط فى ربيع ۱۹۰۰ على يد مهندسين ألمان، و فى خريف عام ۱۹۰۸ وصل الخط إلى المدينة، و هى مسافة تناهز التسعماية ميل. و قد غطت تبرعات العالم الأسلامى ما ينوف على ثلث النفقات البالغ مجموعها ثلاثة ملايين من الجنيهات.

و قد كان هذا المشروع من نواح عديدة لعبة سياسية رائعة، لأنه خلق فى جميع أنحاء العالم الأسلامى حماسا كبيرا و عمل أكثر من مشاريع عبد الحميد الأخرى على إعلاء شأن الخلافة، كما أنه من الناحية العسكرية أوجد واسطة للنقل البرى تحمل جنده إلى الجزيرة و منها، و كانت الحاجة إلى هذه الواسطة ملحة فاستطاع تأمينها من دون أن يثقل خزائنه بعبء كبير. و كان محطة سكة حديد الحجاز و مسجد العنبرية فى المدينة سنة ۱۹۳۸

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۶

حتى ذلك الوقت مضطرا إلى استعمال طريق البحر المارة بقناة السويس و تحمل بطئها و كثرة تكاليفها. أما الآن فقد غدا صاحب خط حديدى يمتد كله فى ضمن مملكته، فراح يتطلع إلى اليوم الذى يستطيع فيه تمديد الخط جنوبا إلى مكة و ربما إلى أبعد من مكة ليثبت قدمه فى بلاد اليمن المضطربة.

و مع ذلك، كان من أكبر النتائج لمدّ سكة حديد الحجاز، و لعلها نتيجة لم تخطر على بال عبد الحميد فى البداية، أنها بتسهيلها أسباب السفر و الانتقال بين مكان و آخر ساعدت على سريان الأفكار فى الأجزاء الغربية من بلاد العرب. إذ كانت القوافل السريعة قبل تسيير الخط الحجازى تقطع المسافة ما بين دمشق و المدينة فى أربعين يوما على الأقل، بينما كان السفر بالبحر من بلاد الشام إلى الحجاز يستغرق عشرة أيام أو خمسة عشر يوما، و يتوقف على وجود المراكب المسافرة أو عدمه. لأن سير الخط لم يكن منتظما، فقرّبت سكة الحديد المسافة بين المدينتين حتى جعلتها لا تتجاوز خمسة أيام، فكان لهذا الاختصار فى الطريق كما سيتضح لنا فيما بعد أثر كبير جدا فى توجيه الحركة العربية و مصيرها عندما أتتها الفرصة للانفجار فى ثورة علنية.

و قد كتب السفير البريطانى لدى الباب العالى فى تقريره السنوى لعام ۱۹۰۷ ما يأتى: .. يمكننا أن نقرر بأنه بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان فى الموقف السياسى العام: الأول هو خطة السلطان الماهرة التى استطاع أن يظهر بها أمام ثلاث مائة مليون من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الأسلامى، و أن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى و غيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التى ستمهد الطريق فى القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۷

الحج إلى الأماكن المقدسة فى مكة و المدينة. و بهذا تفتح له أبواب الحياة الأخرى و ما تحويه من جنة و نعيم. و قد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى بشكل لم يسبق له مثيل، فباتوا بنتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادى الذى قد لا نجد فى جميع أدوار التاريخ ما يحاكى شدته. و هكذا أصبحت ارادة السلطان قانونا فى البلاد، فإذا ما كتب لمسلم بائس أن يئن تحت وطأة الاضطهاد و الاستعباد القاسى من جانب الحكومة، أعلن شكواه من الموظفين من دون ان ينسب للخليفة عمل أى شيء ..

و افتتح هذا الخط الحيوى الذى وصل إلى المدينة افتتاحا رسميا فى أيلول سنة ۱۹۰۸. و قد رافق هذا الحدث تعيين الشريف (الملك بعد ذلك) حسين بن على لأمارة مكة و شرافتها الكبرى، و كان فى الثالثة و الخمسين من عمره يومذاك، من قبل الاتحاديين برغم معارضة عبد الحميد فى ذلك.

المدينة فى الثورة العربية (۹ شعبان)

و يرد ذكر المدينة كثيرا فى المراجع الغربية التى تبحث فى الثورة العربية التى انطلقت من مكة سنة ۱۹۱۶، أو ثورة ۹ شعبان التى أطلق أول رصاصة فيها ضد الأتراك فى الحجاز الحسين بن على شريف مكة. و يعود السبب فى ذلك بطبيعة الحال إلى أن المدينة كانت نهاية سكة حديد الحجاز، و مركز تجمع القوات التركية بعد مكة، بحيث أصبحت هدفا للثورة مدة طويلة من الزمن و مداد خططها حتى انتهت بوصول الثوار إلى دمشق الشام فى النهاية.

و يعلم الجميع أن هذه الثورة اشتهر فيها عدد غير يسير من ضباط الانكليز، الذين ساعدوا الثورة، و رجال استخباراتهم من أمثال ماكماهون و لورنس، و ستورز، و ويلسن، و يونغ، و هوغارث، و غيرهم كثيرون. لكن الذى اشتهر منهم على الأخص تى أى لورنس الذى صار يعرف باسم لورنس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۸

العرب أو لورنس بلاد العرب . و على هذا فقد كتب هؤلاء عن هذه الثورة، و ذكر الثورة جميع من كتب عن لورنس من الكتاب و الصحفيين، و من السياسيين و المؤرخين. و كانت هذه الكتابات فى معظم اللغات العربية، و فى الانكليزية و الفرنسية على الأخص.

لكن أبرز كتاب انكليزى كتب و اشتهر فى هذا الشأن هو كتاب «أعمدة الحكمة السبعة » الذى كتبه لورنس نفسه و ضمنه جميع ما عنّ له عن الثورة العربية و وقع له فيها. و هو كتاب ضخم يقع فى مائة و اثنين و عشرين فصلا، لكنه كان قد لخصه و نشره بمقياس واسع فى كتاب يسمى «ثورة فى الصحراء »، قبل ان يطبعه فى الأصل.

و يبدأ لورنس فى الفصل الخامس من أعمدة الحكمة السبعة (الص ۴۹) بتحليل مقدمات الثورة العربية التى بدأ الحسين بن على يعد العدة لها منذ سنة ۱۹۱۵ على ما يبدو. فهو يقول: «ان نشوب الحرب قد أحدث اضطرابا فى حالة الحجاز. فقد انقطع توارد الحجاج عليه فانقطعت بذلك واردات المدينتين المقدستين، و توقفت الحركة التجارية فيهما. و كان هناك خوف له ما يبرره، من أن المراكب الهندية التى تحمل الأطعمة إلى الحجاج سينقطع مجيئها اليه نظرا لأن الشريف قد أصبح من رعايا العدو. و لما كان القطر كله لا ينتج الأطعمة التى يأكلها فى العادة فسيعتمد اعتمادا مخطرا على ما يضمره الأتراك تجاهه، و هؤلاء يمكن ان يجيعوه بتوقيف سير القطارات اليه. و بذلك لم يجد الحسين نفسه مثل ما وجدها فى تلك الأيام مطلقا، فقد موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۲۹۹ أصبح تحت رحمة الأتراك بالكلية. لكنهم فى هذه اللحظة البغيضة كانوا يحتاجون احتياجا خاصا لوقوفه إلى جانبهم فى «الجهاد» ضد العالم المسيحى.

«و لأجل ان يكون هذا الجهاد مؤثرا فى كل مكان يجب ان يقترن بمصادقة مكة المكرمة عليه، و إذا ما تم ذلك فقد يزج الشرق كله فى بحور من الدم. و كان الحسين شريفا حاذقا، و عنيدا شديد التدين. فقد كان يعتقد أن الحزب المقدسة لا يمكن أن تتفق شرعيا مع الحرب الاعتدائية، و شيئا سخيفا إذا كانت تشن مع حليف نصرانى هو المانية. و لذلك رفض طلب الأتراك، و قدم فى الوقت نفسه استغاثة مبجلة إلى الحلفاء طالبا فيها عدم تجويع بلاده بسبب الحرب التى لم يكن لقومه ناقة فيها و لا جمل. فرد الأتراك على ذلك فى الحال بفرض حصار جزئى على الحجاز بالسيطرة على لورنس فى زى البدو و هو بجانب جمله فى الصحراء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۰

سكة حديد الحجاج. لكن البريطانيين تركوا سواحله مفتوحة لسفن الطعام و نظّم تواردها تنظيما خاصا.

«على أن الحسين لم يتسلم طلب الأتراك وحده. فقد بعث اليه فى كانون الثانى ۱۹۱۵ ياسين (الهاشمى) رئيس الضباط العراقيين، و على رضا (الركابى) رئيس الضباط السوريين، و عبد الغنى العريسى عن المدنيين السوريين، خطة مرسومة للقيام بتمرد عسكرى كبير فى سورية ضد الأتراك.

و قد خاطبه أهل العراق و سورية المضطهدون و لجان «العهد» و «الفتاة» فى هذا الطلب ب (أبى العرب)، و زعيم المسلمين، و أميرهم الأكبر، و ناشدوه بأن ينقذهم من خطط طلعت و جمال الشريرة.

«و قد اضطر الحسين بصفته سياسيا، و أميرا، و مسلما، و عصريا مجددا، و وطنيا مخلصا، إلى أن يستمع لاستغاثتهم به. فأوفد فيصلا، ابنه الثالث، إلى دمشق ليبحث مع الضباط العرب مشاريعهم فى هذا الأمر بالنيابة عنه، و يقدم تقريرا بما يتوصل اليه. ثم انتدب ابنه الأكبر عليا إلى المدينة ليجند الجنود بهدوء من قرويى الحجاز و ابناء عشائره، متذرعا بأية حجة يراها مناسبة، و ليكون على أهبة الاستعداد للعمل إذا ما تطلبت مهمة فيصل ذلك. أما عبد اللّه ابنه الثانى اللبق، فقد كلف بجس نبض البريطانيين عن طريق المخابرة، و معرفة الموقف الذى سيتخذونه فيما لو ثار العرب ضد الأتراك.

«و فى كانون الأول ۱۹۱۵ أخبر فيصل والده بأن الأحوال المحلية كانت مؤاتية للعمل، لكن شؤون الحرب العامة لم تكن تسير بموجب ما كانوا يريدون و يأملون. فقد كانت فى دمشق ثلاث فرق من الجنود العرب المستعدين للثورة، و كانت فى حلب فرقتان أخريان تفشت بين جنودهما فكرة القومية العربية بحيث كان من المؤكد أن ينضموا إلى الثورة فيما لو بدأ بها الآخرون. و كانت هناك فرقة تركية واحدة فقط فى هذا الجانب من طوروس، و لذلك كان من الأكيد أن يستولى الثوار على سورية فى أول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۱

جهد يبذلونه. لكن الرأى العام من جهة أخرى كان أقل استعدادا للأقدام على اتخاذ تدابير متطرفة، و كانت طبقة العسكريين واثقة من أن المانية سوف تربح الحرب فى القريب العاجل.

«ثم أعقب ذلك حصول تأخيرات فى الخطة، لأن الخلفاء هاجموا الدردنيل بدلا من مهاجمة الاسكندرون. فذهب فيصل إلى استانبول للحصول على أوثق المعلومات عن الأحوال فى جبهة غاليبولى، لأن اندحار تركية فيها سيكون بمثابة اشارة للعرب بالحركة. و حينما تبين لفيصل أن خسائر الأتراك كانت جسيمة هناك عاد إلى سورية و فى نيته أن يبدأ بالعمل، لكنه وجد أن الأحوال المحلية قد أصبحت غير ملائمة.

فقد ألفى مؤازرية فيها بين موقوف أو مختف، و أن أصدقاءهم كانوا يعلقون على المشانق بالعشرات بتهم سياسية مختلفة. كما وجد أن الفرق العربية التى كانت مهيأة للثورة قد سيقت إلى جبهات بعيدة، أو جزئت إلى أجزاء وزعت كلها على الوحدات التركية فى كل مكان. يضاف إلى باشا (السفاح) الفريق فى الجيش التركى يحيط به ضباط المان سنة ۱۹۱۷ مؤشرا اليه بالعلامة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۲

ذلك أنه وجد ان الفلاحين العرب قد جندوا للخدمة العسكرية بحيث وقعت سورية مستلقية تحت رحمة جمال باشا السفاح.

«و على هذا الأساس كتب فيصل إلى أبيه يشير عليه بتأجيل الأمر إلى فرصة أخرى أى إلى الحين الذى تكون فيه انكلترة مستعدة للمساعدة و تركية قد دخلت فى مأزق حرج. لكن المؤسف أن انكلترة كانت فى وضع مزر، لأن قواتها أخذت تتقهقر مضعضعة فى الدردنيل. و كانت نكبة الكوت المتطاولة فى آخر دور من أدوارها، كما كانت ثورة السنوسى التى نشبت فى وقت دخول بلغارية إلى الحرب تهدد أجنحتها (أى أجنحة انكلترة).

و لذلك تأزم موقف فيصل إلى أقصى الحدود، لأنه أصبح تحت رحمة أعضاء الجمعية السرية التى كان يرأسها قبل الحرب. فقد كان مضطرا إلى العيش فى ضيافة جمال باشا بدمشق، فاستهدف بذلك زيادة الأطلاع على الوضع العسكرى و تظاهر بأن أخاه عليا أخذ يجند الجنود فى المدينة بحجة قيادة وحداتهم التى سيقودها مع أخيه فى الزحف على قناة السويس مع الجيش التركى. و لما كان فيصل عثمانيا مخلصا و ضابطا فى خدمة الجيش التركى كان لا بد من ان يعيش فى المقر العام، و يتحمل بصبر و أناة ما كان يصبه جمال المستأسد فى كؤوسه من ضروب التحقير و الأهانة لقومه العرب.

«فقد كان جمال يدعو فيصلا و يأخذه معه إلى حيث كان يشنق أصدقاؤه السوريون. و لم يتجرأ ضحايا العدالة هؤلاء على المجاهرة بمعرفة آمال فيصل و أمانيه الحقيقية، بأكثر من عدم تجرؤه هو على الأعراب عما كان فى فكره بالكلام أو النظر، لأن الكشف عن ذلك كان سيدين أسرته و ربما بنى قومه كلهم فيؤدى بهم إلى نفس المصير. لكنه انفجر مرة واحدة فقط و قال لجمال بأن أحكام

الأعدام هذه ستكلفه جميع ما كان يحاول تحاشيه و تجنبه، فتطلب ذلك تدخل أصدقائه، من رجال تركية الموجودين فى استانبول، و تشفعهم فى إنقاذه من جريرة هذه الكلمات المنطوية على التسرع.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۳

«و قد كانت مراسلات فيصل لأبيه فى تلك الظروف مجازفة بحد ذاتها.

فقد كان يراسله بواسطة أتباع أسرته و حفدتها القدماء ممن كانوا فوق الشبهات، و كان هؤلاء يذهبون و يعودون فى قطار الحجاز و هم يحملون الرسائل فى أغماد السيوف، أو فى داخل قطع «الكيك»، أو مخاطة فى أنعل الأحذية، أو بكتابات غير منظورة على أوراق تلف بها رزم لا خطر فيها. و فى جميع هذه الرسائل كان فيصل يذكر أشياء غير سارة، و يسترحم من والده تأجيل العمل فى أى شىء كان إلى الوقت المناسب.

«على أن الحسين لم يكن يتأثر بمثبطات الأمير فيصل و لو بمقدار ذرة، لأن الاتحاديين الأتراك كانوا فى نظره شرذمة من الأتراك الملاحدة الخارجين على الدين و الأنسانية، الخونة لروحية العصر و مصالح الاسلام العليا. و مع أنه كان رجلا كبيرا تجاوز الخامسة و الستين من عمره، فقد كان عازما على إعلان الحرب عليهم برحابة صدر و اعتماده الوحيد فى ذلك على عدالة قضيته. و قد كانت ثقة الحسين باللّه عظيمة بحيث ترك حسه العسكرى بائرا غير مستغل، و ظن أن الحجاز يستطيع الوقوف ضد تركية فى الحرب على قدم المساواة. و لذلك أنفذ عبد القادر العبدو يحمل رسالة إلى فيصل يقول فيها ان كل شىء كان جاهزا ليقوم هو بتفتيشه فى المدينة قبل أن يبدأ بالزحف إلى الجبهة. فأخبر فيصل جمالا بالأمر، و طلب ترخيصه للذهاب إلى المدينة، غير أنه فوجىء بما أفزعه حينما رد عليه جمال يقول ان القائد العام، أنور باشا، كان فى طريقه إلى هناك أيضا فانهم سيزورون المدينة سوية فيفتشون الجيش فيها. و كان فيصل قد رتب أن يرفع علم والده القرمزى حالما يصل إلى المدينة، و يباغت الأتراك على غفلة منهم، بينما اضطر الآن إلى أن يرافق ضيفين ثقيلين يحتم واجب الضيافة العربية المحافظة عليهما و عدم مسهما بسوء، و قد يؤدى ذلك إلى تأخير ما كان ينوى الأقدام عليه بحيث تتعرض أسرار الثورة كلها إلى الخطر بسببه.

«على أن الأزمة انتهت بسلام بعد ذلك، برغم ان سخرية الاستعراض

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۴

كانت شيئا مزعجا. فقد وقف أنور و جمال و فيصل يستعرضون القطعات و هى تسير و تنعطف ثم تدور فى السهل المغبر خارج باب المدينة، و يغير بعضها على بعض صعدا و نزلا كما يفعلون فى حربهم على الأبل، أو يهاجمون بخيولهم فى لعبة الرمح و الجريد طبقا لتقاليدهم العربية الخالدة.

و أخيرا توجه أنور إلى فيصل يسأله بقوله: هل تطوع هؤلاء كلهم للجهاد؟

فأجابه فيصل بالأيجاب. ثم سأله من جديد: و هل عزم هؤلاء على القتال حتى الموت ضد أعداء المسلمين؟ فرد فيصل بالأيجاب مرة ثانية. و قد جاء الرؤساء بعد ذلك ليسلموا على القائد العام بعد ان يتم تقديمهم له، فتنحى الشريف على بن حسين، من مذحج، بفيصل جانبا و همس فى أذنه يقول: هل يأذن سيدى بقتلهم الآن؟ لكن فيصلا رد عليه يقول: كلا انهم ضيوفنا.

فخرى پاشا قائد حامية المدينة

«و احتج الرؤساء مرة أخرى على هذا الرفض، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يمكنهم ان ينهوا الحرب بضربتين حاسمتين. و قد كانوا عازمين على اجبار فيصل على ما يريدون، و لذلك اضطر أن يذهب اليهم ثانية على مرأى من الواقفين و يتوسل لأنقاذ حياة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۵

الديكتاتورين التركيين، اللذين كانا قد علقا خيرة أصدقائه و أخلصهم على أعواد المشانق. و اضطر فى الأخير الى ان ينتحل الأعذار المناسبة و يعود بالضيفين إلى داخل المدينة، و يملأ قاعة الاستقبال فيها بعبيده و رجاله، ثم يرافقهما فى العودة إلى دمشق لينقذهما

من الموت فى الطريق اليها. و قد فسّر هذه المجاملات المنهكة بأن شهامة العرب تقضى بان يكرس كل شىء الى ضيوفه. و لما كان أنور و جمال على جانب كبير من الشك و الريبة مما شاهداه، فقد فرضا حصارا شديدا على الحجاز، و أمرا بسوق امدادات قوية آليه. و قد أراد جمال ان يحتفظ بفيصل عنده فى دمشق، لكن البرقيات صارت تصل تترى من المدينة تطلب حضوره العاجل للحيلولة دون وقوع الفوضى و الاضطراب، فسمح له جمال بالعودة إلى المدينة و هو مكره بشرط أن يبقى رجال حاشيته رهائن عنده.

«و قد وجد فيصل أن المدينة أصبحت ملأى بالجنود الأتراك، و بضباط مقر الفيلق الثانى عشر و على رأسهم فخرى پاشا، الجزار القديم الشجاع الذى طهّر (زيتون) و (أورفه) تطهيرا دمويا من الأرمن. و من الواضح أن الأتراك كانوا قد أشعروا بما كان يدبر لهم فى الخلفاء، فأصبح أمل فيصل بتدبير هجوم مفاجىء، و الحصول على نجاح من دون ان ترمى أية رمية تقريبا، شيئا غير ممكن. على ان الأمر قد تأخر بحيث لم تعد معالجته بالفطنة وحدها شيئا ممكنا. فبعد أربعة أيام فرت حاشية فيصل من دمشق على ظهور الخيل و التجأت إلى نورى الشعلان شيخ الرولة فى البادية، و شمّر فيصل عن ساعده للعمل فى اليوم نفسه. و حينما رفع رايته العربية انتقلت الدولة الأسلامية الكبرى، التى اشتغل من أجلها عبد الحميد و ذبح الناس و مات، و أمّل الألمان فى تعاون الأسلام على تنفيذ خطط القيصر العالمية، إلى عالم الأحلام. فقد أنهى الشريف بمجرد اعلانه الثورة هذين الفصلين الوهميين من فصول التاريخ». انتهى

و كانت خطط الثورة فى بادىء أمرها تتركز حول مهاجمة المدينة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۶

و تطهيرها من الأتراك، لأنها أصبحت مقرهم الوحيد فى الحجاز و مركز تجمعهم و قد أعد الشريف و أنجاله جميع ما كان عندهم من امكانيات لذلك، لكنهم لم يحرزوا شيئا من النجاح فى هذا الشأن. و يقول لورنس فى هذه المناسبة (الص ۹۳، الفصل ۱۳):

«و قد كان أول هجوم شنه الثوار على المدينة عملا من الأعمال اليائسة، لأن العرب كانوا مسلحين تسليحا سقيما و تنقصهم الذخيرة و العتاد بينما لورنس متنكر بملابس غجرية من غجريات سوريا و كثيرا ما كان يتسلل إلى المناطق التركية بهذا الزى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۷

كانت قوة الأتراك فيها عظيمة لأن مفرزة فخرى باشا كانت قد وصلت حديثا .. و فى أوج الأزمة تخاذل بنو على فأخرج العرب إلى الخارج فيما وراء السور، و عند ذاك أصلاهم الأتراك بوابل من نيران مدفعيتهم الحامية فأثّر هذا تأثيرا مرعبا فيهم. فقد التجأ العقيل و عتيبة إلى مكان آمن و رفضوا التحرك من جديد، و عبثا حاول فيصل و على المذحجى الركوب أمامهم من دون خوف ليبرهنا لهم أن القذائف المتفجرة لم تكن شيئا مميتا كما قد يفهم من أصواتها المدوية. ثم ازداد الذعر و ضعفت العزائم.

«يضاف إلى ذلك ان فريقا من بنى على اتصلوا بالقيادة التركية، و عرضوا عليها الاستسلام إذا وعدوا بسلامة قراهم. فاحتال فخرى عليهم، و فى خلال ما أعقب ذلك من توقف فى المناوشات طوق ضاحية العوالى بجنوده. ثم أمرهم فجأة بمهاجمتها و الاستيلاء عليها بالقوة، و بقتل كل حى يوجد فيها. فذبح مئات من السكان و اغتصبوا، و تلا ذلك إضرام النار فى البيوت فاحترق فيها الأموات و الأحياء سوية».

و يقول لورنس ان مثل هذه المعاملة القاسية، و هذا الفتك، قد هز أنحاء الجزيرة العربية كلها لأنه جاء مخالفا لجميع القواعد و الأعراف .. و لم يعد من الممكن للعرب أن يخضعوا ثانية للأتراك الذين كان ما اقترفوه فى العوالى قد ولدّ روحية الثأر عند الجميع. و لذلك: تراجعوا من السهل المنبسط القريب من المدينة إلى الجبال القائمة فى عبر الطريق السلطانى حوالى عاد و الراحة، و بير عباس. و هناك أخلدوا قليلا إلى الراحة حتى يتمكن على و فيصل من تدبير السلاح و المال و الأطعمة لشن حملة جديدة ..

و بعد وصول الامدادات و المساعدات التى قدمتها بريطانية للثوار صاروا يحاصرون المدينة بالتدريج، و كان الأمير عبد اللّه مكلفا بشىء غير يسير من هذه العملية. و مما يقوله لورنس فى هذا الشأن : «و أخيرا فقد غادر الشريف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۸

عبد اللّه مكة. و بعد اسبوعين تركز فى المكان الذى كان يقصد ان يخيم فيه أى فى شمال شرقى المدينة، حيث يكون قادرا على قطع طريق التجهيزات التى ترد اليها من القصيم و الكويت. فقد كان تحت تصرفه أربعة آلاف رجل، لكنه لم تكن عنده معهم سوى ثلاثة مدافع رشاشة و عشرة مدافع جبلية غير جيدة كان الشريف قد استولى عليها عند استسلام الأتراك فى الطائف و مكة، و لم يكن على درجة كافية من القوة لتنفيذ خطته الأخرى بالهجوم المشترك على المدينة مع على و فيصل. فكان بوسعه فقط ان يحاصرها، و من أجل هذا أقام فى الحناكية و هى مكان صحراوى على بعد ثمانية أميال من شمال شرقى المدينة».

و يذكر لورنس فى هذه المناسبة قصة أشرف المغامر التركى الذى قبض عليه رجال الشريف عبد اللّه بالقرب من المدينة، و هو مكلف منها بالتوجه إلى اليمن فى مهمة حربية خاصة. و كان أشرف هذا مغامرا تركيا من أهالى ازمير فى الأصل، و قد ثار مرة على الدولة فقبض عليه فى أيام السلطان عبد الحميد و نفى إلى المدينة المنورة لمدة خمس سنوات. و ظل محجوزا فيها حتى استطاع ان يفر من سجنه و يلتجىء إلى شهد أمير العوالى المناوىء للأتراك يومذاك فآواه. ثم تمكن فى يوم من الأيام أن يأتى الى المدينة فجأة على فرس عربية أصيلة، و يدخل إلى ثكنتها فيخطف منها ضابطا شابا كان يدرب جنوده فيها، و هو ابن خصمه حاكم المدينة، و يعتصم به فى منطقة جبل أحد. و لأجل ان يستعيد حاكم المدينة ابنه المخطوف، و ينقذه من براثن هذا الوحش الضارى، اضطر إلى تحريره من الحجز و وعده بعدم التعرض له ثم دفع له خمس مائة باون. و عند ذاك اشترى له عددا من الأبل و بعض الخيام، و تزوج زوجة من بنات المدينة، ثم أخذ يتجول بين العشائر حتى نشبت ثورة الشبان الأتراك فى استانبول. فتوجه اليها، و أصبح هناك

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۰۹

من رجال أنور باشا. و حينما أعلنت الحرب العامة الأولى أوفد إلى المدينة، و جهز بالأموال و الرسائل اللازمة من السلطان ليتصل بأمراء العرب و الحامية التركية التى اصبحت معزولة فى اليمن. و قد صادف خلال المرحلة الأولى من رحلته إلى اليمن أن مر بالمنطقة التى كان يخيم فيها الشريف عبد اللّه فى وادى العيص بالقرب من خيبر، فألقى القبض عليه بعد معركة حامية وقع جريحا فيها، و جاء به الشريف فوزان الحارث إلى عبد اللّه فوجدت معه أشياء كثيرة منها عملة بمبلغ عشرين ألف باون، و عدد من الخلع الثمينة، و الهدايا النفسية، و بعض المستندات و الأوراق المهمة، مع عدة أحمال من البنادق و المسدسات ..

و هنا يصف لورنس الجبهة العربية يومذاك بكلمات موجزة تشير إلى ان الأتراك صاروا يتخذون وضعا دفاعيا فى المدينة، حينما كان القائد الانكليزى مورى يضغط فى جهات سينا، و فيصل يرابط فى الوجه، و عبد اللّه يخيم بين الوجه و المدينة.

و يستفاد من تسلسل الحوادث فى فصول أعمدة الحكمة السبعة بعد ذلك أن لورنس بدأ يعتقد بضرورة إبقاء فخرى باشا، مع قواته التركية التى يبلغ عددها خمسة و عشرين ألف مقاتل، فى المدينة و ضرب طوق من الحصار حولها لئلا يستفيد منها الأتراك فى جبهات أخرى. و هذا ما كان يريده الكولونيل الفرنسى بريمون كذلك، و هو رئيس البعثة الفرنسية التى جاءت إلى الحجاز لتشارك فى مساعدة العرب مساعدة اسمية أو رمزية على الأقل.

و كانت وجهة نظر بريمون فى هذا الشأن إلهاء العرب بمحاصرة فخرى باشا فى المدينة و عدم السير إلى الشام و تكوين حكومة عربية فيها، كما تم بعد ذلك، لأن فرنسة كانت تطمع فى سورية منذ ذلك الوقت بطبيعة الحال، و كانت سورية من حصتها فى المقاسمة السرية التى أجريت بين انكلترة و فرنسة بموجب اتفاقية سايكس- بيكو.

لكن الأتراك على ما يبدو قد أدركوا وضعهم الميئوس منه فى المدينة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۰

و فائدة خصومهم منه، فأوعزوا إلى قائدهم فى المدينة بأخلائها. و يقول لورنس فى هذا الشأن: «و قد جاءنى ما كروري بنسخة من تعليمات برقية صادرة من جمال باشا إلى فخرى باشا فى المدينة، و كانت هذه التعليمات قد صدرت فى بادىء الأمر من أنور باشا و هيأة أركان الحرب الألمانية فى استانبول، و هى تقضى بأخلاء المدينة و تركها فى الحال، و إخراج الجيش منها بمسيرات برية عدة

تسير إلى هدية أولا، ثم إلى العلا، و إلى تبوك، و أخيرا إلى معان حيث تحفر الخنادق و يتخذ موضع قوى فيها متصل بخطوط سكة الحديد. و كانت هذه الحركة تعد شيئا مناسبا للعرب، لكن جيشنا فى مصر اضطرب للخبر و أزعجته فكرة نزول خمسة و عشرين ألف جندى أناضولى مع مدفعيتهم غير الاعتيادية على جبهة بئر السبع بصورة مفاجئة.

و لذلك أخبرنى كلايتون بكتابه بان أعير هذه التطورات أهمية فائقة، و أن أبذل كل جهد للاستيلاء على المدينة، أو القضاء على الحامية عندما تخرج منها. و كان نيو كومب منشغلا بتخريب خطوط السكة تخريبا شديدا، و لذلك وقعت المهمة على عاتقى. و قد شعرت بأنى لا استطيع عمل شىء كثير فى هذا الشأن، لأن البرقية جاءت متأخرة و قد أزف وقت إخلاء المدينة المشار اليه ..»

و حينما نشط لورنس للعمل على تنفيذ الأوامر التى تسلمها ذهب إلى الشريف عبد اللّه فى وادى العيص للوقوف على أسباب عدم قيامه بأية حركة خلال الشهرين الأخيرين، و لأقناعه بمهاجمتهم حالما يخرجون من المدينة، لكن الأتراك لم يستطيعوا تنفيذ الأوامر التى صدرت لهم و لم يستطع الثوار العرب الاستيلاء على المدينة و القضاء على الحامية التركية فيها لأسباب كثيرة لا مجال لشرحها هنا. و لذلك تأكدت فكرة محاصرتهم و الابقاء على قوتهم مجمدة فى داخل المدينة المقدسة. و هاك ما يورده لورنس (الص ۲۲۵ و

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۱

۳۸۰) فى هذا الشأن: «.. فيجب علينا ان لا نأخذ المدينة، فقد كان الأتراك غير مضرين لنا فيها، لكننا فى مصر سوف نضطر إلى اطعامهم و حراستهم لو وقعوا أسرى فى أيدينا. و كان الشىء المثالى لنا ان نبقى سكة الحديد عاملة بالكاد .. و على هذا الأساس ظل الثوار العرب مع لورنس فى جبهة المدينة و سكة الحديد الموصلة لها يدمرون القطارات و ينسفون الكثيرين من جسورها و أجزائها على طول الخط، إلى ان وصلوا الى خطوطها المارة فى منطقة الأردن حين استولوا بالتمام على ثمانين ميلا منها تقع ما بين معان و المدورة، و بذلك انتهى أمر الدفاع الفعال عن المدينة بهذه العملية على ما يقول لورنس. و بقيت القوة التركية محاصرة فى المدينة إلى ما بعد اندحار تركية، و إلى ان وضعت الحرب أوزارها. لكن الغريب فى الأمر ان المنتمين إلى المدرسة القديمة من القادة الأتراك، على ما يقول لورنس، كانوا (الص ۴۶۰) يعيرون المدينة أهمية كبرى و يعتبرونها آخر أثر من آثار سيطرتهم على البلاد المقدسة، و حجة حية للتمسك بالخلافة. و لذلك دفعت بهم هذه العاطفة إلى اتخاذ قرار مخالف لمقتضيات الحالة العسكرية فيها.

أما مصير فخرى باشا، و القوة التى بقيت محاصرة معه فى المدينة، فيقول الصحفى الأمريكى ليدل هارت فى كتابه المشهور عن لورنس (الص ۳۷۵) أن حامية المدينة هذه لم تستسلم إلا فى كانون الثانى ۱۹۱۹.

و لم يكن حتى الاستسلام من رأى فخرى باشا نفسه، لكن ضباطه الذين أخذ منهم الجوع مأخذه اغتنموا فرصة مرضه فاستسلموا للعرب و سلموا قائدهم المريض اليهم كذلك، و كانت روحية هذا القائد العسكرية قد أدت به الى ان يتمسك بالمدينة تمسكا عنيدا أسهم به فى خسارة بلاده إلى حد كبير. و نذكر بالمناسبة أن المستر ليدل هارت يأتى فى كتابه هذا على جميع موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۲

ما نقلناه عن لورنس و يؤيده، و يضيف إلى ذلك قوله ان خط سكة الحجار ما بين معان و المدينة يبلغ خمس مائة ميل فى طوله، و ان هذه المسافة تقسم إلى ثلاثة قطاعات متساوية تقريبا، و هى قطاع معان، و قطاع تبوك مدائن صالح، و قطاع مدائن صالح المدينة.

الشريف على حيدر فى المدينة

كان الشريف على حيدر، حفيد الأمير عبد المطلب، من شرفاء مكة المنتمين إلى ذوى زيد، و قد جىء به إلى استانبول فى أيام السلطان عبد الحميد و هو حدث صغير فى السابعة من عمره ليكون رهينة عند الدولة العثمانية عن سلوك جده الحسن تجاهها. و قد نشأ نشأة ارستقراطية فى العاصمة التركية و ترعرع فيها، و تعين فى شبابه عضوا فى مجلس المبعوثان ثم تسنم عدة وظائف مرموقة فى

الدولة. فأصبح وزيرا للأوقاف و نائبا للرئيس فى المجلس المذكور كذلك. و كان خلال إقامته هناك قد تزوج بالمس يزابيل دن Isabel Dunn

ابنة الكولونيل دن خبير الأسلحة الانكليزى الذى ظلت تستعين به الحكومة التركية عدة سنوات، بعد أن أسلمت على يده و صارت تسمى فاطمة. فأنجب عدة أولاد منها، و منهم الشريف محيى الدين و الشريف محمد أمين، و الشريفة مصباح. و قد تثقف هؤلاء ثقافة عالية فيما بعد، و استطاعت الشريفة مصباح ان تكتب كتابا بالانكليزية تسرد فيه نشوء أسرتها فى استانبول و قصة والدها و أحقيته بشرافة مكة باعتباره من ذوى زيد، و تتحامل فيه على الملك حسين باعتباره من ذوى عون الرفيق و ثورته على الأتراك. و من كتابها هذا استقينا هذه المعلومات.

و حينما ثار الحسين بن على فى مكة على الأتراك فى ۱۹۱۶، رد عليه الأتراك بأعلان عزله عن الشرافة الكبرى فى مكة المكرمة و تنصيب الشريف موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۳

على حيدر هذا فى مكانه. و اتخذت التدابير اللازمة لتسفيره إلى المدينة المنورة و تسلم منصبه فيها، على أن يعمل بالاشتراك مع القوات التركية الموجودة فيها على استرداد مكة و سائر أجزاء الحجاز بعد القضاء على الثورة العربية فيه. فترك استانبول فى يوم ۱۹ حزيران ۱۹۱۶ متوجها إلى الشام، و من هناك نوجه إلى المدينة بالقطار فى أول آب ۱۹۱۶.

و تقول الشريفة مصباح فى الفصل الرابع عشر من كتابها (الص ۹) عن مرور أبيها الشام أن جمال باشا القائد العام فيها قد ساءه تقاطر العرب و تواردهم للسلام على الشريف حيدر. و كان من بين الذين فعلوا ذلك نورى الشعلان شيخ مشايخ الدولة الذى أهدى له الشريف حيدر ساعة ذهب، و كان يتقاضى يومذاك مخصصات محترمة من الحكومة العثمانية لقاء ولائه لها. و تقول كذلك:

.. و مع أن القائد العام قد بذل جهدا فى إخفاء شعوره الشخصى تجاه الشريف، فقد كان من الواضح عند أول التقاء الشريف الأكبر به انه كان يكرهه كراهية شديدة، حتى انه لا- يثق بوجوده فى الشام. و لا- شك بأن شكوكه بأن ينضم إلى الثورة العربية فى يوم من الأيام، أو يقلل من منزلته هو فى البلاد، لم يكن له أى أساس من الصحة مطلقا. لكنه لما كان يعد العدة يومذاك ليعلن نفسه ملكا على سورية فى أول فرصة تسنح له، فليس من الغريب أن يكره رجلا فى مثل منزلة الأمير و مكانته .. غير أنه مع جميع ما كان يكنه من شعور تجاهه فانه عامله بأكثر ما يكون من الحفاوة و التكريم خلال الأيام الأخيرة من وجوده فى دمشق ...

.. و قد قوبل الأمير بحماسة و ترحيب على طول الخط الممتد من الشام إلى المدينة، و حينما وصل إلى مدينة الرسول فى اليوم الأول من آب ۱۹۱۶ استقبل استقبال الملوك باطلاقات المدافع، و رحب به فخرى باشا، الحاكم العسكرى، ترحيبا كبيرا. و كان جمهور كبير من العرب المتحمسين قد احتشد فى خارج بناية المحطة المزدانة بمعالم الزينة لاستقبال أميرهم و السلام عليه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۴

الشريف على حيدر و هو خارج من باب السلام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۵

و أعقب ذلك انشغاله الشديد بالتعرف على الوضع عن كثب، فقد توافدت القبائل من كل مكان لتؤدى يمين الأخلاص و الطاعة، و تعبر عن فرحها بوصول عميد أسرة ذوى زيد صاحب الحق الشرعى فى شرافة مكة الكبرى. و تقاطرت الألوف منهم للانضواء تحت رايته و وضع أنفسهم تحت تصرفه، حتى تألف منهم جيش بخمسة عشر ألف مقاتل ليسير وراءه.

لكن مصاعبه و مشاكله أخذت تزداد يوما بعد يوم، لأنه مع كونه قد تقبل ولاءهم بفرح و سرور فقد اضطر إلى أن يوعز لهم بالتفرق بعد ذلك لأنه لم يكن قادرا على تزويدهم بأى شىء من الذخيرة و التموين. فإن المدينة كانت تخلو من كل شىء، و كانت وحدات الجيش النظامى فيها فقيرة التجهز إلى أقصى حد ممكن.

و لم تأت الاتصالات المتكررة بالحكومة بأى شىء، لأن المسؤولين كانوا يخضعون لأسيادهم الألمان فى فكرة تركيز القوات

العسكرية فى جهات أخرى ضد الأنكليز. و لذلك تحتم على الأمير ان يتجرع مرارة الخيبة فى ان تفلت من يده الفرصة الوحيدة التى سنحت له لسحق الثورة العربية، و استعادة مكة. فان قبيلة بعد أخرى أخذت ترسل رسلها لتقول ان الوقت قد حان، و أن الفرصة قد سنحت، لتخليص الحجاز من حسين المكروه و حلفائه الكفار. لكنهم كلهم كانوا يحتاجون إلى الذخيرة الحربية و الطحين، و هما الشيئان الحيويان اللذان لم يكن على حيدر يملكهما و لم يكن قادرا على استحصالهما من الحكومة التى سبق لها أن أخذت تفقد سيطرتها على الشؤون الحيوية فى البلاد. و كانت القبائل فى الوقت نفسه تعانى الجوع و الحاجة إلى كل شىء تقريبا، فاضطروا فى الأخير إلى الرضوخ واحدا بعد آخر إلى لسان الدعاية المقنعة التى كان يبثها رؤساء الثورة المدعومون بذهب الأنكليز و طحينهم.

و كانت من بين الرسائل التى تسلمها الشريف الأكبر فى هذا الوقت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۶

رسالة من ابن سعود أمير نجد يومذاك. و ندرج نصها فى الآتى:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الى سمو الشريف الأكبر أمير مكة المكرمة الشريف على حيدر المحترم

حياك اللّه و جعل النصر لك، و بعد فقد حصل لى الشرف بتسلم كتابكم الكريم. و أن كل ما يحدث فى البلاد العربية اليوم فأنا على علم تام به، و قد علمت بتعيينكم لسدة الشرافة الكبرى فى مكة، و اعتراف صاحب الجلالة الخليفة و أمير المؤمنين بكم على هذا الأساس. و أنى أعلم كذلك ان قبولكم لهذا الشرف العظيم لم يكن الدافع اليه أطماعكم الشخصية، و لا الرغبة فى الفوائد المادية، و إنما كان ذلك بدافع حماستكم و اخلاصكم للأسلام، و لتحسين أحوال المسلمين بوجه عام. و قد رفعتم رايتكم من أجل الأسلام ضد حسين و أولاده، الذين خرجوا على شرع النبى المقدس.

و لم تقم أسرة الحسين حينما أعلنت الثورة على خليفة المسلمين و حكومته الا بانزال الضرر بالمسلمين و زرع بذور التفرقة بينهم، و لكن ليس هناك قوة أعظم من قوة اللّه عز و جل. و قد كان سماح الحسين للنصارى بالدخول إلى الأراضى المقدسة من جملة التجاوزات التى تجاوز فيها على الأسلام، و لا بد من أن تؤدى هذه إلى سقوطه فى النهاية. لأن سلوكه يعتبر سلوكا مغايرا لروحية الاسلام بالكلية، و منافيا لتقاليد العرب و عقائدهم. و تدل ثورته ضد خليفته على سوء نيته. فهو يريد الاستقلال بأى ثمن، و لهذا فأنه سوف يمارس أنواع الدس بين أبناء البلاد العربية، و تحريك أحدهم ضد الآخر لخدمة مصالحه و أطماعه. و قد أخذ الذين تتفق مصالحه مع مصالحهم يؤازرونه و يؤيدونه. و لذلك فان الوضع المهم الحالى يتطلب من حكومة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۷

سموكم شيئا كثيرا من الالتفات و الرعاية. ان دسائس الحسين و أولاده قد سببت هياجا غير قليل بين قبائلى أنا أيضا، و قد أخبرت سموكم و موظفى الحكومة بهذه الأعمال غير المرغوب فيها التى تجرى فى الوقت الحاضر.

و ها أنا ذا أضع نفسى اليوم تحت تصرف الحكومة التركية و أوامرها، و انا على استعداد لعمل ما تريدونه، لكننا نطلب المزيد من الذخيرة الحربية و التجهيزات. و يعتبر وضع الشريف حسين فى الوقت الحاضر وضعا ذا أهمية قليلة، و بوسعنا ان ندحره بسهولة اذا ما توفر لنا مزيد من التجهيزات.

و نحن بانتظار ذلك مع تعليمات سموكم. فالعرب اليوم يجتمعون هنا، و هذه أحسن لحظة لأية حركة يمكن ان نقوم بها.

عبد العزيز السعود حاكم نجد

أما مصير الشريف حيدر و حركته فى المدينة فتفرد له الشريفة مصباح فصلا خاصا فى كتابها هو الفصل الخامس عشر (الص ۱۰۱). و هى تقول فيه: لقد أخذ الوضع يزداد سوءا فى المدينة. و كان الأمير قد بعث بتقارير مستعجلة عديدة، و برقيات كثيرة، يشرح فيها الأحوال السيئة و يطالب بأرسال الأغذية و الذخيرة العسكرية و الذهب. فلم تكن للعملة الورقية أية قيمة عند القبائل، التى كانت تريد

الذهب وحده الذى كان بوسع فيصل و لورنس توزيع كميات غير محدودة منه.

و حينما وصل الأمير حيدر إلى المدينة فى بداية الأمر كان الوضع ما يزال مؤاتيا فيها، فقد كانت الطائف ما تزال فى أيدى الأتراك، و كانت الفرصة سانحة للحصول على انتصار سريع فيما لو زحفوا فى الحال على مكة و ينبع، و هو ما كان يرتأيه الأمير. على ان هذا لم يكن من الممكن الاضطلاع به من دون وجود تجهيزات كافية. و بينما كان الأتراك مترددين فى هذا الشأن تغير الوضع من سيء إلى أسوأ، و لم تؤد التضرعات المرسلة الى سعيد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۸

حليم الصدر الأعظم الى أية نتيجة، لأن الجهود كلها متركزة فى جبهة فلسطين.

و فى شباط ۱۹۱۷ حصل تغيير وزارى فأعقب طلعت باشا سعيد فهيم فى رآسة الوزارة. و فى برقية بعث بها طلعت الى الأمير أعلن حصول هذا التبدل، و طلب اليه ان يبعث بأخيه الشريف جعفر الى جمال باشا فى دمشق، و من ثم الى استانبول، لمناقشة الوضع مع أنور و معه هو نفسه. و قد لمّح له فى هذه البرقية الى أن جمالا و أنور لم يكونا يدركان الخطر الذى كان يحاول شرحه لهما. لأن كلاهما كان متأثرا بحجج الألمان التى تبرر ترك المدينة و الانسحاب منها، مع تحشيد القوى كلها فى فلسطين. و لذلك بعث الشريف الأكبر بأخيه و ابنه الأكبر عبد المجيد، ليحاولا أقناع الجهات المختصة بالخسارة العظمى التى ستصيب نفوذ الحكومة و هيبتها بين العرب و المسلمين فيما لو تم ذلك. فتقرر الدفاع عن المدينة حتى النهاية. و بعد أن أنهى الشريف جعفر مهمته على هذه الشاكلة قفل راجعا الى المدينة.

و لما اصبحت مشكلة التجهيزات و المؤن على جانب أكبر من الحدة و الصعوبة تقرر ان يترك الشريف حيدر المدينة مع حاشيته و يقيم فى سورية، و قبل ان يرحل عنها سلم الى فخرى باشا آمر الحامية فى المدينة جميع ما كان عنده من عدد و تجهيزات طبية و خيول و ابل ليستعين بها فى الدفاع عنها.

و قد خزن جميع ما كان عنده من خيام كبيرة، و سجاد يكفى لجلوس مائة نفر عليه، فى داخل المسجد النبوى مع امتعته الشخصية التى كانت من بينها عشرة صناديق سدر ثمينة ملأى بأنواع الفر و الفاخر و الخلع التى كان قد أهداها السلطان اليه. و قد سلم الأمير مفتاح الغرفة التى خزنت فيها الى زوجته، لكن تلك المخزونات لم تسترجع بعد ذلك مطلقا، لأنها وقعت فى أيدى أتباع فيصل حينما دخلوا المدينة.

و يشير السر رونالد ستورز، عضو مكتب الاستخبارات البريطانية فى القاهرة يومذاك و حاكم القدس و قبرص بعد ذلك، إشارة عابرة الى مجيء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۱۹

الشريف على حيدر هذا الى المدينة فى كتابه المشهور. إذ يذكر عن بداية الثورة أولا ان مكة استسلمت للثوار فى ۱۳ حزيران ۱۹۱۶، و استسلمت جدة فى يوم ۱۶ منه بعد ان قصفتها الباخرة البريطانية فوكس من البحر.

ثم سقطت الطائف بعد ذلك، لكن المدينة بقيت تدافع عن نفسها بقيادة قائدها الباسل فخرى باشا حتى النهاية .. ثم يقول ان الباب العالى بادر فى ۱۶ تموز الى تعيين الشريف على حيدر شريفا لمكة برتبة وزير.

و هناك نشر بيانا فى آب عليه ختم امارة مكة يشير فيه الى ان الثورة العربية دبرت بأصابع مسيحية. و يقول فى حاشية فى أسفل الصفحة نفسها انه زار الشريف حيدر فى بيروت سنة ۱۹۲۳ فوجده رجلا مهذبا ذا شخصية جذابة، و كان أحد أبنائه كمنجاتيا بارزا (يقصد الشريف محيى الدين الذى اشتغل فى معهد الفنون الجميلة فى العراق بعد ذلك)، و كان ابنه الآخر ممثلا لشركة جنرال موتورز فزاره فى قبرص.

المدينة فى ۱۹۲۵

كانت الفترة الممتدة ما بين سنتى ۱۹۲۴ و ۱۹۲۵ من الفترات الحاسمة فى تاريخ الحجاز الحديث. فقد هاجم الوهابيون فيها، بقيادة ال سعود،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۰

البلاد الحجازية و استولوا عليها بعد ان أخرجوا منها الأسرة الهاشمية المالكة، و هى أسرة الحسين بن على المنتمية إلى أسرة ذوى عون الحسنية. و قد زار الحجاز فى هذه الفترة التاريخية الحاسمة كاتب انكليزى يدعى أيلدون رتر، مدعيا الأسلام، و منتحلا اسم «أحمد» أو الحاج أحمد، و ناسبا نفسه إلى البلاد الشامية. فنجح فى تستره هذا، و حج البيت الحرام فى مكة، ثم زار المدينة المنورة، و كتب أشياء كثيرة عن رحلته هذه فضمنها فى كتاب له سماه «مدن الجزيرة العربية المقدسة ».

و يذكر المستر رتر فى مقدمة كتابه أنه جاء الى القاهرة فى مايس ۱۹۲۵، و هو عازم على الرحلة فى بلاد الجزيرة العربية لزيارة مكة و أداء فريضة الحج التى يؤديها المسلمون كل سنة، و زيارة المدينة بعد ذلك حيث يوجد قبر النبى (ص). و يقول بعد ذلك: و كانت الحرب فى هذا الوقت ناشطة فى المملكة الحجازية كلها. ففى صفر سنة ۱۳۴۳ للهجرة (ايلول ۱۹۲۴) كانت قوات السلطان عبد العزيز بن سعود قد احتلت واحة الطائف العظيمة المرتفعة، التى تقع فى واد عريض بين قمم جبل كرا المثلمة ..

و بعد ان نهب الوهابيون من أتباع ابن سعود هذه البلدة الجميلة و ذبحوا عددا كبيرا من سكانها العزل، دخلوا الى مكة بلباس الأحرام و استولوا عليها من دون عنف أو إراقة دماء. و كان الحسين، ملك الحجاز الهاشمى قد تنازل عن العرش لابنه الشريف على، و بعد ان تراجع الملك على الى جدة تبعه الوهابيون و ضربوا نطاقا من الحصار حوله فيها. و كانت المدينة، و ميناؤها ينبع، لا تزال فى أيدى الحكومة الهاشمية لكنهما حوصرتا كذلك من قبل قوات ابن سعود. و قد سدت جميع الموانىء الحجازية فى وجه حركة السفن الاعتيادية، فكانت الوجه و ينبع وجدة محاصرة، بينما كانت اللث و قنفدة فى جنوبى جدة قد استولى عليهما الوهابيون فضرب الملك الهاشمى نطاقا موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۱

من الحصار حولهما. و يقول المستر رتر- غير انى صممت على ان لا أعبأ بهذا الحصار، فأصل الى الحجاز بطريقة من الطرق .. و قد وصل بالفعل بعد ان أقلع عن طريق قناة السويس الى مصوع، ثم الى القحم و البرك، و من هناك الى قنفذة. و بعد ان ادى فريضة الحج و زار الأماكن التاريخية و المقدسة فى مكة كلها، توجه الى رابغ و منها الى المدينة المنورة.

و مما يذكره المستر رتر عن مكة انه استطاع المثول بين يدى السلطان عبد العزيز بن سعود فيها، قبل ان تسقط جدة فى يده. و كان ذلك فى أثناء جلوسه فى «الحميدية» بواسطة رجل سورى كان يشتغل محررا فى جريدة «أم القرى». ثم زاره بعد ذلك عدة مرات أى قصره فى الأبطح. و يشير كذلك الى أنه قد اكتشف أمره فى مكة و عرفه بعض الناس انه رجل انكليزى لكنه استطاع ان يبرهن على أنه انكليزى مسلم. و بهذه الصفة واجه ابن سعود و تحدث معه عن أشياء عامة كثيرة منها قضية احتلال امارة شرقى الأردن و تعنى يومذاك العقبة و معان، و استياؤه من ذلك، و عطفه على الثورة السورية ضد الفرنسيين و استعداده لمساعدتها فيما لو سكت الأنكليز عنه، و تصفية بعض قضايا الحدود مع العراق فى مؤتمر بحرة. و يذكر أيضا أنه لقى الدكتور عبد اللّه الدملوجى فى مجلس ابن سعود، حينما كان يعمل مستشارا للشؤون الخارجية عنده، و هو يثنى عليه و يشيد بثقافته و معلوماته العامة.

و يخصص المستر رتر ثلاثة فصول كبيرة من كتابه لما يذكره عن المدينة، و يعنون أحدها بعنوان «قبر النبى» و الثانى بعنوان «ملاحظات طويوغرافية و تاريخية» و الثالث بعنوان «حرم المدينة». و لما كان معظم ما يذكره رتر فى هذه الفصول قد ورد فيما انتقيناه من المراجع السابقة المشار اليها فى هذا المبحث لم نر حاجة الى تكرار ذكره هنا، و لذلك سنقتصر على ايراد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۲

بعض الفقرات و الملاحظات العامة منها مما قد يدل على شكل الحرم فى السنوات المتأخرة فقط. و يلاحظ هنا ان المدينة حينما

وصلها رتر كان قد تم احتلالها من قبل الوهابيين.

فهو يقول مثلا عن الحرم النبوى الشريف ان باب السلام يقع فى نهاية السوق الشرقية و ينتهى بها، و انه يعد الباب الرئيسى للمسجد الذى يتحتم على الزائر الدخول منه اليه لأول مرة. و يذكر عند الأشارة الى محراب النبى (ص) انه مغلف بقطع من الرخام الأبيض و الأسود و الأحمر و الأخضر، و هى مرتبة بأشكال معقدة. و يقول كذلك ان صيغة الزيارة الطويلة المفصلة التى قرأها المزوّر معه كان يحرمها الوهابيون. و قبل ان يبدأ المزور فى قراءتها أخبره همسا بأنه سيزوّره القبر المقدس على طريقة المسلمين الذين يحبون رسول اللّه (ص)، فعلم من ذلك ان المزور يجازف فى مثل هذه الزيارة لأنه ربما يتعرض للأهانة و العنف بسببها من الوهابيين المتعصبين الذين استولوا على المدينة مؤخرا. و بهذه المناسبة يذكر ان الوهابيين يعملون بتعاليم ابن تيمية التى بنى المذهب الوهابى عليها، و ان المزور حينما يطلب شفاعة النبى يكون قد ارتكب جريمة «البدعة»، و ان الصلاة فى المساجد التى تحتوى على قبور الأولياء فى داخلها تعتبر باطلة فى نظر الوهابيين.

و من طريف ما يذكره المستر (رتر) كذلك القصة المنسوبة الى السلطان محمود نور الدين (۱۱۴۵- ۷۳) ملك الشام، نقلا عن «تاريخ المدينة» للمؤرخ السمهودى. فقد شاهد هذا السلطان النبى ثلاث مرات فى حلمه ذات ليلة، و كان النبى يقول له فى كل منها «أنقذنى يا محمود من هذين الشخصين»، و كان هناك فى مقابله شخصان أحمرا الشعر. فنهض السلطان قبل بزوغ الفجر و دعا وزيره اليه فقص عليه الرؤيا. فقال له الوزير ان هذا الشيء لا بد من ان يكون قد حصل فى المدينة، و لا يمكن ان يتولى معالجته سوى السلطان نفسه. و على هذا الأساس ركب السلطان مع عدد كبير من رجال حاشيته و قادة جيشه و توجه الى المدينة المنورة. و دخلها من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۳

دون ان يعلم بقدومه أحد، و كان أول ما فعله فيها انه أمر ان تسجل له اسماء سكان المدينة بأجمعهم ليوزع عليهم الصدقات بنفسه. فوزع مبالغ كبيرة بهذه الطريقة حتى يستطيع التأكد بنفسه من الناس، و يكتشف الشخصين اللذين أشار اليهما النبى فى حلمه. لكنه لم يجد أحدا منهما بين جميع من حضر من سكان المدينة، فسأل: هل تأخر أحد عن الحضور؟ و أجابه الناس ان الجميع قد حضروا ما عدا غريبين اثنين من أهالى الأندلس، يقيمان فى التكية القائمة تجاه حجرة النبى (ص)، و جدّوا فى التفتيش عنهما حتى وجدوهما فأحضروهما بين يدى السلطان الذى عرفهما حالما وقع نظره عليهما، و قال لوزيره انهما هما بعينهما. و حينما استفسر منهما عن هويتهما، أجابا بأنهما جاءا للاقامة فى مدينة النبى. لكنه أصر عليهما بان ينطقا بالحقيقة و شدد عليهما النكير و التعذيب حتى اعترفا بأنهما نصرانيان، و انهما جاءا لسرقة رفات النبى (ص) المدفونة فى الحجرة، بايعاز من ملكيهما.

و قد وجد أنهما كانا قد حفرا نفقا تحت جدار المسجد المتجه إلى مكة، يؤدى الى الحجرة بطريقة بارعة كانا يخفيان بها التراب و يأخذانه بعيدا عن الأنظار. و حينما سمع السلطان اعترافهما هذا قطع رأسيهما بالقرب من شباك الحجرة الشرقى، و أحرق جثتيهما بالنار. و اخيرا أمر بحفر خندق يحيط بالحجرة المقدسة وصب فيه الرصاص و النحاس الأصفر، لئلا يمكن تدنيسها أو العبث بها بهذه الطريقة بعد ذلك .

اما من الناحية الطوبوغرافية فيقول رتران المدينة تقع فوق هضبة أواسط الجزيرة العربية، فتختلف بذلك عن مكة التى تعد من مدن السهل الساحلى.

و تتوسط عددا من المجموعات الجبلية التى تحيط بها على شاكلة حدوة الحصان التى تقع فتحتها فى الجهة الجنوبية الشرقية و تتألف الأرض،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۴

الممتدة من جبل عير الى مسافة تقل بمقدار نصف ميل عن أسوار المدينة، من منحدر متكسر يتكون من صخور بركانية، و فى السهل الممتد الى شرقى المدينة تقع كتلة راكبة من اللابا السوداء. و هذه تمتد الى مسافة ميل عن باب المدينة الشرقية المسماة باب الجمعة

أو باب البقيع، و تعرف بالحرة.

و يبلغ سمك الحرة حوالى عشرة أقدام، و هى ترتفع ارتفاعا فجائيا عن التربة الرملية المحيطة بها فتبدو كأنها جدار أسود. و يروى سكان المدينة ان النبى (ص) حينما حارب اليهود فى المدينة عمدوا الى دفن أموالهم و جواهرهم فى الحرة، فحاول المسلمون بعد ذلك العثور عليها من دون جدوى. و قد زرع الفراغ الممتد بين المدينة و الحرة ببساتين النخيل الكثيفة، و فى ظلال هذا النخيل يزرع البرسيم و الحنطة و الشعير و الطماطة و أنواع عديدة أخرى من الخضروات. و فى الجهة الجنوبية للمدينة تمتد بساتين النخيل و الأثل و النبق بشكل اسفين ما بين الحرة و جبل عير الى مسافة ستة أو سبعة أميال. و تنتشر ما بين الأشجار البيوت و القرى الصغيرة، لكن هذه كلها كانت مهجورة و فى حالة خربة، كما كانت الحقول جرداء غير عامرة بالذرع، حينما زار المستر رتر المدينة. و يعزى ذلك كله الى الحصار الذى كان الوهابيون قد فرضوه خلال السنة الأخيرة. و الى شمال غرب أحد وراء الجناح الغربى للجبل توجد واحة واسعة تسمى «العيون».

و تكوّن المدينة شكلا بيضويا يمتد طوله من الشرق الى الغرب. و يحميها سور عال متين توجد فيه عدة حصون و تسعة أبواب. و الأبواب هى:

باب الجمعة أو باب البقيع و تقابل الشرق، و الباب المجيدى و الباب البصرى و الباب الشامى و تقابل الجهة الشمالية، و الباب الصغير و العينية و الباب المصرى و تقابل الغرب، و باب الشونة و باب الحمام و تقابل الجنوب.

و يذكر المؤرخون أن أول شخص شيد سورا حول المدينة هو محمد ابن اسحق حاكم المدينة فى سنة ۲۳۶ للهجرة (۸۵۰ م). و قد أعيد بناؤه فى ۵۴۰ للهجرة بأمر من سلطان الموصل. و حينما زار المدينة السلطان محمود

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۵

نور الدين للنظر فى أمر المسيحيين اللذين حاولا العبث بالحجرة المقدسة أمر بتشييد الجدار الخارجى. و قد أعيد ترميم السورين عدة مرات بعد ذلك، و آخر من رمم السور الداخلى السلطان عبد العزيز العثمانى سنة ۱۸۶۷.

و يقوم فى خارج السور من الجهتين الشمالية و الغربية عدد غير يسير من المبانى الكبيرة، التى يبدو ان بعضها كانت قصورا منيفة فى يوم من الأيام. و كانت هذه البيوت قد شيدها الأتراك و غيرهم ممن سكن هنا فى أيام السلطان عبد الحميد. و لا شك أن المدينة ببساتينها، و قطارها الذى كان يأتى اليها بالفواكه و الخضروات و المؤن و السلع المختلفة من دمشق، كانت منتجعا لطيفا يعتزل فيه الناس الذين أتعبهم عناء العالم الحديث و أقض مضجعهم تناقص الاهتمام بالدين و شؤونه. و بافتتاح سكة حديد الحجاز سنة ۱۹۰۸ تبدأ فترة مزدهرة فى المدينة تقاطر فيها الأغنياء عليها بقصد الأقامة الدائمة.

على ان ظهور الوطنيين الأتراك على مسرح السياسة التركية بعد ذلك جاء بشعور عدم الثقة و الاطمئنان فى هذا الحرم الأمين، لأنهم لم يقدروا قيمة امتلاك الحرمين، و نادرا ما كانوا يعدون هذا الشرف قمينا بصرف المبالغ الطائلة عليه و إرشاء القبائل العربية للامتناع عن قطع الطرق المؤدية اليهما. و لذلك فقد أدى الخوف من إقدام ابن رشيد على احتلال المدينة أو قيام الوهابيين بتكرار ما كانوا قد فعلوه فى أوائل القرن التاسع عشر بها، الى ترك الكثيرين لها قبل ان يعمد الشريف حسين الى اعلان الثورة على الأتراك فى ۱۹۱۶.

و منذ أن وقع ذلك الحادث المهم توالت على المدينة ويلات عديدة تتوجت بحصار الوهابيين لها مدة خمسة عشر شهرا على ما يقول المستر رتر.

و كانت النتيجة التى أدى اليها الحصار الكريه هذا أن قل عدد السكان فيها الى ستة آلاف نسمة فقط، مع ان هؤلاء السكان كان عددهم قد وصل الى سبعين او ثمانين ألف نسمة من قبل .. ثم يأخذ رتر بوصف الشوارع و الأزقة الفارغة و البيوت المتهدمة، و يخرج من ذلك الى وصف محطة القطار

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۶

المهملة فى نهاية المدينة الغربية بالقرب من باب العنبرية.

و بعد ان يصف اشياء كثيرة مرت الأشارة اليها قبل هذا فى المراجع الأخرى، يقول رتر: ان كثيرا من طلبة العلوم الدينية الذين كانوا يقيمون فى المدينة سابقا فروا هاربين الى بلاد آمنة مع شيوخهم، لكن قليلا منهم ظلوا مقيمين فيها خلال مدة الحصار الوهابى. و ها هم يدرسون الآن على ابن تركى فى الحرم الشريف، و ابن تركى هذا نجدى سلفى معتدل لا يمكن ان يسمى وهابيا لأنه على ما يقول رتر لا- يعتقد بجميع تعاليم ابن تيمية و محمد ابن عبد الوهاب. و من علماء المدينة الآخرين الذين يذكرهم رتر أحمد الطنطاوى المصرى الذى امتنع عن التدريس فى الحرم منذ قدوم الوهابيين الى المدينة، و أخذ طلبته يراجعونه فى بيته.

مكتبات المدينة

و بعد ان يأتى رتر على وصف الحرم الشريف على النحو المار ذكره فى هذا البحث بصورة عامة يتطرق الى ذكر مكتبة عارف حكمت العامة، و يقول انها تشغل بناية تتألف من غرفتين مقببتين .. و كانت هذه المكتبة قد تبرع بها مؤسسها الشيخ عارف حكمت شيخ الأسلام السابق فى استانبول و أثثها تأثيثا كاملا. و كتب هذه المكتبة كلها مرقمة يمكن استعادتها و الاستفادة منها فى الخارج. و قد شاهد رتر على منضدة خاصة فيها كرة أرضية كبيرة يدل وجودها على ان الشيخ عارفا كان يؤمن بكروية الأرض، كما شاهد فيها عددا من الشيبة يطالعون الكتب و هم جالسون على السجاد بالقرب من الشباك. و يلاحظ ان مأمور المكتبة و مساعده كانا تركيين مطلعين على تصنيف الكتب و أماكنها فى الرفوف، فسألهما (رتر) أن يحضرا له مجلدا من مجلدات فخر الرازى فى تفسير القرآن فجاء له به المساعد فى الحال بكل عناية و اهتمام. و قد أخبره هذا المساعد انهم لا يعيشون على ما يقبضونه من الملك و لا من الحسين بن على أو ابن سعود، بل يعيشون على ما يأتى اليهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۷

من الوقف الذى أوقفه الشيخ على المكتبة فى استانبول.

و يخلص رتر من هذا الحديث الى الأشارة الى ان المدينة كانت تشتهر بخزانات كتبها منذ زمن طويل، لكن مجموعات ثمينة من كتبها قد اختفت بمجيء الوهابيين الى المدينة، و لم يعرف لها أثر. و قد قيل ان مكتبة السلطان محمود الكائنة بجوار باب السلام بقيت من دون ان يتعرض لها أحد، لكن المستر رتر وجدها مغلقة من دون ان يستطيع أحد فتحها. اما مكتبة بشير أغا الشهيرة، و مكتبات الشفاء و السلطان عبد الحميد و عمر افندى فيقال انها لم يعد لها وجود فى المدينة. و يقول البعض ان معظم كتبها كانت قد سرقت حينما هرب السكان من المدينة، بينما يدعى آخرون أن الوهابيين قد أحرقوها، و هناك غير هؤلاء يقولون انها كانت قد بيعت من قبل المكلفين بحفظها و حراستها.

و هناك فى المسجد الأكبر حوالى مائة نسخة كبيرة من القرآن الكريم موضوعة على الرفوف بجانب محراب النبى (ص). و قد خط معظمها بخط جميل ممتاز و زينت بالذهب و باللونين الأحمر و الماوى و غيرهما.

و كانت هذه النسخ الثمينة قد أهديت الى المسجد النبوى فى مختلف الأوقات ليستفيد منها الزوار فى القراءة و الترتيل.

ابواب الحرم و محاريبه

و يذكر رتر ان هناك خمسة أبواب عامة كبيرة فى الحرم المدنى الشريف، و هى: باب السلام و باب الرحمة فى السور الغربى، و يحمل الموتى من باب الرحمة الى داخل الحرم للصلاة عليهم قبل الدفن، و الباب المجيدى المسمى باب التواصل أيضا فى السور الشمالى، و باب جبريل و باب النساء فى السور الشرقى، و يقع باب النساء بالقرب من مصلى النساء فى الحرم اما باب جبريل فيحمل منه الموتى لدفنهم فى البقيع.

و هناك علاوة على هذه الأبواب الخمسة باب آخر فى السور الشمالى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۸

يؤدى الى جناح المخازن، لكنه يظل مغلقا فى الغالب. و هناك باب صغير آخر فى السور الجنوبى يؤدى الى حديقة عمر، و هذا ايضا يبقى مغلقا و لا يفتح ما لم يدفع الزائر مبلغا من المال الى البواب لفتحه لأجل ان يمر من الممر الذى كان يسلكه عمر. و يوجد كذلك عدد من الأبواب الصغيرة التى تؤدى الى المنائر.

و هناك عدد من المحاريب التى تقع فى مختلف أنحاء المسجد. و لهذه المحاريب ذكريات تاريخية عديدة، و كثير من المسلمين يفضلون الصلاة أمام محراب واحد منها دون المحاريب الأخرى لأسباب شخصية لا غير.

لكن بعض الناس يصلون امامها كلها، و قد يشير المزوّرون على الزوار بالصلاة ركعتين أمام كل منها. و لا حاجة للقول ان أهم هذه المحاريب هو محراب النبى (ص). و هاك أسماءها بالترتيب: محراب النبى فى الروضة، و محراب عثمان فى الوسط الشرقى من السور الجنوبى، و المحراب السليمانى الذى بنى فى القرن التاسع الهجرى و كساه بالرخام السلطان سليمان القانونى فى القرن العاشر، و يقع فى خط المحراب النبوى من الجهة الغربية، و محراب المتهجد فى الجانب الشمالى من حجرة الزهراء البتول و قبرها.

و هناك منصة مرتفعة بين يدى هذا المحراب، و يعتقد ان النبى (ص) كان يتهجد فى هذا الموقع طوال الليل. و فى داخل الحجرة التى تحتوى على قبر فاطمة يوجد محراب آخر، لكن هذا لا يمكن الوصول اليه. و آخر محراب هو محراب باب النساء.

البقيع فى ۱۹۲۵

ذكرنا سابقا فيما اقتطفناه من رحلة بورخارت، و السر ريتشارد بورتون الى الحجاز، و غيرهما الحالة التى وجدت فيهما هذه المقبرة التاريخية و ما أصابها من الوهابيين الذين لا يؤمنون بتوقير القبور، حينما استولوا على المدينة فى بداية القرن التاسع عشر. و قد لاحظنا ان المستر رتر يذكر الشىء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۲۹

نفسه تقريبا عند زيارته لها فى ۱۹۲۵، اى بعد ان احتل الوهابيون المدينة للمرة الثانية بعدة شهور فقط.

فهو يذكر فى وصفها (الص ۵۶۲) بعد ان زارها عدة مرات فى أيام الخميس بعد الظهر انه وجدها عبارة عن قطعة أرض محاطة بسور من الطين، تبلغ أبعادها مئتى ياردة فى مئة و عشرين، و تقع فيما يقرب من السور الشرقى للمدينة. و قد دفن فيها على ما يقال عشرة آلاف صحابى من أصحاب النبى.

ثم يقول:

.. و حينما دخلت الى البقيع وجدت منظره كانه منظر بلدة قد خربت عن آخرها. فلم يكن فى انحاء المقبرة كلها ما يمكن ان يرى أو يشاهد، سوى أحجار مبعثرة و أكوام صغيرة من التراب لا حدود لها، و قطع من الخشب و الشيش، مع كتل كثيرة من الحجر و الآجر و السمنت المتكسر، هنا و هناك. و قد كان ذلك أشبه بالبقايا المبعثرة لبلدة أصابها الزلزال فخربها كلها. و ألفيت بجنب السور الغربى للمقبرة أكواما كبيرة من ألواح الخشب القديمة، و الكتل الحجرية، و قضبان الحديد. و كانت هذه بعض ما جمع من المواد الأنشائية المبعثرة و كوّم هنا بانتظام. و قد أزيلت الأنقاض من بعض الممرات الضيقة حتى يمكن للزائرين ان يمروا منها ليصلوا الى مختلف انحاء المقبرة، و فيما عدا ذلك لم يكن هناك ما يدل على شىء من الانتظام. فقد كان كل شىء عبارة عن و عورة تتخللها مواد الأبنية المهدمة و شواهد القبور المبعثرة، و لم يحدث هذا بفعل الزمن و عوارض الطبيعة بل صنعته يد الأنسان عن عمد و تقصد.

فقد هدمت و اختفت عن الأنظار القباب البيضاء التى كانت تدل على قبور آل البيت النبوى فى السابق، و قبر الخليفة الثالث عثمان، و قبر الأمام مالك، و غيرهم. و أصاب القبور الأخرى نفس المصير، فسحقت و هشمت حتى الأقفاص المصنوعة من أعواد الجريد التى

كانت تغطى قبور الفقراء من الناس قد عزلت جانبا أو أحرقت.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۰

و يقول رتر و حينما توغلنا فى داخل المقبرة لمشاهدة الأكوام التى تدل فى يومنا هذا على قبور المسلمين الأوائل الذين صنعوا التاريخ الحافل، سمعت دليلى عامدا يكرر بهمس: استغفر اللّه، استغفر اللّه، لا حول و لا قوة الا باللّه. و كان القلة ممن بقى من سدنة القبور التى بقيت معالمها شاخصة للعيان يقفون أو يجلسون بجنبها بأوجه غير معبرة، و من دون ان تبدر منهم أية حركة. فلم يطلبوا الصدقة، و لم يتكلموا بشىء سوى بعض الكلمات الخافتة برغم عدم وجود أحد من الوهابيين على مقربة منهم غير اثنين من عبيد ابن سبهان فى الباب. لكن بعض النواخلة كانوا لا يزالون منشغلين فى التقاط بعض القطع الصالحة للاستعمال من الخشب و غيره، من بين الخرائب و الأنقاض. و ليس بوسع هؤلاء النخاولة فى العادة ان يدفنوا موتاهم بين الأولياء فى البقيع، لكنهم قاموا الآن تحت اشراف الوهابيين بتهديم قبور المسلمين السنة و تدميرها.

و قد سرنا فى ممر ضيق، نظف من بين الزبل المبعثر، نحو قبر عثمان الواقع فى الجبهة الشرقية من المقبرة. و فيما كنا نخطو هذه المسافة خطوا مستأنيا التقينا بجماعة من الهنود راجعين من زيارة هذا القبر. و كان الذى يتقدمهم رجلا مسنا ذا لحية طويلة قد و خط الشيب سوادها، و كان و هو يمشى منتصب الرأس لا يحرك عينيه يمنة و لا يسرة، بل كان ينظر الى الأمام على الدوام و الدموع تنحدر من عينيه بتيار مستمر. اما الذين كانوا يسيرون وراءه فقد نظروا الينا نظرة خاطفة ثم حولوا أنظارهم الى الأمام بسرعة. فوصلنا الى مرتفع بسيط، و عندئذ عرفت سبب الحزن الذى كان يبدو على الهندى المسن. فقد كان هناك بين يدينا على الأرض منشأة طويلة قليلة السمك لا يكاد يبلغ سمكها ست بوصات. و كان يبدو أنها مصنوعة من اطار خشبى دقت فيه بالمسامير قطع خشنة من التنك. فكان هذا هو قبر عثمان الخليفة الثالث نفسه. و كان يجلس بجانبه هندى آخر و هو ينتحب.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۱

المدينة فى مؤلفات فيلبى

كان سنت جون فيلبى، أو الحاج عبد اللّه فيلبى، قد عاش مدة طويلة فى نجد و الحجاز فى كنف الملك عبد العزيز السعود، و أعلن اسلامه على يديه فأصبح حرا يتجول فى البلاد المقدسة كما يهوى و يريد، و أجرى دراسات تاريخية و جغرافية عديدة فى تلك البلاد. و قد ألف مؤلفات عدة فى هذا الشأن، فكان لا بد من ان يتطرق الى ذكر المدينة فيها بين حين و آخر.

و من أحسن مؤلفاته عن الملك عبد العزيز السعود كتابه «اليوبيل العربى » الذى كتبه فى تفصيل حياة هذا الملك بمناسبة بلوغه الثانية و السبعين من عمره. و قد ورد ذكر المدينة فى هذا الكتاب بمناسبات مختلفة، و أقدم ما يذكره عنها فيه أشارة (الص ۲۶) الى ان سكة حديد الحجاز قد تم انشاؤها و وصلت نهايتها الى المدينة فى ۱۹۰۸ برغم معارضة القبائل البدوية و أمراء مكة لها. ثم عين السلطان عبد الحميد فى السنة نفسها الشريف حسين ابن على فى شرافة مكة الشاغرة. و يشير كذلك (الص ۴۴) الى وصول الشريف على حيدر الى المدينة فى ۱۹۱۶ ليحل محل الحسين و يشغل شرافة مكة الكبرى بعد ان ثار الحسين على الأتراك بالنحو الذى مرّ ذكره فى هذا المبحث من قبل. فهو يقول ان الحسين أعلن الثورة على الأتراك و بلّغ ابن سعود رسميا بذلك طالبا مساعدته. لكن ابن سعود بعث بنسخة من الكتاب الى الأنكليز فى البصرة للمعلومات و رفض التملق للعدو جوابا على الكتاب الثانى الذى تسلمه بعد ذلك من الشريف على حيدر فى المدينة. و لكن الذى نلاحظه نحن فى ادعاء فيلبى يدل على عدم اطلاعه التام على ما جريات الأحوال فى تلك الفترة. لأن الحقيقة هى ان ابن سعود قد رد على كتاب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۲

الشريف على حيدر بكتاب رسمى يتودد فيه الى الأتراك و خليفتهم فى استانبول، و يهاجم الحسين بن على لأنه ثار عليهم ففرق بين

المسلمين و حالف النصارى فسمح لهم بالدخول الى البلاد المقدسة. ثم يطلب منه ان يمده بالمال و الذخيرة ان أمكن. و قد أثبتنا نص الكتاب فى ضمن ما اقتطفناه جون فيلبى (الحاج عبد اللّه فيلبى) بالملابس العربية و الغليون الانكليزى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۳

من كتاب الشريفة مصباح حيدر.

على ان أهم ما يذكره فيلبى فى هذا الكتاب تطرقه الى استيلاء الوهابيين على المدينة بعد محاصرتها ردحا من الزمن. فهو يقول (الص ۷۶) ان ابن سعود بعد ان احتلت قواته الطائف و ذبحت سكانها العزل فى مذبحة رهيبة، ثم احتلت مكة المكرمة، صار يعد العدة للاستيلاء على المدينة، وجدة بعد ذلك. و قد شهد هو نفسه- اى فليبى- فى رابغ جيش الأمير محمد ثالث أنجال ابن سعود يتوجه فى طريقه الى المدينة التى طلبت التسليم اليه، و ليس الى فيصل الدويش و أتباعه «الأخوان» الذين ظلوا يحاصرونها مدة طويلة من الزمن، و رفضت دخولها الى المدينة خوفا من عبثهم بمقدساتهم و إقدامهم على ذبح الناس فيها. و قد تم ذلك بالفعل، فما ان وصل الأمير محمد الى أبوابها حتى استسلمت له فى يوم ۵ كانون الأول ۱۹۲۵. و من أهم ما يذكره عن المدينة كذلك (الص ۸۴ و ۸۵) وصول وفد جمعية الخلافة الاسلامية من الهند الى البلاد المقدسة بعد احتلال السعوديين لها بقصد التأكد من مصيرها و الاطمئنان على مستقبلها، و التحقيق فى قضية المذابح و الانتها كات التى نسبت لهم فترددت أخبارها فى أرجاء العالم الأسلامى كلها. و يقول فيلبى ان وفد هذه الجمعية غادر البلاد المقدسة، فى النصف الثانى من كانون الأول ۱۹۲۶، و هو نصف مقتنع بمستقبل الحجاز المضمون برغم ما بذله عبد العزيز السعود من جهود باقناعهم فى هذا الشأن. و ما ترك وفد هذه الجمعية الحجاز حتى وصل وفد اسلامى آخر من الهند يمثل «جمعية خدام الحرمين» فيها، و معه ستون ألف روبية لمساعدة ضحايا الجور الذى حصل فى المدينة. و كان موقف هذا الوفد أكثر تصلبا و صراحة فى عدائه للعهد الجديد منذ البداية، و أشد انتقادا للأعمال التى جرت، الأمر الذى اضطر ابن سعود الى اخراجهم من البلاد فى أول سفينة أبحرت من الساحل الحجازى الى السويس فى اليوم الأول من شهر مارت. و كانت انتقاداتهم تتركز فى الغالب حول المزاعم المبهمة التى تنطوى على خضوع ابن سعود للنفوذ

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۴

البريطانى كما يستنتج من اتفاقيتى الحدة و بحرة، اللتين طلبوا الأطلاع على نصهما الأصلى الموقع لأنهم كانوا يشكون بوجود فقرات سرية فيهما.

يضاف الى هذا أنهم أبدوا استياء عظيما من الفظائع التى حصلت فى الطائف و المدينة و سائر الأماكن، و طلبوا تقديم تفسير لذلك. و انتقدوا بشدة إقدام ابن سعود على مراوغة الرأى العام الاسلامى و عدم أخذه بنظر الاعتبار حينما أعلن تسنمه العرش من جانبه هو فقط.

و يقول فيلبى فى مناسبة أخرى ان المجازفة فى حصول تعقيد مع الدول الأوربية، فى حالة وقوع اصابات فى القتال الذى قد يحصل فى جدة، قد اضطره (اضطر ابن سعود) على الشاكلة نفسها الى تأخير الهجوم على تلك البلدة حتى يتسنى له ان يتولى إدارة العمليات الحربية بنفسه. و كان قد أمر من قبل فيصلا الدويش و اتباعه المتعصبين بالتوقف عن مهاجمة المدينة المنورة التى استسلمت بعد ذلك بصورة أصولية منتظمة الى الأمير محمد. و مع هذا فقد حصلت تخريبات فى الأماكن التقليدية المقدسة فى المدينة و مكة معا، فكان لها وقع سيء فى أنفس المسلمين و أثارت حفيظة الناس فى ايران و سائر البلاد الأسلامية.

و يشير فى موقع آخر (الص ۱۵۳ و ۱۵۴) الى أن نصب مكبرات الصوت فى الحرمين الشريفين قد تم قبل حلول شهر الصوم فى شباط ۱۹۲۶، بعد ان لم يكن من المناسب الاستفادة من مثل هذا الاختراع من قبل فى هذه البقاع المقدسة. ثم يتطرق فيلبى فى صفحات أخرى الى مساهمته هو و الشركة التى كان يمثلها فى الحجاز فى مكافحة البعوض فى المدينة و غيرها، و نصب الأجهزة اللاسلكية التى أوصلت لمدينة بجدة و مكة (خلال الثلاثينات). و يناقش فيلبى فى صفحات أخرى (الص ۱۹۸ و ۲۲۷) من كتابه هذا الأبهامات

التی وجهها الملک عبد اللّه فی مذکراته الی الملک

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۵

عبد العزیز السعود حول استغلال ثروات الحجاز من النفط و الذهب، مشیرا بذلک الی المذکرة التی قدمها فی ۵ نیسان ۱۹۴۴ الی المندوب السامی فی فلسطین، فیقول ان الحجاز لم تظهر فیه ثروة نفطیة و ان الذهب أمکن استخراج مقادیر مناسبة منه بواسطة المشروع الذی استغل «مهد الذهب» الکائن فی منتصف الطریق بین مکة و المدینة. و آخر ما یتطرق فیلبی الی ذکر المدینة فیه خلال هذا الکتاب (الص ۲۴۵) تطرق الی زیارة الملک فاروق الرسمیة الی الحجاز فی سنة ۱۹۴۴ و قضائه بضعة أیام مع الملک عبد العزیز السعود فی مخیم جمیل أقیم لهما فی ظلال جبل رضوی ما بین المدینة و ینبع

و یأتی ذکر المدینة کذلک فی صفحات کثیرة من کتاب فیلبی المهم الآخر، و هو کتاب «أربعون عاما فی الأوعار» الذی نشر فی سنة ۱۹۵۷. ففی الفصل الذی یخصصه لحصار جدة من الکتاب (الص ۱۲۲)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۶

یتعرض الی خروج الحسین من الحجاز بعد تنازله عن العرش الی ابنه الملک علی و یدعی أنه أخذ معه (۰۰۰، ۸۰۰) باون انکلیزی ذهب بعد ان اقتصدها من المبالغ التی قدمتها الحکومة البریطانیة له خلال الحرب، و من الضریبة التی کان یفرضها بمقدار خمسة باونات علی کل بعیر یستأجره الحجاج من جدة الی المدینة أو من ینبع الی المدینة، و بمقدار ثلاثة باونات عن کل حاج یتسلمه المطوفون فی مکة.

و یتطرق فی هذا الکتاب ایضا (الص ۱۲۸) الی حصار الوهابیین للمدینة قبل استسلامها لهم، فیقول ان ابن سعود بعث برسله الی المدینة طالبا استسلامها فی الحال، هی و حامیتها و ما فیها من أسلحة و عتاد و عدد لاسلکیة و سائر الذخائر العسکریة، الی قائده فی المیدان صالح العاذل من شمر، الذی کان قد وصل مع قوة من البدو الی الحناکیة. و بهذه الشروط وعدت مدینة الرسول بضمان سلامتها و عدم التعرض لها بشیء، بینما طلب الی قبائل حرب المحیطة بها بان تفعل الشیء نفسه لتتجنب مغبة العناد.

لکن قائد المدینة الشریفی أخبر ملکه بهذه التطورات وطمنه بانه اتخذ ما یلزم للصمود فی وجه الحصار.

و یشیر فیلبی فی بعض صفحات الکتاب (الص ۱۹۹) الی ایعاز الملک عبد العزیز السعود الی حکومته بالعمل علی تحقیق مشروع انشاء سکة حدید الی البحر الأحمر، فلم یتأخر المستر غیلدیا

Gildaa

مسؤول هذه الأعمال عن القیام بمسح خط منتظم یمتد ما بین الریاض و المدینة عن طریق مرّات و القصیم، و من هناک الی ینبع وجدة مع انشاء فرع الی مکة، أی الی مسافة یبلغ طولها حوالی ألف میل. و فی نهایة عام ۱۹۵۴ کان کل شیء جاهزا للبدء بانشاء الخط المقترح، لکن المبالغ التی أرصدت له فی المیزانیة لم تکن قد وفرت له بعد .. و یتطرق بعد ذلک الی تشغیل سکة حدید الحجاز و إعادة ترمیم المتخرب منها ما بین معان و المدینة، فیقول متذمرا انه یود لو نجنّب الخوض فی حدیثه. لأن هذا المشروع ظل یدور البحث فیه منذ ثلاثین سنة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۷

و ظل المسؤولون عنه یصرحون بترمیمه فی القریب العاجل بین حین و آخر.

لکنه لم یصل قط الی مرحلة إجراء المسح التفصیلی له برغم أوامر سعود المشددة فی انجازه. ثم صرفت مبالغ طائلة علی السفرات و اللجان لدراسة التقاریر، و لم تکن هناک صعوبة فنیة تحول دون إعادة تسییر الخط.

و المفهوم ان المشروع کله لا- تزید کلفته علی أربعة ملایین باون تتحملها السعودیة و سوریة و الأردن. و قد قیل فی کانون الأول ۱۹۵۵ ان لجنة ثلاثیة غادرت الشام الی معان لترتب المباشرة باصلاح الخط ما بین معان و المدینة .. لکن شیئا من هذا لم یظهر للوجود

حتى الآن بطبيعة الحال.

و آخر ما يرد ذكر المدينة فيه خلال هذا الكتاب أشارة فيلبى الى خصومته مع يوسف ياسين وزير الخارجية السعودية الأسبق، و اتهام يوسف لفيلبى بتأثيره على الملك فى إلغاء مقاولة تبليط طريق المدينة المبهض من دون انزال عقوبة بالشركة البريطانية، التى كانت قد خسرت مبالغ غير يسيرة فيه و لم تنجزه (الص ۲۱۲).

و من كتب فيلبى التاريخية الآثارية المهمة كتابه الموسوم «أرض مدين »، المنشور فى سنة ۱۹۵۷ أيضا. فقد ضمن فيه التحريات التى أجراها ما بين تشرين الثانى ۱۹۵۰ و مارت ۱۹۵۳ فى منطقة مدين القديمة التى تقرب من المدينة، و كان فيلبى قد جعل المدينة مقرا له و ظل يذهب منها الى مختلف الجهات المطلوبة للبحث و التنقيب على ما يقول بمساعدة من الملك عبد العزيز الذى قدم له منحة مالية قدرها ألف باون لهذا الغرض. و هو يقول انه أجرى هذه التخريات العلمية فى سهول و جبال و وديان بلاد قديمة جدا تعود فى أيام عزها الى عهد ابراهيم الخليل و موسى و سليمان، و الى عهد نابونيدس البابلى الذى كان يجعل عاصمته الصيفية فى تيماء، أو الى عهود الملوك اللحيانيين و المعنيين و النبطيين الذين تعاقبوا على حكم العرب من أهل عاد موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۸ و ثمود، و سيطروا على الطرق التجارية التى كانت تصدر بواسطتها توابل «بلاد العرب السعيدة» و عطورها الى مراكز المدينة الكبرى فى الأزمنة السحيقة فى القدم (الص ۴).

و مما يدونه فيلبى فى المقدمة عن تفصيلات مهمته هذه حول المدينة قوله ..:

و قد قررت ان تكون المدينة نقطة تحركى الفعالة فى حملتى الى مدين؛ التى جعلت من أهدافها الرئيسة جمع الكتابات التاريخية القديمة فى ميدان كان قد ارتاده جزئيا من قبل تشارلز هوبر و جوليوس يوتنغ فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى، و الأبوان جوسن و سافينياك من القدس ما بين سنتى ۱۹۰۷ و ۱۹۱۰. و نادرا ما كنت أتوقع أن أجد خلال حملتى هذه شيئا مثل اسطوانة تيماء المشهورة، الموجودة فى متحف اللوفر الآن، أو مثل الكتابات الملكية المعنية التى وجدت فى مدائن صالح و العلا (التى كانت تسمى ديدان فى الزمن القديم). لكنى توقعت اننى لا بد من أن أعثر على نصوص ثمودية و نبطية جديدة، فضلا عن بعض النصوص السبأية و المعنية و حتى الأغريقية، بينما كان الحلم الذى استوحيت منه رغبتى فى زيارة مدين هو إمكان العثور فى الجهة الشمالية الغربية من جزيرة العرب على أصل الخط السينائى الأولى المشهور، الذى لا يعرف له وجود اليوم الا فى منطقة سيناء و يعتقد بأنه أساس الأنباء المعروفة. و الحقيقة ان إحدى الكتابات التى عثر عليها ريتشارد بورتون فى مدين من قبل كان قد أدخلها الدكتور ليبوفتش فى مخططه الخاص بنصوص الخط السينائى الأولى، الذى نشره فى ۱۹۲۰، مع أنه يبدو الآن بأنه خط ثمودى فى الحقيقة. و يمكننى ان أقول فى الحال بان تحرياتى عن مواد تاريخية من هذا النوع لم تكن موفقة فى نتائجها، مع أننى جمعت بالفعل حوالى ألفى نموذج للخطوط من مختلف الأنواع من منطقة واسعة جسيمة تمتد من المدينة المنورة الى خليج العقبة. و قد يكون من الصحيح ان نفترض بأن الخط السينائى لم يكن مصدره جزيرة العرب.

على اننى عثرت على بعض النماذج التى يمكن أن تقارن على ما يبدو بنصوص

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۳۹

بورتون المشار اليها قبل هذا فى بعض الاماكن الأقرب الى الرياض.

و فيما عدا هذا فمن أهم ما ورد ذكر المدينة فيه قول المؤلف بأن هذه الرحلة قد جعلتهم يتذوقون طعم لحم الوعل أكثر من مرة خلال مرورهم بالأوعار الجبلية المقفرة التى تمتد من المدينة الى ما وراء خيبر بمسافة. و تمر سكة حديد الحجاز من هذه المنطقة على مسافة غير بعيدة من المخيم الذى نصبوه، و لا يعتقد فيلبى ان هناك أى أوربى آخر تسنى له من قبل أن يمر بالبقاع الممتدة الى شرق الخط الذى يربط المدينة بجهات خيبر. ثم يذكر فى مناسبة أخرى (الص ۳۰ و ۳۱) أنه و جماعته كثيرا ما كانوا يأكلون خلال رحلاتهم هذه تمر المدينة مع الشاى، و يصنعون منه أكلة تسمى «الحنينى» بخلط سحيق التمر بالطحين و البصل. كما يذكر ان المسافة بين المدينة و

خيبر تبلغ فى الطريق الاعتيادى مئة و تسعة و سبعين كيلومترا.

و هكذا يرد ذكر المدينة فى طول هذا الكتاب و عرضه، و لا سيما خلال الفصل الأول المعنون بعنوان «المدينة الى خيبر».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۴۰

الفهرس

الموضوع الصفحة

المدينة المنورة قديما

يثرب و موقعها ۷

يثرب و اسماؤها ۱۲

سكان الحجاز و الجزيرة العربية ۱۶

حياة سكان الجزيرة العامة ۲۰

نشأة المدينة المنورة و سكانها ۲۱ الاقدمون

نزول اليهود المدينة ۲۵

الاوس و الخزرج ۳۱

حضارة المدينة و منازل اليهود ۳۳ و العرب

الاسطورة ۳۸

عودة الى التصافى ۳۹

حروب المدينة و ايامها المشهورة ۴۱

طبيعة المدينة و سكانها ۴۴

الموضوع الصفحة

عوامل السكن و التمصير ۵۶

الوديان

وادى العقيق ۵۸

وادى القرى ۵۹

وادى مذينيب ۵۹

العيون

عين فدك ۶۰

عيون الفرع ۶۰

عين دومة الجندل ۶۰

عين أبى نيزر و عين البغيبغة ۶۰

الآبار

بئر غرس ۶۲

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۴۱

الموضوع الصفحة

بئر أرما ۶۲

بئر أريس ۶۴

بئر حا ۶۴

بئر بضاعة ۶۵ موسوعة العتبات المقدسة ؛ ج۳ ؛ ص۳۴۱

ر رومة ۶۶

بئر رئاب ۶۸

بئر عروة ۶۸

الحاصلات الزراعية ۷۱

الصناعة و التجارة ۷۸

اشهر قرى المدينة و ضياعها

العقيق ۸۲

خيبر ۸۴

قرية فدک ۸۹

وادى القرى ۹۳

قرية الفرع ۹۵

قرية قبا ۹۵

دومة الجندل ۹۷

قرية ينبع ۹۹

قرى أخرى ۹۹

اشهر مواقع المدينة و اماكنها القديمة

حرّة واقم ۱۰۰

حرة الوبرة ۱۰۰

الموضوع الصفحة

البقيع ۱۰۰

زغابة ۱۰۶

النقا و حاجر ۱۰۸

المنحنى ۱۰۸

حطم الضحيان ۱۰۹

حصن كعب بن الاشرف ۱۰۹

سقيفة بنى ساعدة ۱۰۹

ثنية الوداع ۱۱۰

سوق المدينة و سوق بنى قينقاع ۱۱۰

المدينة المنورة فى الشعر
ابو بكر العيدى او العيذى ۱۱۵
الاعشى- ميمون ۱۱۶
امرؤ القيس ۱۱۶
البرجمى ۱۱۷
جرير ۱۱۷
جورج صيدح ۱۱۸
حسان بن ثابت ۱۱۸
السيد حيدر الحلى ۱۱۹
سعيد بن العاص ۱۲۰
الشريف الرضى ۱۲۱
الشريف المرتضى ۱۲۲
عبد السلام بن يوسف ۱۲۲
عبد اللّه بن قيس (الرقيات) ۱۲۳
موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۴۲
الموضوع الصفحة
عمرو بن النعمان البياضى ۱۲۳
الفرزدق ۱۲۴
الكميت بن زيد الاسدى ۱۲۴
الشيخ محسن الخضرى ۱۲۵
محمد ناجى القشطينى ۱۲۶
مهيار الديلمى ۱۲۷
نائلة بنت الفرافصة ۱۲۸
هاشم الكعبى ۱۲۸
هجرة الرسول الى المدينة
هجرة الرسول ۱۳۱
القاءات الاولى مع أهل المدينة ۱۳۷
بيعة العقبة الاولى ۱۳۹
بيعة العقبة الثانية ۱۴۲
أثر العلاقات بين المسلمين و اهل يثرب فى مكة ۱۴۳
يوم الهجرة ۱۴۴
طريق الهجرة ۱۴۶
الرسول فى قبا ۱۴۸

بناء مسجد قبا ۱۴۹

توجه الرسول الى يثرب ۱۴۹

بناء المسجد النبوى ۱۵۱

اعمال الرسول فى يثرب ۱۵۴

المؤخاة ۱۵۵

الموضوع الصفحة

الوثيقة ۱۵۷

المدينة فى المراجع الغربية

مدينة الرسول فى المراجع الغربية ۱۷۳

الاسم و الموقع ۱۷۴

التاريخ القديم ۱۷۸

الاوس و الخزرج ۱۸۱

ديانة اهل المدينة قبل الاسلام ۱۸۴

المدينة فى عهد النبى (ص) ۱۸۵

المدينة قبل مقتل عثمان ۱۹۱

المدينة فى عهد الأمويين و العباسيين ۱۹۲

المدينة فى ايام الفاطميين و ما بعدها ۱۹۵

المدينة فى عهد العثمانيين ۱۹۶

وصف المدينة بشكلها الاخير ۱۹۷

الحرم النبوى ۱۹۹

وصف الحرم ۲۰۱

المدينة فى مراجع اخرى ۲۰۴

الفتنة الكبرى فى المدينة ۲۱۱

المدينة فى كتاب دونالدسون ۲۱۵

أئمة البقيع ۲۲۲

الرحالة الغربيون فى المدينة ۲۳۸

جون لويس بورخارت ۲۴۲

الضواحى ۲۴۶

الحرم النبوى الشريف ۲۴۷

موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۴۳

الموضوع الصفحة

اماكن الزيارة الاخرى ۲۵۳

سكان المدينة ۲۵۶

حكومة المدينة ۲۵۸
السر ريتشارد بورتن فى المدينة ۲۶۰
بين مكة و المدينة ۲۶۳
مظهر الحرم النبوى ۲۶۴
المنائر ۲۶۶
الاروقة و الاعمدة ۲۶۷
دفن النبى ۲۶۹
شىء من تاريخ المدينة ۲۷۰
تشكيلات الحرم ۲۷۵
سكان المدينة ۲۷۹
الموضوع الصفحة
البقيع ۲۸۰
مساجد المدينة ۲۸۵
مشاهدات جون كين فى المدينة ۲۸۹
سكة حديد الحجاز ۲۹۳
المدينة فى الثورة العربية ۲۹۷
الشريف على حيدر ۳۱۲
المدينة فى ۱۹۲۵ ۳۱۹
مكتبات المدينة ۳۲۶
ابواب الحرم و محاريبه ۳۲۷
البقيع فى ۱۹۲۵ ۳۲۸
المدينة فى مؤلفات فيلبى ۳۳۱
موسوعة العتبات المقدسة، ج۳، ص: ۳۴۴

هذه الموسوعة

على الرغم من انتشار الحضارة و الثقافة التى دفعت بالكثير من العلماء و المحققين و الباحثين فى العصور الأخيرة الى احياء مختلف التراث الاسلامى و الآثار العربية فيما بحثوا، و حققوا، و كتبوا، فقد ظلت هنالك كنوز ذات قيمة كبرى فى تاريخ العالم الانسانى فضلا عن تاريخ الاسلام و العرب.

لقد ظلت هذه الكنوز مطمورة فى بطون الكتب المخطوطة و المطبوعة لم يمسها احد الا من بعض اطرافها، و لم يتطرق اليها باحث الا من بعض جوانبها، و هى كنوز لم تقتصر على ناحية دون ناحية، فهى تخص العلم، و الادب، و الفن، و الفلسفة، بقدر ما تخص الفقه و التاريخ، متمثلة كلها فى تاريخ العتبات المقدسة:

مكة المكرمة- المدينة المنورة- القدس الشريف- النجف الاشرف- كربلاء- الكاظمين- مشهد الرضا- سامراء .. الخ

فلكل عتبة من هذه العتبات تاريخ ذو علاقة جد وثيقة بالثقافة و الحضارة الاسلامية و العربية، مما اختزنته من المخطوطات الاثرية، و

الروائع الادبية، و ما قامت به من المدارسة طوال العصور المظلمة، اذ لو لا هذه العتبات لما بقى اليوم بايدينا من تلك الكنوز الا النزر اليسير.

و هذا هو الذى دفع بطائفة من اهل الفضل و اساتذة جامعة بغداد من ارباب الاختصاص الى ان تتضافر جهودهم فى اخراج موسوعة تاريخية- علمية- اثرية- ادبية- عامة، تتناول جميع العتبات المقدسة بالبحث المفصل الشامل منذ اول تمصير العتبة المقدسة حتى اليوم- على ان يكون لكل عتبة اجزاء خاصة، و ان يكون كل جزء منها مستقلا بمواضيعه.

و هو اول عمل من نوعه، و اول مجهود خطير يقوم به مؤلفه، و يكفى ان يستدل القارىء على خطورته مما يقع تحت عينيه من اجزائه.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخريّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹